بوجدرة

رواية

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الإرا

منشورات ANEP

الإراثـــــة

رشيد بوجدرة

الإراثـــــة

روايـــــة

ترجمة

جيلالي خلاّص

الكتاب: الإراثة (رواية)
المؤلف: رشيد بوجدرة
المترجم: جيلالي خلاّص
الغلاف:
الناشر: * المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)
28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر
الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213
الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213

الطبعة الأولى 1983
الطبعة الأولى 2003
ISBN: 9961-756-04-5
Dépôt - légal: 820-2003

جميع الحقوق محفوظة

EDITION ANEP
28 route Ahmed OUAKED Dely-Ibrahim, Alger Algérie
Tél: 213 21 37 38 52/53 - Fax: 213 21 36 72 20/53
e-mail: dcpa@anep.com.dz

السكة 5

ـ شدة الروعة لم تكن في حقيبة الورق المقوى المقسى، التي ماينفك يحملها في يسراه (التحقيق سيثبت فيما بعد أنه لم يكن أيسر أبداً) مدلى الذراع إلى الأمام قليلاً؛ فتراها في كل منعطف، ممر، أو منعرج مدرج ميكانيكي ـ محشوة لحد الانفجار، مهترئة وعلى شفا البلى، بجلدها المخدد بمئات التجاعيد، المبدع لضرب من الطوبوغرافيا المعقدة لشدة الرقة التي قد تؤدي إلى تجديد سمج بالنسبة لحقيبة مرضرضة بهذا الشكل، سيما وأن أقفالها الصدئة تزيد إغلاقها هشاشة ـ تسبق جسد صاحبها، أو بالتدقيق تسبق ذراع هذا الأخير، مدة ثوان من الدفع، تبدو دقائق خرافية الطول، لأولئك الذين يرونها سهواً أو فضولاً، تظهر معلقة في الهواء بين رمادية الأرض الوسخة المبرقعة بالأصفر (تذاكر المترو) والأبيض الرمادي (أعقاب السجائر) والأزرق الأحمر (أوراق متنوعة) إلخ... وبين الفضاء الأكثر حليبية حقاً، وإن كان محاطاً من حين لآخر بمعينات ضوء أصفر كسيح يصدر من مصابيح تتدلى من الأقبية ذات العلو

الخارق، بحيث أن لا أحد يفكر، من بين أشد الناس لامبالاة بمشهد الحقيبة الضخمة، في تقصي القمة الحقيقية للسقف، كما لو كانت تثبط عزائمهم كل هذه الطبقات والطيات المختلفة للجو المعكر، الغارق في الزرقة المعابة التي تتفاوت درجات سمكها بين رأس أطول شخص وبين أعمق جزء من السقف خشب المنخور، تبرقعه لطخات كبيرة من الجبس الرطب، كما لو كانت متلاصقة بالصدفة أو كما لو كانت مثبتة بمعجزة مساح أراضي راح، بدل قياس هذا الفضاء، يحوله إلى تجميد دائم لجميع ما يلين ويترطب والكل ـ علاقة الأوبتى/ الفضاء ـ يقطع الشيء ويحيطه من جميع الجهات كلمسة، أجزاؤها الخالية من جرة القلم الفحمي، يكون قد خربشها رسام غير حاذق فعلاً، لكنه شديد الحيلة؛ إذ، بتلك الطريقة، يكون قد نجح في جذب انتباه هؤلاء المشاهدين الذين يمكن تصنيفهم الآن إلى ثلاث فئات: أولئك الذين يتظاهرون بالمفاجأة، أولئك الذين يتظاهرون بالبرودة، أولئك الذين يتظاهرون بالفضولية منبهرين أو يعطون الانطباع بأنهم كذلك، باقتحام الحقيبة المنبعجة فضاء سكة المترو الغني الهيكلة بل المكتظ، فرحين، على كل حال بالفرصة المتاحة ليم ليتسلوا مدة ثوان، قبح هذه الأجهزة المكدسة بفوضوية متكلفة بحيث ما تستطيع العيون المتنقلة أن تكتشف في الواقع، ضرباً من التماثل المحزن الصارم الروتينية في الجانب الآخر من الرصيف، الشديد الشبه بذلك الذي كانوا يرون الحقيبة تمر

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

فوقه أولاً، يليها صاحبها (صاحب الحقيبة)، فيقفون حائرين أمام ضخامة الشيء المنتفخ، المنفتح عدة فتحات تربطه خيوط مختلفة الألوان، تتدلى أطرافها المنسلة تبعاً لإيقاع سير حاملها الحثيث الذي سرعان ما يتساءل إذا لم يخطىء الجهة مرة أخرى، أمام قوة تطابق جزأي المحطة، إذ أن كليهما يبدو له انعكاساً للآخر، سيما وأن الإشارات لا يمكن أن تنقذه أبداً، نظراً لكراهيته الحقيقية بل عدائه المقدس تجاهها، إذ لم يكن يستطيع تهجية كتابتها التي تظهر له كمجموعة من الأشكال اللامفيدة، لا ترمي إلى شيء سوى إزعاجه. وانطلاقاً من ذلك، إذن، تجذر حذرة تجاهها وتجاه كل شيء! لا السروال المحبك المنسوج من حبيبات قطنية مزدوجة اللون (أحمر ورمادي) مختلطة بلا روية، حسب قانون حبك مريب، إذ لم يكن بالإمكان القول، ما إذا كان القماش قد نسجته فلاحة بنولها أو عاملة بآلتها الهدارة؛ حيث أن رؤيته من بعيد تطبعه بالتوافق بين الأحمر والرمادي. لون ما لشمالة خمر، في اعتقاد البعض، بل صدىء في اعتقاد البعض الآخر، وإن كان على كل حال دون لمعان خاص، بل باهتاً غير ملون، حسب الرأي العام، ذلك السروال المحبك المتأنبب حول ساقيه اللتين يخيل للرائي أنهما نحيلتان، دون القسم بشيء، نظراً لوجود احتمال آخر! فحامل الحقيبة قد يكون ذا ساقين مفتولتين تتراوحان داخل سروال فضفاض يستمر في تسلقه النشيط حتى يغطي الخصر الضامر، الملفوف في الواقع

بنوع من بزة الوقاد، أسود باهت نيلي أو بنفسجي صراحة، تبعاً لمنابع الضوء (نيون، مصابيح عادية، الانعكاسات البنفسجية للصباغات المعتدية التي تغطي المقاعد المنصبة حديثاً هنا ـ بقلبة ـ يد كما يقول البعض ـ بعد أن خلفت مقاعد أخرى من الخشب الأحمر الباهت كانت أكثر بدائية، اختفت بين عشية وضحاها، دون إشعار الجمهور ليحتاط بنظارات سوداء، مثلاً، كفيلة، حسب الأخصائيين، بحمايته من هذا الانعكاس الجديد اللامريب المشع بمادته البلاستيكية الشرسة الحداثة بمقدار الألوان الفاقعة التي تؤذي العين إلى حد إمكانية التأثير على المسافرين وتضليلهم في طريقة التحديد الدقيق لجودة القماش واللباس الذي يرتديه الآخرون، هذا القماش القادر بفضل الأضواء المختلفة التي تلعب دور مرسمة طيف تفسخ المادة والألوان، على أن يحفظ في حويصلات لامرئية من المادة، دواعي عمى لا حصر لها ناجمة عن التكوين الكيميائي للون أو البلاستيك ذاته، واضعاً خصوصيات محلوله وكأنها نهشات كهنوتية عديدة تشوه الأقمشة الأقل طبيعية، أي الأقل مقاومة لهذا الاعتناء الذي يتفق فيه التلوين والمادة، ويموّه الملونات الأخرى إلخ...) وهو يتراوح على جنباته كما لو كان برنوساً من صوف غير محلوج، أو كما لو كان بخلاف ذلك بنياً، وإن كان أدكن جد غامق، بلون البن الكولومبي الذي تفخر ملصقة إشهارية واسعة بجودته قصد إثراء الدار التي تزعم مزج أنواعه المختلفة واستخلاص

قهوة محمصة خاصة بمصفاة (مع الصورة العملاقة التي تمثل أربعة أو خمسة صفوف من أكياس القهوة المملوءة إلى حد الاندلاق، أعلاها مفتوح، حيث يظهر عليها إشارة «إنتاج كولومبيا» ـ مسطرة في وضوح بحروف كبيرة ضخمة ـ ثم أسفل أكثر، كتبت كلمة «بن» بحروف أشد ضخامة ودكنة، والكل يسبح في منوعات بنية تتراوح ما بين بنية القهوة و«خيشة» الأكياس وبنية الكتابة المائلة للأصفر) تلك التي يقترن بلونها على نفس الوتيرة في لمعان يكاد يكون مزيتاً (ربما للتشابه الثاقب لرأس المسافر الذي يرى الفروق أفضل مما يرى الأشكال المجننة، سيما وأنه فيما يخص الكتابة...) محمولاً بلامبالاة محسوبة أيما حساب، في رأي امرأة عجوز سبق لها أن قضت شهر عسلها في البلد الذي قدم منه ـ ثم أضافت تقريباً ـ. وهي جد فخورة بصيغتها، قبل أن تغرق في سرد ذكريات ترتبط باللون البني، مثيرة الدم النازف من جرح في ساق ابنها اليمنى، في البلد الذي جاء منه الآخر، الشخص صاحب الحقيبة المتأرجحة. كلا، لم يكن الأمر يتعلق بهذه الحقيبة (التي تفسح المجال، علاوة على ذلك، لظهور آثار وأشياء، أو بدقة أكثر، أشكال أشياء ملفوفة في أوراق الجرائد، كما لو كانت مقلوبة الكتابة ما عدا إذا كان الأمر مجرد كتابة تكاد تكون مجهولة في البلد الذي يحتضن المشهد، بحيث لا تهم أحداً بالمحطة التي سبق لها أن أخلت غالبية ركابها من 7 إلى 9، ولم يعد يؤمها سوى المتأخرين الأبديين،

الأرامل العنيدات اللواتي لم يبق لهن شيء يضيعنه غير وقتهن الذي تنسلنه بين ممرات المترو وبهاوي المحلات الكبرى وإن كانت هذه لا تفتح إلا على التاسعة والنصف، فيقبلن عليها قبل ميعاد الفتح بزمن طويل، ثم ينتظرن في هدوء تام، وكذا الكناسين الزنوج الذين يدخلون الميدان يتلاعبون بالمكانس في سحر، أعينهم تحدق في لاشيء والكآبة تملأ نفوسهم، الكتابة التي لا تعني أحداً، حتى بعض أولئك العمال ـ الأكثر ندرة ـ ذوي السمرة الأقل دكنة من سمرة الأولين، أولئك الذين يقتفون أثرهم كموجة ثانية لهجوم النظافة المؤقت، إذ سرعان ما يتسخ البلاط بمجرد مرور فريقي الكناسين الذين يذهبون لإخلاء دلائهم أو صناديقهم) ولا بالسروال المقرفص فوق حذاء شرع جلده، المشقق من كثرة المشي الطويل عبر البرك الشاطئية البائسة يتشح بسحاة رقيقة لا يراها الإنسان، وإن كانت تشغل في السر، صاحب الحذاء، الذي يتساءل بين الحين والآخر عن أصل هذه السحاة، قائلاً في نفسه أنه من الحماقة التخمين في هذه الطبقة من تلك المادة المائلة للأخضر والتي لا تكاد ترى، بينما كان يعلم أن أمامه متاهة كاملة يعبرها ليصل إلى مبتغاه، داخل هذا الفج الذي موّه مظهره تمويهاً حقيقياً تحت البلاطات، الدعائم المقاعد، الملصقات الإشهارية، واجهات العرض الصغيرة، آلات توزيع الحلوى وغيرها من الملحقات التي كان هدفها الوحيد ـ في نظر الرائي ـ جعل الركاب ينسون أنهم

مدفونون تحت الأرض، في باطن محفور بعمق داخل المادة، عبر ألف حاجز جيولوجي وبفضل تقعير عليم وخبيث؛ كان يجب أن يموه اليوم بالألوان، حتى لا يفكر أحد في الموت، لكن، هو الذي جعل من الحذر جوهراً سحرياً لليقظة، ما زال متوجساً يتخيّل كثيراً من الأشياء ويلف حول خلائق البشر وتراكم الأشياء باحتياط كبير، لشدة تلبد ذهنه بهذا السفر الطويل تحت الأرض الذي سيبدأ ولم يكن يعرف عنه شيئاً. كلا لم يكن لا هذا ولا ذاك، إنما هي مجرد قصاصة ورق كان يمسكها ضاغطاً إياها بين سبابة اليد اليمنى وإبهامها، تلك القصاصة التي تبدو أهميتها مفرطة لأولئك الذين كانوا هنا، الكل يندرج في تقصير تصوري خاطف يسقط في بداهة بأثقل من مسلمة! قناعة داخلية لا يمكن البرهنة عليها، ربما أسست على تأويل خاطىء، لكنها تنال الإجماع لأول مرة، الشيء الذي لا يحرم أحداً من القدرة على أن يضيف بأنه بعد هذا القول لا يمكن غض الطرف عن وجود تهويمات حقيقية وأخطاء جماعية... إلخ.

ـ ثم الممرات تلو الممرات برتابة لا يعاكسها شيء، ولا حتى الملصقات الإشهارية المتوالية هي الأخرى، الواحدة تلو الأخرى، في ثبوت قطعي يثقب الحدقة المجنونة ويكدس الصور الواحدة فوق الأخرى، تتسابق تتلاحق وتتجاوز مثلما لو نظرت إلى شيء مغمضاً عيناً بطريقة ما تاركاً الأخرى مفتوحة بحيث تتوهم وجود تعدد

يمتد إلى ما لا نهاية، على شكل حلزونات متوثبة، بينما لا يتحرك لا الشيء ولا الموضوع. ذلك ما يتسبب فيه حضور نفس الملصقة على أبعاد منتظمة تمثل دوماً ذات المشهد، مفتخرة بهذا المنتوج أو ذاك (إنتاج كولومبيا ـ البن) وهكذا، على مسافات طويلة تخلق دوراناً مضاعفاً ناتجاً عن الدهاليز والملصقات المثبتة يمنة ويسرة، في انتظار أن يتم إلصاقها ذات يوم فوق السقف، بل على الأرض حتى يخلق في نفوس المشترين المحتملين الانطباع المتمثل في كونهم وقعوا في الفخ وأنهم لا يستطيعون القيام بشيء اللهم إلا الشراء والاستهلاك بلا حدود، وهي طريقة من طرق الثقة في النفس، وفي الحالة المخالفة، إبعاد الضيق بدواء إشباع الرغبات! ثم، ها هو الآخر يمسح هذه الدهاليز، يمر بنفس الطريق مرتين أو ثلاث مرات حاملاً دوماً حقيبته الأبدية، ماسكاً قصاصة الورق، كما لو كانت كل حياته قد لخصت فيها، على شكل ميكروفيلم، بواسطة آلة عالمة، ثم يقف بين الفينة والفينة ليريح يده التي أنهكها الحمل، حتى أنه، بعد بضع ساعات من التيه، أصبحت إحدى كتفيه ـ تلك الداعمة للذراع التي تحمل يدها الحقيبة ـ أقل انخفاضاً من الأخرى ثم هذا المسير السيء، إذ استمر في اعوجاجه حتى وهو يقف ليستريح قليلاً. ربما لم يكن له حتى مجرد الوقت للتفكير في ذلك، وهو الولع بتلك القصاصة التي تبدو صغيرة جداً بين السبابة النحيلة الطويلة اللامنتهية وبين الإبهام الضخم المقرفص بلا رجعة،

ما عدا إذا كانت قصة الكتف هذه الأكبر من الأخرى، قد لفقها تلفيقاً شاهد عيان سكران نصف نائم رآه يمر بينما هو يجلس فوق قاعدة، عينه نصف مفتوحة وإن كانت موصلة مباشرة بالقفص المزجج الذي كانت تقف خلفه ـ من باب التأويل ـ موظفة تصرخ عبر الهاتف، مستعدة لإطلاق الريح لساقيها عند أول استنفار، ويقول أي شيء حتى يبقى في الدفء أطول مدة ممكنة بمكتب قاضي البحث أو محافظ الشرطة، قائلاً: ولكن كلا، ولكن كلا، إني أؤكد لكم. وربما كان هذا العرج الخفيف، الذي لا يكاد يرى، علاوة على ذلك، كان خلقياً أو أصاب صاحبه لممارسته مدة سنوات طويلة إحدى الحرف (أية حرفة مثلاً؟) المشوهة ـ ومهما يكن، فقد شوهد وهو يروح ويجيء في الدهاليز، نظراته تتعثر، بهذه الصور التي تعرض الجبن وعلب مستحضرات التنظيف ومرق الطماطم والمناظر الغريبة للأطباق الطازجة والمقلات ومستحضرات الزينة والتبابين والكتابات المقلوبة وآلات الغسل ولزازات الحيض والبيوت الريفية والتخوت الجلدية وورق الاستنجاء والنساء العاريات والتلفزات ورافعات النهود والحشيات المريحة والثلاجات والسيارات وغاسلات الأواني والأسفار اللوتسية الأسطورية والسباغيتي والدراجات ومزيلات الروائح والياوورت قائلاً: (ولكن كلا، لكن كلا، أنى أؤكد لكم، لا لمجرد القول غير أني رأيته فعلاً يروح ويجيء عبر الدهاليز ينظر إلى الدراجات والسباغيتي، أخيراً! أنتم ترون، ثم، لقد كان

غريباً، كتفاه! أجل هذا صحيح، إحداهما كانت أكثر). إذن فهو يتعثر عبر هذه الدهاليز في ملتقيات الطرق التي توجد فيها تيارات هوائية رهيبة لم تكن تبرده أكثر وإنما كانت تلف حول رجليه سرواله الأزرق النيلي الذي كان يسبح داخله، صاعداً المدرجات الآلية، وهي تسير فلا تبلغ بلاطها المعدني اللامع دائرة حول نفسها، عائدة، منبجسة، في فحيح لا يسمع إطلاقاً كسمكة ضخمة ذات ألف زعنفة بيضاء تلمع تحت شمس مئات أنابيب الأضواء النيونية التي تنير الملصقات المعروفة وتنعكس على الأنوكس مانع الصدأ الذي طليت به المدرجات الآلية مضاعفة بذلك الهياكل، مغالطة في الطبوغرافيات ومفتعلة في تصنع ما يشبه الفراغات التي لا تملك إلا صفة عدم الوجود ومع ذلك فهي ليست مرايا وهمية حقيقية، غير أن رغبة المغامرة بامتحانها كبيرة أو حتى مجرد معرفة ما علاقتها بالفراغ الحقيقي المرقن المثلم المقصوص أو المجزأ كحشرة (بوسوط الخيل) التي لا يمكنها كشف رأسها من ذيلها، هاصرة ـ المدرجات الآلية ـ الظلال، وبين الفينة والفينة (الحوادث نادرة) تهصر سيقان أطفال صغار غافلين، قوائم كلاب مدربة أو أرجل عجائز مريضات بالدوالي في محرقة آلية، كما لو كان يجمدها الخلو من الضجيج الذي يحق للمرء المطالبة بسماعه وهو يرى مثل هذه الآلات المعقدة جداً تسير، هو الذي لا يني يحمل بيده حقيبته بدل أن يضعها فوق أحد مدرجات السلالم الآلية، دائم الحذر عن

حق، العين يقظة في مواجهة المحيط المعتدي، فيكتشف هنا وهناك عجوزاً جد وسخ مشعث، وقد راح ينعس فوق مقعد تحت السلالم، مما يذكره بنوع من عجلة كبيرة لا ينقصها إلا موسيقى الحفلة الشعبية وقربة قمطر من القماش الخشن الأصفر صحراوي، منه تنبجس فوهة زجاجية، لا يمكن للمشاهد أن يرى محتواها، أو فتاة جميلة تشبه بجسدها ولباسها الفتيات الجميلات اللواتي يعرضن الألبسة اللصوقة (من شستيرفيلد حقاً. الآن سيحب الرجال الألبسة اللصوقة)؛ الاختلاف يكاد ينحصر في كون الفتاة الجميلة الحية لحماً ودماً لا تبتسم نفس ابتسامة أولئك اللواتي يكشفن أسناناً ناصعة فوق لوحات كبيرة، وإنما هي تتسم بالتعبير عن شيء متعثر مدللة تعرف أنها جميلة وجد فخورة بذلك كي تتكرم بإلقاء نظرة على الدخيل الذي لا يعجبها، بالتأكيد، وقوفه بهذه الحقيبة التي رأتها في رمشة عين خفية، مما سمح لها بأن تنظر إلى الآخر دون أن يستطيع أن يعرف بالتأكيد ما إذا كان محط النظر أم لا. ومهما يكن، فهو ليس بحاجة لذلك! إنه متعجل لبلوغ مقصده. إنه لا يريد تضييع الوقت لعلمه أن المغامرة ستكون جد صعبة، ثم يتجنب من جديد البشر والأشياء كي يجد نفسه عند نقطة انطلاق يتعثر ببوبيات مصبوغة بالأخضر اللامع، أعلاها، الذي لا يتجاوز قامة رجل، يحمل إشارة حمراء خطت عليها كتابة بيضاء، سرعان ما تنغلق في وجهه ـ كما لو كان أحدهم يتعمد تأخيره في ترحاله الطويل ـ سواء ذات

الدفتين أو ذات الدفة الواحدة. بنفس الشيء! التقدم يتباطأ بسببها. الزمن يمضي، العنف يلوح، ويتجمع على مستوى الجمجمة. غير أنه متعود على المناطق الصعبة! فحذاؤه المشقق الذي كان يدهنه، هناك، بزيت الزيتون، حين يسير طويلاً، قادر على أن يشهد على ذلك، ورغم أن ذلك الحذاء لا يجذب الانتباه بمثل الطريقة التي يمسك بها قصاصة الورق، فإنه لم يكن يمر مر الكرام تماماً ـ هو المتعود على المناطق الصعبة... ومع ذلك، لم يكن قد وعى شيئاً كبيراً من المخطط الذي ذكر له بالإصبع، ـ حيث تتلوى الخطوط عبر تعرجات تبعث الذاكرة على تقيؤ تخمة الانطباعات المعاشة منذ يومين أو ثلاثة أيام، المتواجدة الواحدة فوق الأخرى على طريقة تلك الخطوط السوداء، الحمراء، الصفراء، الزرقاء، الخضراء، والحمراء، من جديد، وإن كانت هذه المرة مرقنة بالأسود، ثم زرقاء، لكن مرقنة بالأحمر، ثم خضراء ومرقنة بالأبيض، مع دوائر فارغة بالداخل ودوائر ذات مركز أسود، ثم أرقام يحسن قراءتها (10، 12، 7، 1، 5، 13... إلخ) ثم أسماء بعضها مكتوب بحروف أثخن من الأخرى، بيد أن المجموع مرسوم بحروف تظهر كما لو كانت معكوسة، ما عدا إذا كانت مع خط بالأزرق والأبيض، تسطيره الثخين يصنع تعرجاً كذراع بحر يقطع المخطط قسمين متساويين أو ربما ليسا متساويين تماماً، إذ من الأكيد أن القسم السفلي أصغر من القسم العلوي فلا

يعرف أين الشمال من الجنوب وأين الشرق من الغرب، وحول تشابك الخطوط، تسطير منقط كما لو كان أحد الحدود المخزية المخربشة على عجل وبقليل من اللامبالاة، ذات ليلة جد ماطرة لوضع تلك التي وراء التسطير، أمام الأمر الواقع، وتحت الخط الحدودي أيضاً، لون يختلف عن ذلك (الأبيض) الذي يجري فوقه مختلف الخطوط ذات الألوان المتنوعة، ضرب من الأصفر المطبوع بنقاط حمراء صغيرة جداً، تكاد تكون لامرئية وإن كانت لا تطغى أساساً على اللون الرئيسي للأصفر، فتلطخ إن صح القول، محيط الخط المنقط الذي يصنع دائرة ناقصة (حتى مع زوائد فطرية، عقد، معينات ومربعات سرعان ما يعود تسطيرها ليلتحق بالدائرة الأولى) الفائضة هنا وهناك، المقحمة أحياناً، وإن كانت تعاند مع ذلك في احترام أدنى قدر ممكن من الدائرية ولو كانت مؤقتة، مع الفارق الذي يجعلها في الذاكرة أكثر أساسية وأكثر انطواء على نفسها بتجاوزات تكتفي، بدل أن تغوص في البحث بأشكال أخرى (مربعات مستطيلات، معينات... إلخ) عن الطيات الضرورية لبقائها على قيد الحياة وتوالدها الأبدي، تكتفي بتكديس الدوائر المتراكزة وجمعها في هيجان باطني لا يفقد بالضرورة هشاشته وإن كان يبطل كل أمل في العثور من جديد على مركز مثل هذا الانتشار الخيالي الذي لا يعبر سوى عن نفس منطقها التابع لنظامها ذاته ولا يعتبر إلا درجة التقصير الضروري لتوازنها عينه وسعادتها ذاتها ـ لكن

التطابق حقيقي مع هذه الشبكة من الخيوط المتداخلة، التي تتوقف جزافاً حيث لم يكن ينتظر أن تتوقف إلا نادراً، وتتقاطع خلافاً لكل القوانين الهندسية (وعدم الصرامة هذه لا تبدو أنها تشغل أحداً من الركاب، ومع ذلك فالمترو يضم 345 محطة و200 كلم من الممرات وينقل 4 ملايين مسافر في اليوم!) فتتجاوز، تتشعب، تتضاعف وتتقرفص بما يشبه قليلاً تلك الذاكرة المستعدة أبداً للانطلاق، وإن كانت مستعدة أيضاً لأن تعود تنطوي على نفسها ملتوية في حفرة الأشياء، المواد والانطباعات التي تشكل هي الأخرى شبكة تقطع في كل الاتجاهات تعرجات الزمن، تتجنن تنحجز، ثم تستعيد جأشها حتى عبر لجلجة أو انعكاس أو انبهار خاطف يروح ويجيء متقطعاً متذبذباً كمسلاط ضوء يعبر خطاً منحنياً في تردد يزيده صوت «البيب بيب» درامية أو سخافة، حسب. وهو يفكر بلا روية في كيفية العثور على طريقه وسط هذا التجمع المتصدع الذي يدير الرأس وفي غمرة هذا الخلط الملون كخربشة طفل أرعن لا يبالي بألم العيون التي تنغمض أمام كل هذه المعادن، سيما وأنه لا يجد ما يقوله عن الكتابة، اللهم إلا أنها جزء من الحواجز الكبرى التي يجب تلافيها، تلك التي تتضاعف في هذا السياق، متذاوبة حتى في صلب الطرق، كما لو كانت تخرج من نوباتها وغيرها من الانزلاقات، السقطات أو الزيادات الخارقة، بيد أنها لا تجسد شيئاً للغريب الصامت الذي بلغ نهاية المطاف وهو يعلم أن آخر الطرق أرهبها إذ

حدثوه عنها وحذروه، لكن يجب الاعتراف بأن البعض كانوا قد طمأنوه، مؤكدين ـ هم ـ أن الخروج منه (المترو) لعبة أطفال وأنه عندما يصل هناك، سيهزأ من تخوفه، وهم يضحكون ويقهقهون حتى أمام ملامحه المتعثرة وهو لا يبحث سوى عن الاقتناع بصحة ما يقولون، وإن كان أبعد ما يكون عن ذلك، وهم يخرجون من حافظاتهم الضخمة صوراً داكنة ليست مضببة وإنما هي كما لو كانت أثناء إخراجها، عرضة لعدم اختمار الاستحلاب ببطء شديد، لأن المصور كان يلحّ عليه أولئك الذين صورهم ـ بتفخيم ومن أجل الخلود ـ راجين منه الإسراع، وهو، رغبة في الاستجابة لهم أو التخلص منهم، يغطس يديه في الحوض حيث تسبح اللوحة الحساسة فيخرجها حتى قبل أن تلتحم تمام الالتحام بفعل الغرياء المنسق والبروميز الفضي والهلام، الشيء الذي ينتج لا صورة مضببة ولا مهتزة، وإنما هي كما لو كانت سائلة مع هذا الهلام ذاته الذي يترك آثار الاصفرار فوق دكنة الصورة، تلك الصورة التي تمثلهم وحدهم أو رفقة أصدقاء، في مواضع أمام أفواه المترو مقهقهين في خلاعة الملامح مسرورة على حال، وهم يعلقون، لإرشاده على كل التفاصيل، مهجين له كلمة «مترو» التي تظهر بدكنة أكثر فوق الصورة مبينين له على ضرب من اللوح المزجج تتشابك خلفه مجموعة خطوط كما لو كانت تنطلق من جمجمته التي يكاد يلامس الزجاج الذي يختبىء وراءه، تكاثر هذا. وهم، أمام خرسه المضايق

يقولون: لا تخمن فهو شيء سهل جداً، لعبة أطفال، ستكون أول من يضحك على ذلك، غيرَ أنهم لم يقولوا أي شيء واضح ولم يعطوا له أية نصيحة ولم يتحدثوا عن تغيرات الاتجاهات، إذ، كانوا يتكلمون عن المترو كما لو كان مجرد سيارة أجرة تسير في نفق فتقوده من نقطة إلى أخرى دون أي مشكل من أي نوع كان، وأنه لم يكن لهم القيام بذلك، سوى عرض قصاصته لأحد الطيبين فيرشده ـ بالإصبع ـ إلى السكة المطلوب ركوبها (لا تركب في الدرجة الأولى!) واصفين ألوان السيارات دون أن ينعتوا أبداً هذه المطارحة الخطية التي تبدو وكأنها تخرج مباشرة من رأس الآخر المبتسم للعدسة، دون أن يبدي أية علاقة هلع (والمسافر يحدث نفسه وهو يبتلع ريقه: ومع ذلك فهو شجاع حين يضحك هكذا، ويضع رأسه لصق زجاج الآخرين إذ لو كنت محله، لحدقت في الشوارع المحيطة كي أرى ما إذا كان أحد رجال الشرطة أو الدرك... وبعد، إنه متروهم، مدينتهم، إنها جرأة حقاً) كما لو كان جالساً في هدوء، يتناول الشاي أو غيره، لكن في كأس شاي بالضرورة ـ أمام بيته ـ الخيالي تماماً علاوة على ذلك ـ الواقع حسب اعتقاده، خارج القرية قليلاً، راوياً أنه اعتاد ابتلاعه من جديد، مصراً على أن يوضع في الجير قرصة من أزرق الميتيلان الذي ينتج عنه ذلك التلوين القدري المنبىء، دافعاً بالخيال التخريفي إلى درجة بعث رسائل يطلب فيها من أفراد عائلته أن يقدموا له تعليمات

دقيقة عن الطريقة التي يخلط بها الجير وكمية الماء... إلخ. مع نفس تلك الضحكة التي يصطنعها الآن للقول ما تكسّرش رأسك، الشيء سهل أكثر لكن دون أن يعطي ـ مثله مثل الآخرين ـ أية علامة يمكن أن تساعده، حقاً، لا، لأنه يمكنه أن يتذرع بالنسيان أو انطماس الذكرى وإنما لأنه كان يعتقد أن ذلك غير مفيد إطلاقاً، ناصحاً إياه، على الأخص، بأن يحذر التلذذ بالمترو إذ يمكن للمرء أن يقضي كامل يومه فيه دون أن يدفع سوى ثمن رحلة واحدة!

ـ حيث الرموز تلتوي، تتشابك حتى تتلاشى و ـ لشدة التحديق فيها دون فهم شيء منها ـ تنتهي بإصدار أصوات، نوع من المورس المكبوتة، أو نقاط مضيئة تلمع بتقطع، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد انطباع ناجم، بالتأكد، عن وجود خطوط مرقونة، ذات فجوات منتظمة، أو منقطة بفراغات بيضاء مثل تذبذب صوت حاد في نوبة غليظة فجأة، وعلى الأخص ما يلي: هذا النزوع إلى سد كل شيء وإحاطته وإغلاقه في تجميع خطوط قطع مستقيمة ومنحنية، والكل يحتمي بترس داخل فاصل يذكر شكله الواضح الدقيق الصارم بالمناطق المحرمة المحاطة بالأسلاك الشائكة يمثلها فوق الورق التنقيط والمرقون والخط غير المتواصل الذي يحيط بسرعة بمحيط الدائرة غير الكاملة أو على الأصح المقطع الإهليلجي الذي يعوض نظاميته أو تداوره غير الكافيين تراكز سريع يضبط نهائياً الهندسة التي لا يضمنها وجود مركز ـ هناك عدة مراكز ـ

وإنما نقطة هندسية ملموسة لا جدال فيها يمكن أن تشخص بلطخة كبيرة لونها برتقالي داكن، إذ هي الوحيدة تقريباً، التي لا يمثلها خط من التصميم.

ـ ثم ببقائه هنا، وهو يطرف، يثقل جفونه التي سبق لها أن ازرورقت من التعب والضغط الذي يرتفع فيحاول هو السيطرة عليه، دون ذكر الهلع الذي ينز عبر صدغيه وأعصابه كما لو كانت تنقع في محلول فرمول وتسلخ بآلات تعذيب مضاربها قد تكون عدة خطوط منكسرة تذكر بالشكل العام الكابوسي للمتاهة المنشورة في جوهرها المتجمد وإن كان هشاً رغم كل شيء، لشدة اللامرئية واللامعنى (الكتابة المقلوبة)، فيفقد مفهوم الزمن، وتتخاذل ساقاه فيمسك الخلود بتحديقه في الفراغ أمامه دون أية فكرة خلفية، دون التفكير في شيء ولا حتى في هذا الفخ المهرّلي المتضاخم وإن كان عملاقاً بالأخص حيث سقط ببلادة، هو وحقيبته بسبب خطأ هؤلاء أنفسهم الذين أخرجوا أو عرضوا حافظات ضخمة واستلوا منها بعناية فائقة صوراً هلامها. إن هذا لن يقدّمك كثيراً إذ ما يجب القيام به هو اتخاذ قرارات ثم، من جديد تعود فتأخذ حقيبتك تتقدم بأسرع ما يمكن، تتجنّب الارتطام بالآخرين وجدران الآخرين، لا تنظر إلى أي كان، تتوكل على الصدفة كي يناديك أحد بلغة الجبل، تدور فتكتشف ابن عم أو جاراً أو كي تصطدم بأحد المعارف سرعان ما يتجاوز مفاجأة الوهلة الأولى ويروح يساعدك في تجنب الفخ أو

اقتحام وسطه ليفتح فجوة سرعان ما يعجل العمال المختصون بسدها بخطوط صغيرة وليس بالسلك ـ في انتظار ذلك صحيح أن المكان تعتدي عليه عمودية مريرة تمطره من كل جهة، تعذبه بألف طريقة وتلهب حدقات الركاب بعنف، ذي فحيح يتطاول ويتناثر عبر هيكل بذات الحجم حدثه كنوم السائر، تصيبه بصداع، غثقه تستنزفه وحين تصل ذروتها تصنع منه منوماً مشدوهاً ومسيراً يمشي باستقامة، وإن كان يظهر من سيره المرارة والأسى، رغم أو بسبب تصلبه الذي يذكر بالتفخيم ذي الرائحة النتنة في مبوالات تحرسها عجائز تَلْبُسْنَ الأبيض، وقد كثرت تجاعيدهن وأصبحن قلويات من شدة الجمود، إذ لا ينتهي بهن الأمر إلى أن تصبحن شبيهات بمرحاضهن إنما تصير نفس الرائحة تصدر عنهن.

ـ القائد يقول متذمراً: في الواقع لم يكن يستطيع أن يذهب من محطة أوسترليتز وإنما من محطة ليون وأولئك الذين يكونون قد رأوه في السكة رقم 5 (ساحة إيطاليا ـ كنيسة دي بانتين) مخرفون، سيما وأننا إن انطلقنا من البداية انطلاقة خاطئة سنضيع الكثير من الوقت، ومهما يكن فإن المتسكع في القانون، ليس أهلاً للشهادة فهو دائم السكر، وكذا بالنسبة للعجوز، والدليل على ذلك أنها لا تتوقف عن ثقب أذني بقصة ابنها الذي مات هناك. إني لا أرى العلاقة بين الأمرين على الإطلاق، وعلاوة على ذلك، يجب التحقق ما إذا كانت قد أنجبت فعلاً ابناً وما إذا كان قد

قتل كما تزعم بفقدان دمه من جرح إثر إصابته برصاصة مزقت له الشريان الفخذي؛ يجب أن تتحققوا لي من كل هذا، أما بالنسبة للشهود الآخرين الذين أنكروا فإني أريد أن تطاردوهم ومهما يكن، لم يكن له شيء يفعله في السكة 5 الطويلة بمسافة 220، 11 كلم. لم يكن ليذهب سوى من محطة ليون والسكة لا تمر بها. الناس يخلطون دوماً بين المحطات، يا للعجب لشد ما نقول إن محطة لا تشبه الأخرى أبداً، مهما يكن فهناك فرق، تفصيل، وهذا ما يغفلون عنه في الغالب، التفصيل، البلهاء إنهم لا يعرفون ما يفقدون وأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يهمني لأنه الشيء الوحيد الذي يساعدني على التقدم. إذن محطة أوسترليتز/محطة ليون، أخلطوا بين المحطتين، هذا كل شيء، لماذا تصرون على إنكار البداهة. لقد نزل بمرسيليا إذن. لقد جاء بقطار الساعة و 36 د. إلى محطة ليون الواقعة على السكة رقم 1 (برج فانسان/جسر نويي) التي تمر فعلاً ببلستي إذ شوهد بالفعل هنا. لقد تحدث إلى رئيس المحطة الذي لم يفهم شيئاً مما كان يقول، فصرفه ـ كلا ـ ليذهب يرعى غنمه ـ حسب تعبيره الأصلي، أعيدوا قراءة شهادته، يمكن أن يعطيكم ذلك فكرة، من يدري، وكي يصل إلى باستيي، لم تكن له سوى محطة واحدة يمر بها هي محطة ليون ـ باستي، وخلافاً لذلك فإن كان قد جاء من محطة أوسترليتز، كان يجب عليه أن يمر على ثلاث محطات هي لارابي ـ أرسونال ـ باستي، وليس هذا

أطول فحسب وإنما الأمر يتعلق بسكة أخرى تماماً ولن نودع الملف الدرج بسبب هذا، لقد وقع الأمر في قطاعي منطقتي ولا أحب كثيراً القضايا المودعة في الأدراج، ففي يوم من الأيام، تقفز إلى وجهك، تغير السياسة، ضمير سيء أو حركة اعتباطية ويطلب استخراج الملف وعندها، فأنا الذي أتحمل أوامر التحقيق والأوامر الإنابية والصحف والتجمعات والتظاهرات والإضرابات عن الطعام، وعلاوة على ذلك فإنهم لا يستحقون شيئاً فقد اعتادوا ألا يأكلوا مرات، إذ يكفي أن يقوم وزير تلك الجهة بزيارة سياحية كي تصبح القضية جدية فجأة ووقتها فأنا المسؤول إني أعرف الرنة، أبنائي، ستقومون لي بحمل جيد، إني أتوكل عليكم، أنصحكم نصيحة: اقرأوا خارطة المترو بعناية ـ فهناك يمكن للضوء أن ينبثق! (إنكم) ربما لا ترون لماذا أصر على نقطة الانطلاق بما أن المهم هو المكان الذي وقع فيه الأمر ولكن يجب علينا ألا نهمل شيئاً.

ـ ثم يدخل القطار، شكلاً من قاطرات لونها يضرب إلى الأخضر، كل واحدة منها تحمل الرقم 2 ما عدا واحدة تحمل الرقم 1، وقد وضعت بأبهة وسط القطار بلونها الأحمر كما لو كانت لطخة في صلب الحيوان ذاته ليتوقف على مستوى أعلومة حديدية معلقة بقضيبين ملتصقين في السقف، حيث كتب عليها: الدرجة الأولى، يدخل المحطة منبثقاً من الليل، قاطعاً المنحنى في ضجيج حديدي صادر عن عجلاته القصيرة الغليظة، مع القاطرة الجارة في

المقدمة حيث يظهر للعيان من الباب المفتوح، رجل يقف عند البويبة كما لو كان مستعداً للقفز أثناء سير القطار كي يهرب من الآلة، التي يتنبأ المرء داخلها، بلوحة القيادة محشوة بأجهزة القياس (السرعة، الضغط الكهربائي... إلخ)، مع قبضة واحدة عمودية تقطع مدورات لوحة القيادة، ثم بمجرد توقف القطار تفتح الأبواب كلها في نفس الوقت تقريباً، في طقطقة جافة، أما تلك التي تفتح متأخرة قليلاً، فإنها تعالج من قبل أطفال غير مهرة أو من قبل نساء عجائز حذرات أو ركاب يجهلون تمام الجهل عادات وتقاليد مثل هذه الوسيلة الناقلة وهم يحملون أحياناً حقيبة مكتظة محزومة طولاً وعرضاً؛ فتراهم ينزلون بحذر شديد كما لو كانوا يتلمسون طريقهم وحين ينزلون تماماً، يسعدهم أن يلاحظوا أن كل شيء على أحسن ما يرام، ثم يزأر القطار المدهون بالرمادي والأزرق في رمش مرتعد خاطف مثل رفرفة تنعس المسافر الواقف قبالة الشلال المعدني، وتزخر بألف لمعان أو تشنج كهربائي، فيكشف (القطار) السكة تحت قوس كتلة السيار، بينما الخط يميل إلى الليل، والعجلات تسحج الحديد وتندفع في رشة تمطر كل معبر يربط بين طرفي السكة، موضوعاً على قاعدة حصى مغطاة بلطخات زيت كبيرة يجب تبديله (الحصى) بانتظام كما لو كانت قطعاً لأن لون الحجارة ليس نفس اللون في كل مكان بحيث يشكل نوعاً من الجغرافيا تلعب فيها التموجات المختلفة دور تضاريس متنوعة. ثم حين ينطلق القطار في

دفعة هواء مضغوط، يبقى في الفضاء ضرب من أثر ذي صوت ما يزال يرن في الآذان: نوع من الصفير يتراوح بين الحاد والخشن يتصاعد أولاً شيئاً فشيئاً مع زيادة السرعة، ثم يفقد، تدريجياً حدته ليختفي، تاركاً، لمدة طويلة بعد مروره، صفيراً لا يكاد يسمع، مطبوعاً في الهواء الأقل مرونة من الخارج والأكثر سمكاً تحت قبو محطة باستي المغطاة جدرانها بمربعات من الخزف البرتقالي تعطي انطباعاً خاطئاً بالمودة بينما خلف الجدار، حافرة الأنفاق تنقب في بطن الأرض والمطارق المعدنية الضخمة تطرق متدلية في طرف رافعة صغيرة صفراء يرى أعلاها وراء قطعة جدار، وبالأخص مع رائحة كيماوية تشبه خليطاً من الميثان وكلور الصوديوم، تحرق المنخرين، فيتقزز منها حاسياً حتى قبل أن يتنفس من منخريه هارباً من الأمكنة القوية الرائحة، لكي يذهب، كما لو كان أعمى قليلاً عبر ممرات ودهاليز يمشي قدماً، ماراً من عدة أبواب لم تعد تغلق في وجهه ضالاً طريقه للمرة الثالثة أو الرابعة، وحين يفطن لخطئه يحاول أن يفهم وضعه ولكنه لم يعد يحصي أين هو، فيروح يلوم نفسه حتى يكاد يقتلها، ويشتم ذاته بأقذع الشتائم ثم يقف ليجد طريقه مصدراً حركات، واضعاً قصاصته تحت عيني شاب ليس له وقت كثير يضيعه فيحاول أن يشرح له في حديث مكثف ما يجب عليه القيام به للوصول إلى مقصده ثم فجأة يستخرج كناشاً من جيبه فيمزق منه ورقة مسطرة بمربعات، شكل 14 × 12، ثم

قلماً سيالاً أزرق ويخطط رسماً بسيطاً بأسماء المحطات المختلفة يضيف إليها رقماً ويقول وهو يكتب كما لو كان يريد إقناع الآخر بصدقه أو حسن نيته أو تضامنه حسبما يقع إن كانت له أو لم تكن له معتقدات سياسية حاسمة فعلاً: رصيف لارابي، أرسونال، باستي، ثم يلصق بكلمة باستي رسماً مع كلمة «قف» مثلما هو الشأن في صور قانون المرور الذي كان بصدد حفظه فعلاً كي يتقدم لامتحان رخصة السياقة لأنه مل ازدحام المترو، ومع ذلك فمن كان يركبه في هذه الساعة (10 و30 ـ 11 مساء) كان الأمر طبيعياً ولكن في المساء على الساعة السادسة، وعلاوة على ذلك، فهذا غير صحيح، إنه ينتظر دائماً الساعة الحادية عشرة ليعود إلى بيته، حتى يتسنّى له التجوال قليلاً بين الحانات لا ليشرب، كلا (الحليب!) ولكن ليلعب أو بالأحرى يشاهد لاعبي «الفليبر» البعض يعرفهم والبعض لا يعرفهم، هناك من كل جنس: زنوج، عرب، وفرنسيون أيضاً بالطبع! ثم يتخلى عن ثرثرته ويروح يهجيء حرفاً حرفاً، وعيناه تضحكان وسبابة يده اليمنى تشكل دائرة مع الإبهام، يهجيء: رصيف لاراب ـ ي، ليس مجدياً أن يذكر لكم نوع المد في نهاية الكلمة، منطلقاً من جديد في ضرب من التداعي بصوت جهوري، وهو يعلم علم اليقين أن الآخر لا يفهمه وأية أهمية في ذلك! الأساس هو أن يرى أنه يتعاطف معه وبعدها: صه! حسناً يا صديقي، سأرافقك إلى غاية الرصيف ولن يكون لك سوى انتظار

القطار ولكن يجب أن نسرع، عندي موعد، هيا أسرع! حقيبتك تبدو ثقيلة، والآخر، وقد فهم بحدسه فجأة أنه التقى بأحد الطيبين، يضع حقيبته أرضاً ويروح يفتحها فيعي الآخر معنى ذلك ولكن كلا! ولكن كلا! مرة أخرى من يدري، فالعالم صغير أنت تعرف، يجب أن تسرع وهو يمشي يكرر اسم آخر محطة باســ ـتـ ـي والآخر يردد أثره باســ ـ ثم يتوقف لأن قطاراً قادماً غطى صوته، فينتظر مروره ليقول من جديد: باســ ـ ثم يتوقف من جديد، متلكئاً قليلاً، فيتابع الآخر بدله وهو جد مسرور لإكمال جملته: تـ ـ ـي، هذا سهل، كرر والآخر مع رفعه حقيبته بتذمر، يكرر في وداعة تـ ـي بسرعة فائقة كما لو كان يفعل ذلك حتى لا يخطىء وحتى لا يخيب ظن صديقه الأول في النفق المكيدة على عمق مائة متر تحت الأرض والآخر يعيد إليه الكرة، ضابطاً قهقهة مجنونة، دون فكرة خلفية، باستـ ـي، أعد ما أعجبك أنت، كما «الفليبر»، كما المترو هناك طرق فلتذهب من نقطة إلى أخرى، يجب المرور من بعض النقاط الإجبارية تماماً، إنها مسألة أصابع، ولكن يجب أن تملك شيئاً هنا أيضاً، تصدر عنه حركة ويضرب قمة رأسه المغطاة بشعر كث أشقر بسبب الأضواء وإن كان قصطلياً جلياً بالتأكيد، يجب أن تمتلك شيئاً هنا، هناك أناس يعيشون بهذا، إنهم يربحون كل المقابلات إنهم لا يستطيعون الغش، فذلك كهربائي!

ـ (والفليبر المسيرة كهربائياً بأزرار ملحقة بلوحة قيادة

موضوعة في أسفل الجهاز، يضغط عليها اللاعب بصفة منقطعة حتى يجعل جلة بيضاء مضيئة تقطع مجرى ما بأسرع ما يمكن مع تسجيلها أكبر قدر من النقاط تنتهي عند ابتسامة امرأة صورتها المضاءة تزين الجانب العمودي من الجهاز حيث تسجل عليه النتائج، وهي تطرح نفسها مغرية أو جنسية بينما هي في الواقع إباحية بلباسها الكاشف عن الرقبة والكتفين مظهر للعيان مولد النهدين في صدار لا يرى ولكنه يتنبأ به، وكذا أعلى الفخذين في فحيح فستان خفيف، إلا أنه إذا كانت النماذج المختلفة للآلة المسجلة تتنوع حسب طراز الجهاز ـ مما يجعل بعض الأجهزة تحمل صور رعاة بقر فرحين أو عازفي قيثار متعبين أو حيوانات صارت شهيرة عن طريق الأشرطة المصورة ـ فإن لوحة القيادة نفسها وبالأخص فسحة اللعب، هي ذاتها دوماً في كل جهاز بغض النظر عن الطراز وبلد الصناعة، سيما وأن الجلة المضيئة تنتقل من منطقة إلى أخرى في هدير معدني يصدر عن الآلة حيث تلتصق به (الهدير) دقات حادة تعلن أنها (الجلة) بلغت هدفها عبر خط بيان طريقها المراوغ المنتقل من أسفل إلى أعلى الجهاز المغطى قسمه الرئيسي بلوحة زجاجية).

•

ـ والآخر يستحضر كل مقابلة فليبر يشرع يقول لنفسه إنه قبل الآن لم يقم أبداً بالمقارنة مع مخطط المترو، سيما وأن الهيجان يكون أسمى في لعبة البيلار الكهربائي، بينما يكون الأمر في المترو مدعاة للبلادة، بيد أنه يجب

الاعتراف بأن الالتواءات الملونة لمخطط المترو ترسم خطاً بيانياً أكثر لامرئية من التسطير الذي يرصع مجرى جلة بعض أجهزة البيلار الكهربائية (المراعي الأريزونية، رعاة بقر تكساس، الفئران المدججة بالمسدسات... إلخ)، ولكن التسطير اللامرئي لهذه ربما هو الذي يجعل التشابه أقرب أكثر إلى التشابك المعقد لمختلف خطوط المترو حيث لا يأخذ بعين الاعتبار الممرات، المتاهات، الأرصفة، السلالم التي تتكاثر في كل محطة، مستكفية بالعيش بها مثل جوهر كامل الإنجاز من خلال أبوابها المعدنية، بويباتها الأتوماتيكية، قضبانها المحكمة الشد، مكاتبها الخاصة بالبيع الناصعة أو الباهتة (حسب) حواجزها الإلكترونية، نواقيسها الإنذارية، مقصوراتها الهاتفية، دكاكينها، باعة جرائدها (**أكثر حفاوة؟ محطات المترو اليوم ـ إن محطات المترو تعطي انطباعاً بالبرودة والرمادية. هذا ما يقال ومع ذلك نجد فيها 250 مكتبة و230 دكاناً. إذن في المترو يمكنك شراء جريدتك، البحث عن كتاب، الانفاق، ثم، لقد أعيد بناء معظم مكاتب بيع التذاكر، صارت لها ألوان زاهية ـ ومن جهة أخرى، فبعد محطة «لوفر» ستثير محطات أخرى الفنون، التاريخ، حياة المدنية ـ وبالطبع، ما زال الكمال بعيداً. وسنبلغه إذ أن ما نريده هو استقبالكم أفضل فأفضل، فبصفتنا الناقلين العموميين لمنطقة باريس، إننا نسير بنفس اتجاهكم**)، شبابيكها المصنوعة بمادة مطاطية دون ذكر الحبال، السكك الحديدة (20،

175 كلم بالنسبة لكامل الشبكة) الخيوط الكهربائية، مضخات الحدائق المدفونة تحت الأرض لا لأسباب جمالية وإنما لأسباب تكتيكية بل استراتيجية إنه يمكن للمترو أن يستعمل مخبأ في حالة الحرب المدمرة، وإن كانت (المضخات) مموهة في الواقع حتى لا تثير اهتمام الركاب، لا تعطيهم رؤى كابوسية بفك أطنان وكيلومترات الخيوط والأنابيب الشبيهة بالمصارين النخرة قليلاً تحت الأرض ساعتها ينبعث منها الميثان النتن إذ أن هناك أيضاً أنابيب ضخمة تأتي بالغاز وتمر تحت بطن الغول، عبر أروقة مبلطة بالإسمنت ومعدة خصيصاً لهذا الغرض بحيث تمون بالغاز كل المدينة وتوزعه على كل دار أو شقة أو دكان أو مخبر أو مطعم دون ذكر القنوات الأخرى التي تجلب الهواء أو المياه (في سنة عادية، أي دون فيضانات هامة، يبلغ انصباب الماء الآتي من تسربات الحوض الباطني، الذي يمتد تحت جزء كبير من المدينة وضواحيها، 3 ملايين م^3 لامتصاص هذا الماء وتحويله عبر مجاري المياه العكرة، تطلب إنشاء شبكة تجفيف وكذا 243 مركزاً للامتصاص تتكون من مجموعتين أو ثلاث مجموعات من المضخات (398 مجموعة بالنسبة للكل)، يمكن أن تمتص مقدار (45000 م^3/سا) الواردة من التسربات أو المواد المستهلكة وتحولها إلى ما لا نعلم عبر أنهر ووديان وبحار ومزابل حيث يقضم العنصر الأساسي ـ اللدائن ـ كل العناصر الأخرى، يقاوم الهدم، يتغذى من ذاته ويغذي المواد

العاصية الأخرى، غاطساً أنواعاً من الجذور المتشعبة والملتوية إلى أسفل في الأرض وإلى أعلى نحو السماء... يمكنهم أن يتكلموا، قال الآخر، وهو يباطئ خطوه كي ينظر إلى الملصقة الخفية المكتوبة بخط أزرق فوق سطح أبيض، وفي الطرف الأيمن، مع رسم يمثل محرك مترو محاطاً ثلثاه كما في نوع من السبات بالركاب يذكر بأول ركاب اليوم ركاب الخامسة صباحاً، نصف النائمين، المقرورين الغارقين في ضجة الأحلام، والآخرين ركاب الواحدة صباحاً الذين ينامون مباشرة على المقاعد تنبعث منهم روائح عفنة. ورمزان ثلثاهما محاطان مع الرسمين، ملصقين الواحد بالآخر: RATP-SNCF يمكنهم أن يتكلموا، قال الآخر، المولع بلعبة «الفليبر» متعباً نفسه في التباطؤ وقراءة الملصقة الصغيرة، ومضيفاً، الدليل كونك تستقبل جيداً أنت! كلا، ولكن هؤلاء الناس يحسبوننا بلهاء، والآخر يستنح تلك الفرصة لوضع حقيبته الثانية فقط، مراقباً في عيني دليله العلامة التي تجعله يعيد رفعها، ربما بعد هذه الوقفة الصغيرة التي استنحها الآخر لقراءة ملصقته، سيحملها فوق أحد كتفيه الأكثر انخفاضاً إلا إذا كانت حكاية الديسمترية هذه مجرد خرافة أو بالأحرى مجرد حبكة قائلاً، كلا! ولكن هل نلاحظ! ومع ذلك، يجب ألا ننسى، أيضاً، إضافة أنه توجد عدة مستويات في محطة المترو ذاتها مما يضرب كل الأرقام التي يمكن أن نثيرها في 3، 4 أو 5 بل أكثر بالنسبة لبعض المحطات المعرضة للكراهية ولكنهم يضعون الإغراء في كل مكان، فهم

يطلون، يجلدون باللدائن، يلونون كما لو كان المظهر المرئي للشيء وحده هو المعتبر، إذ فيما يتعلق بالمظاهر الأخرى، هم ليسوا ملزمين باعتبارها وسيقولون إن الخطأ ليس خطأهم إن كان للبعض خيال كثير التعاريج أو سلوك حائر فيجدر بهم أن يعالجوا أنفسهم، أما بخصوص الآخرين الذين لا يستطيعون قراءة استقبالك حسناً أنك! كان استقبالك حسناً أنت! يجب عليك شكرهم...

ـ كان الهلع قد استولى عليه فجأة، إذ لا أحد حدثه عن هذا ولا العساكر (الكلمة بالعربية في النص: جند غير معناها في 1830. أليف ـ رجل مقدام شجاع مصمم وذو حيلة ـ بالتوسع: رجل مع فرق في الإعجاب أو الجحر اللعوب) الذين كانوا يخشون أن يتلذذ كثيراً بالسفر في وسيلة المواصلات هذه العملية بشكل خارق.

والذين غرقوا في النظر بعين الحسد لصورهم القديمة، آخذين في نبش الذكريات، مهملين حتى وجوده بينما كان قد أتى لتوديعهم، يزيدون بالتأكيد في المبالغة، وربما الكذب، بل تشويه الواقع قطعاً، مخلطين بين الأمكنة والسنوات، فرحين للفرصة التي سنحها لهم بينما كانوا قد نسوا تقريباً حتى وجود هذه الصور ـ كلا، لا أحد حدثه عن هذا، ولا حتى هم الذين كان يثق فيهم لأنهم كانوا قد قضوا حياتهم في هذه الربوع، بعدما غادروا الجبل في عنفوان الشباب ثم عادوا وقد شابوا تماماً بلا شعور أو بشعور ألوانها لا تحدد، وأصابع ناقصة، وأمراض إضافية، والعديد من الحكايات التي يقصونها طلباً للتكفير عن

خطئهم الذي ارتكبوه ثم يعودون بانتظام إلى الجبل باستثناء حالات القوة القاهرة، جنازة، مثلاً ـ كان يجب عليهم أن ينبئوه بهذا التغير المفاجىء في الديكور الذي لا شيء يعلن عنه لا شيء! ولا حتى أقل العلامات صغراً، ولا حتى الشاب الذي قاده حتى الرصيف، ربما كان يجب عليه أن يتنبأ به وحده، لأنه شيء لا يذكر مثلما لا تذكر النساء (الصورة تعرض امرأة شابة ترتدي ثوباً لصوقاً وقميصاً معقوداً على مستوى النهدين كاشفاً بطناً مدوراً وأملس وزغبياً) في حديث الأصدقاء الذين يتبادلون الاحترام، كما لا تقال كلمات السوء أو الكفريات في حضور الإخوان أو أعضاء نفس العائلة أو نفس العصابة ـ كان الهلع قد استولى عليه هنا ولثوان ما، بدا له أن الآخر، رجل لعبة الفليبر كان قد خدعه وسخر منه، وأنه كان يجبره بذلك على الرجوع إلى بلده، على العودة من حيث أتى (المترو القطار، الباخرة) لم يكن يعاني صداعاً بيد أنه وهو هنا على حافة المتاهة السحيقة بدا له بشكل مرعب أنه مقدم على الهلاك، لأن القطار، دون أي انتقال، انبجس من تحت القبو لكي يغوص في الفراغ مع ضوء النهار الذي ظهر كفيضان داخل السيارة سيما وأن الركاب كانوا قلائل، وقد أحس بالهدوء نوعاً ما، وهو جالس، حقيبته بين ركبتيه، متلذذاً بإحساس خفيف من الدفء يسري في يديه، محدثاً نفسه أنه سينتهي به الأمر إلى الوصول، مكرراً في باطنه باستي ـ باسـ ـ ـتي ـ باسـ كشعار عاجل يصيح به

تبعاً لسرعة العجلات. ثم فجأة هذا التغير المفاجىء، هذه المبالغة في الهواء والضوء الذي غزا أولاً معدن القطار وواجهاته ثم ما لبث أن ألم عينيه المأخوذتين بين الطرف والهلع، متلكئاً تقريباً بالكلمة التي ما زالت تخبو في رأسه بل تطرقه كخيط لقطع الصابون يدخل بتلذذ ولكن بألم في المادة رغم انتباهه المأسور مقدمات في حبائل هذا التغير للوضعية والقطار يخرج من فضائه المعتاد مثل نهر يخرج من تعرجه لكي يشرف على عالم لم يشك في وجوده لحد الآن، تحته شبكة من الجسور والأعمدة والدعامات والعرسات على اليمين ـ وأسفل أيضاً، شوارع بسياراتها، أضوائها الحمراء، نزهاتها، مارتها، دكاكينها، عماراتها، واجهاتها، وكلابها التي يشدها من الرقابية. وعلى اليسار، المحطة صحيح أنها لا ترى ولكن يتنبأ بها من خلال ضجيج القاطرات الساحبة وأصواتها الثاقبة، بالعشرات من سككها، أرصفتها، طرقها الجارية نحو مستقبل مريب عبر الإيقاع الحازوق للمترو والكل غارق في تشابك خيوط كهربائية تلتوي تجاه لانهاية أكثر عجلة وأكثر غموضاً إذ سرعان ما تغيب عن النظر، ثم هنا وهناك، على مستويات أخرى عمارات مظلمة، هريات، مدافن، (إنه لا يعرفها) معامل وسخة، واجهات، مستودعات بصقالات معقدة، فوقها يتبارز مهرجون في المشي باستقامة، أشجار ضامرة... إلخ. ثم يغرقها النهر كما لو غزا القاطرة وجعل مؤقتية الأشياء أكثر مأساوية لأن العنصر الأصفر ينطلق عبر

السكك، الخيوط، الجسور، الدعامات، العرسات، المستودعات، الهريات، المدافن، المعامل ويمحوها مرة واحدة، يخفيها في العدم ليستولي على انتباه المسافر الذي ازداد خوفه مع هذا القطار المعلق الآن بين الماء والسماء، لاعباً لعبة شاحنات الفضاء، مبرقعاً الشمس بثلمات فوضوية، مغذياً حتى سرعته ما لم يكن ذلك انطباعاً ناجماً عن تمدد الهواء أكثر بالخارج، مائلاً في ضجة مدفع رشاش ليسرع، مباشرة، يغوص تحت الأرض بعد وثبة الذاكرة هذه التي حفرت ذكرى المسافر فلم يحذره أحد بحيث يفضل من أعماقه السفر تحت الأرض على السفر في الجو الذي يسهل دوران الرأس، بالطبع وإن كان أقل آمناً.

ـ لا سيما وأن الحيرة تغرقه في أغوار كابوسية ـ حائراً كان! فمجرد حمله في رأسه كل هذا التشابك الصلب والمنضد بإحكام يجعله يشعر شعور ما قبل الموت. الجسم ندي واللسان جاف كرة قدم (لم يكن يحب سوى المقابلات المحلية لأنها أكثر إثارة من المقابلات التي تجري ضد الفرق البعيدة كثيراً ذات الأصول غير الواضحة الغامضة بحيث لا يمكنه أن يركزها فوق خارطة، وبالمقابل، فقد كان يحب، فعلاً، فرق القرى الأخرى المحيطة بالجبل ويحب هذه المقابلات التي تجري بين جيران يعرف كل منهم حيل الآخرين وضرباتهم الخادعة وعيوبهم... ومكامن ضعفهم... إلخ. كرة قدم لا تتميز دائماً بالخفة والشفافية ولكنها أليفة مع ذلك بتمريراتها

الصغيرة، مراوغاتها الصغيرة، جسورها الصغيرة ولا سيما قضقضة شبابيك الخصم حين تنطلق الكرة كالصاروخ وتتوجه لتسكن العمق القصير في الزاوية اليمنى أو اليسرى، فيروح الحارس يبحث عنها، حالما بأنها لم تكن قد مرت محتجا بأنها لم تدخل، قبل حتى أن يعرف أين هي موجودة متحرجاً مهاناً ووحده، تسحقه تصفيقات خصومه وولولات مناصريه. ساقط!) كرة قدم في الرأس والركبتين، والزمن بنفحات هواء طويلة فاترة ومالحة كنوع من الحيوية الجماعية سيما وأنه يجب عدم فقدان هذه الكلمة الغريبة التي تتأرجح في رأسه باســ ـ تـ ـي كقطرة زئبق خضراء مزرقة مركزة ومتوثبة. ترن «كروك، كروك، كروك، الأولى لا، الثانية لا، بل الثالثة! واحد، اثنان، ثلاثة، يروح يعد في رأسه وبأصابعه، وحين يصل هناك، سيقول قبل أن ينزل تماماً، وقد تدلت قدمه خارج القاطرة وحقيبته فوق عتبة الباب الميكانيكي، تسد الممر مشعلة غضب العجائز الشرسات أو حتى الشباب لسوء فطنتهم أو لمجرد الكراهية الكامنة فيهم، هم البشعون يستنحون هذه الذريعة الواهية لركل متاعه الذي سبق له أن تضرر بشكل رهيب، قائلين: أوه! هيا انتفض، يا خراء، هكذا إذن، يا للجرأة، بليد، وهو خائف يقول بسرعة بنبرة متسائلة باســ ـتـ ـي؟ في هذه اللحظة إذ لم يعد إلا حائراً ومندهشاً في نفس الوقت من هذه الطريقة التي تغادر بها الكتلة القسم المقبب من الصرح الذي يجذب هيكله المعقد الهزلي نحو الأسفل

المجموع كما لو كان يجذب ذاته دون عون أية صمولة أو حلزونة ويمتص الفراغ، مؤقتاً، نظراً لكون المترو سرعان ما يجد نفسه خارج القبو الحامي كقوقعة سلحفاة بحرية أخذ منها لونه وتدواره منسياً للحظة اصطفاف الممرات والأنفاق وسماجة المساحات المسطحة، وبينما القاطرة الساحبة تتدحرج، بعد التوقف الثاني، عبر المنحدر الوعر الذي يدخلها تحت الأرض، يستعيد الرجل جأشه شيئاً فشيئاً ويروح يحضر سؤاله الذي سيطرحه هكذا، بسخونة دون مقدمة ولا أدب ومهما يكن فهذا ليس إلا قانوناً يربط متواطئين مع بعضهم، بينما هو غير معني بذلك إذ لا يملك إلا حقيبته وقصاصته التي كتب عليها بالتأكيد العنوان، ليس بسرعة وإنما بنسخ دقيق، حبَّرته طفلة صغيرة تذهب إلى المدرسة، وهي جادة، إذ بذلت جهدها في تسطير الحروف بتركيز خارق مما لا يمنع من أن تكون النتيجة رديئة نوعاً ما، لأن الخط يظهر جد معوج بحيث أن المرء يشعر إزاءه بيد صغيرة لطيفة دون قوة كبيرة لطفلة صغيرة ترزح تحت ضخامة المهمة الموكولة إليها، إذ يجب ألا تخطىء في العنوان وإلا تركت المسافر على قارعة الطريق يموت جوعاً وبرداً، إضافة إلى القصاصة الأخرى الممزقة من دفتر ذي شريط حلزوني ورقته المسطرة بمربعات يبلغ طولها 14 × 12 سم، تلك التي سلمها له الآخر قبيل انغلاق الأبواب التي لا تحتاج لمن يغلقها، والتي تحمل ـ الورقة المسطرة المربعات ـ رسماً يمثل من جديد سطوراً، خطوط كلمات ـ

وأرقاماً سطرت بيد ـ خلافاً ليد الطفلة الصغيرة المفروض أنها كتبت العنوان حازمة، بخط سريع وإن كان مقروءاً تماماً يخص بالتأكيد جميع لاعبي مقابلات «الفليبر».

ـ ثم الخوف من جديد، حين يغوص القطار في بطن النفق تضيئه بضآلة عند مشارف المحطات، مصابيح صغيرة تستعمل لمجرد قراءة النصوص الإشهارية المطلية مباشرة على الجدران الوسخة بأسلوب مرسوم مرخم كما لو كان يقصد به وضع نفسية الجماهير في لفح آلية السكك الحديدية (د و د وبون)، بينما أجزاء النفق الواقعة قبل ذلك غارقة في العتمة التامة حيث لا يكون انطباع تحسس الطريق وهماً بصرياً، لأن المسافر ينهض دفعة واحدة فينطح مسند المقعد الذي كان يجلس عليه، ثم لإيجاد توازنه، يروح يجهد نفسه إجهاداً عظيماً والاختناق يضغط رئتيه بينما تبدو جدران النفق الواقعة على مبعدة سنتيمترات من القاطرة كلاليب تريد أن تهصر بلا رحمة الأفعوان الأرضي المرتج المتمايل عبر الخط الوهمي لمصيره الغامض الذي يقوده من النور إلى الظلمات ومن المصابيح النيونية إلى الإضاءة الكلية لمصابيح صغيرة تبعث نوراً أصفر يضيء بين الفينة والأخرى دالاً أو واواً ثم لا شيء، ثم دالاً فواواً فباء (دو ـ دوب) ولكن في الواقع، لا أحد ينتبه إليها ما عدا الأطفال ـ وحتى هم! لا يفعلون ذلك إلا إذا لم يكونوا معتادين على هذه الوسيلة من وسائل النقل، فيركبهم آباؤهم فيها لمكافأتهم على نقطة جيدة نالوها في الحساب ـ

فيروحون يرقبون كل ما يجري في الخارج ويخيفهم قليلاً، (النفق، المحطة، المترو الجوي) فيهجون بدقة ناسين أنه جيء بهم إلى هنا لإبعادهم عن جو التدريس وتسليتهم، ولكنهم، في فورتهم، يغرقون في لجلجة د ـ و ب، ثم يضيفون الحركة إلى الصوت وينطلقون على وتيرة فعلية، الشيء الذي يعطي للرائي انطباعاً ـ ربما بسبب ضعف النور الذي يخلق ضرباً من المنطقة المعتمة الهشة تقريباً التي تبدو حركات الأطفال من خلالها متذبذبة ـ بأنهم ينقلون إلى المستشفى لمعالجتهم وإشفائهم، لا من هذه الحركات الفوضوية فحسب ولكن أيضاً من اندفاعهم في تهجية كل شيء، وقراءة كل شيء، لا لشيء إلا لإزعاج الكبار، هم الذين يعاملونهم بغير ذلك فيرسلونهم إلى المدارس حيث يفقدون فطرتهم ليجدوها بقراءة النص الإشهاري المعني بصوت عال، لو لم يكن وراء هذا الصوت حلقة خبث، ولكن في انتظار ذلك فهو يتعثر، يتناطع، يعود فيجلس يبقى مشدوهاً أولاً ثم حائراً فيما بعد، متسائلاً، ثم من جديد، يدخل الصوت المنبعث كانساً كل شيء في طريقه ولا سيما ما يلي:

ـ رائحة الصوف الحامضة (التشابه في الشم يسهل إيجاده مع الرائحة القليلة للحموضة التي تنبعث من القاطرة المحملة طوال اليوم بآلاف الرجال والنساء وكل يرسل رائحته النوعية كما لو كان ذلك شيئاً جوهرياً لا ينفصل عنهم، دون ذكر الروائح المبالغ في التزين بها: عطور ما

بعد الحلاقة، أدهنة الشعور ومواد زينة متنوعة، سجائر، أعقاب سجائر، تبغ، غليونات، مزيلات روائح، عطور، عرق، أقمشة جديدة، معاطف واقية مبللة، روائح أقدام، مطبخ، نفس... إلخ)، التي تغسل في السيول، شتاء، أسفل الجبل الذي سد الأفق على النسور وغيرها من الجوارح التي يحاول الأطفال ـ عبثاً ـ ترويضها، معتقدين أنها صراصير صيفية وديعة يغلقون عليها في علب مصنوعة من ألواح مسطحة صغيرة قليلة السمك، تترك الضوء يمر من خلال خصاص ويغذونها بالطماطم واحدة لكل صرصار لمدة 24 ساعة، لو أريد أن تغرد جيداً، تلك التي تركل بالأقدام طوال أيام، السيقان في الماء حتى الربلة، وحين تشتد حرارة الشمس بالأخص تفوح رائحة نتنة تصطدم بأرنبة الأنف وتقتحم المسامات والمناخير، بينما في الأعالي، تتمدد القرية عبر البؤبؤ المسلوخ بشعاع شمس يجعل القاني أكثر لامرئية وأكثر هشاشة مما هو عليه في الواقع ويعطي الانطباع بأن كل شيء لا يخضع للهيكل المعماري فحسب وإنما يخضع للون كما لو كان له سلطة ترتيب الأشكال والأحجام رابطاً الكل في علامة مغلقة ومصقولة تستعمل طريقاً موجزاً لكل البنايات الممكنة والقابلة للتخيل، عبرها ـ القرية تنتشر ـ، حين تغتسل الصوف في الأسفل، هذه الرائحة الكريهة للوذخ، الدم الخاثر أو المصفى والماء العكر الذي يذكر خلطه برائحة الجيفة عندما تعرض للأشعة فوق الحمراء وقد سبق لها أن امتلأت بالأخضر، الأزرق

وأبيض الديدان وغيرها من الحشرات المختلفة ـ ولكن عادة غسل الصوف لا تترك المجال للتفكير في كل هذا سيما وأن ما يبقى كريهاً بعد هذا الغسل هو القذف الجنسي، إذ أن الصوف الجديدة بمجرد ما تغسل تهدى للمتزوجين الجدد كي تتحمل على شكل حواشٍ، مقذوفاتهم بعد أن تكون حموضتها (الصوف) قد اختفت تماماً.

ـ والآخر يقول غاضباً، ولكن ما حكاية الحموضة هذه، هذا لا يمكن تصديقه ولكنكم تتراوحون تدورون في مكانكم، لم يفه بكلمة طوال نزهته لسبب بسيط إنه لا يتكلم أية لغة ولا حتى لغة وطنه، فهو يرطن لهجة جبلية. قليلون هم الناس الذين يحسنونها، ماذا تحكون لي هنا، ولكن اقرأوا التقرير الذي وصلنا في هذا الموضوع إنه صريح. إني أقول لكم: الرجل أبكم! ومهما يكن ماذا أفعل به إنه انحراف أو طريق خاطىء هكذا إذن، يكون قد تسبب في شجار بتجمهر، أروي إذن محضر الشرطة في هذا الموضوع أو معانيه من رئيس المحطة لا شيء خلط آه! هذا، أجل إني أملكه ولكن الدلائل، لا شيء فالرجل جبلي وأبناء عمومته الموجودون هنا منذ سنوات لا يتكلمون كلمة واحدة من الفرنسية إنهم لا يريدون ليست هذه مشكلتي أية أهمية وعلاوة على ذلك فكل هذا هو كوننا نقوم بإغراق السمكة الأكيد أنه لم يسبب شيئاً على الأقل ربما حكاية الحقيبة هذه التي أحرج بها مرور أولئك الذين كانوا يريدون النزول إلى محطة باستي، أجل هذا أصل

رئيس المحطة ـ إنها فتاة جميلة ـ لاحظه ولكن الأمر دام لحظة من الزمن أقل من ثانية ـ كانت تحمل مقياسها بيدها ـ تلك عادتها كما قالت غارقة على الدوام في قياس زمن ما يحدث ـ أقل من ثانية، إنها متأكدة! الآن تقول إنها وجدته مغرياً، هذا يمكن أن يقوّض كل شيء، البلهاء كان يمكنها أن تحتفظ بهذا لنفسها، إذ عندها لا شيء يثبت بأنها لم تخف هذه الفتنة التي تكون قد حدثت حول الرائحة الكريهة التي كانت تملأ القاطرة، ولكن لا أحد باستثناء شهودكم أنتم، رأى أو سمع شيئاً من هذا القبيل، إنكم، يا عزيزي، تتراوحون كثيراً لا تضيعوا الهدف ولا تزيفوا معطيات التحقيق، هذا يحدث في قطاعي إذن فأنا مسؤول أوه! لا تعتقدوا أني أعطف عليه أوه! كلا ولا ذرة عطف! كان الأفضل بالنسبة له أن يبقى يصدأ تحت شمس دوارة، لا يهمني، ولكن بعد هذا القول، أريد أن يتواصل التحقيق حتى النهاية وعندها، فإن لم أتمكن من التقدم سأرى إن كان يجب ترتيب الملف أم لا وأنا وحدي أستطيع اتخاذ هذا القرار، إذ فيما بعد لو نزلت الضربات ستحتمون بمظلاتكم وتختبئون وراء أوامر مزعومة، أكون قد وجهتها لكم إني أعرف ما يقال عني كلما أدرت ظهري: مهووس! خرف! متعقب... إلخ. إذن لنعد إلى موضوعنا انسوا حكاية الحموضة هذه إن ما نعرفه هو أنه نزل فعلاً بباستي بل أنه طلب فعلاً ما إذا كان بباستي مما أحدث هذا الحرج الذي تذكره رئيسة المحطة ـ فتاة جميلة! إني أعترف

بذلك ـ ولكن لنترك هذا، إن الأكثر إزعاجاً هو أننا لا نعرف من أين انطلق، فبالنسبة للفتاة، كان قد جاء من محطة أوسترليتز، إنها متأكدة بما أنها تشتغل هناك منذ ثلاثة شهور ولكن إذاً لماذا لم يذهب من المحطة التي حل بها أي محطة ليون؟ لا نعقد حياتنا لقد وصل فعلاً إلى باستي بقطار آت من محطة أوسترليتز ولكن القضية تتراوح عند هذا الحد، ففي باستي لم يشهد أحد بأنه رآه.

ـ ثم هو، بحقيبته التي ما فتئت تزداد ثقلاً وقصاصتيه، إحداهما مسطرة بمربعات مع خط سريع ورسوم، والأخرى بخط تلميذة متقن وعنوان، وقد كان ما يزال يمسكهما بيده اليمنى، ويتقدم بهدوء محدثاً نفسه، يجب ألا تهلع، وأنه بعد زمن، فيما بعد، سيكون أول من يضحك من ذلك كما أكد له الآخرون الذين كانوا قد جالوا قبل أن تطرأ هذه التحسينات بكثير، الأمر سهل جداً بالنسبة للرجل صاحب لعبة الفليبر، بينما كان كل شيء يسبح في الاكفهرار وبينما لم يكن هناك أي مدرج ميكانيكي كما أن السيارات رقم 2 كانت خضراء بينما كانت السيارات رقم 1 حمراء وبينما كانت المقاعد كلها من الخشب الأسمر المصقول يشبه بعضها بعضاً، متساوية عموماً! كانوا قد جالوا هنا وكانوا يعرفون الأشياء التي يتحدثون عنها وإلا كانوا قد أنذروه، وردعوه عن الذهاب، جامعين حكماء الجبل، ومصلين ـ في حالة ذهابه رغم ذلك ـ على روحه، عادين سباحاتهم بسرعة البرق، مضحين ببعض الديكة الفخورة، بل في

زحمة تفننهم، مضحين بقطة عاقرة كانوا يفكرون منذ أمد طويل في تخليص المجتمع منها، هم «العسكر»، الثلاثة (أو الأربعة) الذين يعقدون جلسات سرية ليعبوا الخمر بعيداً عن أعين الحساد المشؤومة، كما كانوا يقولون، ولكن في الحقيقة، خوفاً من طردهم من القبيلة التي هجروها في القدم، لكي يروحوا يجولون عبر ممرات المترو وأروقته، حتى ذهب بهم الأمر إلى درجة أخذ صور أمامه، كما لو كان الأثر الوحيد المهم في المدينة التي لم تكن باردة إلى ذلك الحد الذي كان يمكن الأجداد أن يعتقدوه، رغم أنهم لم يزوروها أبداً وإن كان خيالهم يفيض، مكرراً لنفسه أنه يجب عليه ألا يخاف وأن كل شيء سيدخل في النظام مثل تلك الخطوط التي تعرف على الدوام أين تتجه حتى ولو لم يكن يظهر أنها ستنتهي إلى بعض الحقيقة المحسوسة مهما كانت (الخطوط) معقدة وغير مفهومة، إذ أن لترتيبها معنى بالتأكيد حتى لو كان خفياً عنه، ولكن في عمقه، كان يحدث نفسه هكذا كي يطمئنها ويحاول أن ينسى بعض النظرات التي فاجأها حين التفت إلى رفاق رحلته لحظة توجهه لرفع حقيبته الموضوعة جنب الباب ليسألهم: باســ ـ ـتــ ـ ـي؟ والآخرون نصف مفاجئين، نصف مشدوهين أو نصف محرجين بهذا السؤال غير المنتظر الذي لم يكن له معنى بما أن كلمة باستي كانت تنتشر في كل مكان بالأبيض فوق ألواح زرقاء في نوع من الضرب المكرر، كل عشرة أمتار وعلى جانبي السكة، بل أن

البعض رأى في ذلك تحرشاً، نوعاً من التهكم المتسائل في نبرة تهز آذانهم المعتادة على ربما؛ في هذه اللحظة دفع أحدهم حقيبته لتنزلق فوق الرصيف بركلة واحدة من قدمه أو جزمته، بينما هو لم يكن له سوى مجرد فرصة رفعها قبل انغلاق الأبواب، ووقع تدخل رئيسة المحطة التي جذبها صوت سقوط الشيء فوق أرضية الرصيف: باستي؟ لم يعد يملك الوقت للفصل بين مخارج حروفه فراح يقول بسرعة فائقة باستي! فاقداً بذلك النبرة المتسائلة أمام سرعة اللفظ وهو لا يسمع بعض الكلمات التي تنطلق كلها بأكثر أو أقل في نفس المرة: أبله، كلا ولكن، حقير... إلخ. والأخرى، رئيسة المحطة، الفتاة الجميلة التي جاءت تذيل رونقها على عمق مائة متر تحت الأرض تقول موجهة كلامها إليهم بجفاء: امشوا!

ـ أخت توأم، وإن كانت أقل ابتسامة، من الفتاة صاحبة اللباس اللصوق الذي تفتخر بميزاته على لوحة إشهارية كبيرة تنحدر على وجهه بعد هذه المشاجرة التي لم ينبس فيها ببنت شفة، وهو ينظر إلى الصورة محدثاً نفسه: «ولكن ما هذا أيضاً، كلا، بصراحة، كان يجب عليهم إنذاري». ربما ليس هم، لأنهم لم يكونوا ليجرؤوا على ذكر هذا أبداً سوى ما بينهم بالطبع خلال تلك الأمسيات التي لا تنسى حيث كانت القرية كلها تغض الطرف عني لأنهم يجعلون رجالها يعيشون من مدخراتهم المجلوبة من هناك أو من تقاعداتهم حين يصلون مرة كل ثلاثة شهور بانتظام يشبه

انتظام المترو ولكن على الأقل الشرطة أو رجال التصادم، إذ ما أكثر التصادمات التي واجهها! أو أحدهم فوق السفينة يكون قد قال له أواه أنظر يجب ألا تنبهر، غير أني أرى جيداً أنك تذهب هناك لأول مرة، إذن أنصت، حتى وإن كان الباقي يضيع في غوغاء الانطلاق، أصوات النوارس وقد أثارتها عطايا الخبز والتين التي يقدمها لها الصبيان، أنظر، عليك ألا. وهنا الآن أمام هذه الملصقة التي تبدو وأنها تتحداه، يروح يتساءل ما إذا كان عليه أن ينظر أو يخفض بصره. الملصقة تمثل زوجين شابين جميلين ـ الرجل جالس فوق كرسي طويل، يلبس مئزر حمام أبيض. أمامه زوجته (أو المفروض أنها زوجته بما أنه يضع في إصبعه دبلة بينما ليست دبلة رفيقته ظاهرة بما أنها تضع يديها خلف رأسها) ترتدي لباساً لصوقاً يرتفع حتى أسفل السرة. والآخر حقيبته في يده وفي ظهره شبه إحساس بالالتهاب (النظرة الشزراء للأخت توأم الفتاة ذات اللباس اللصوق) يتقدم بصعوبة إذ أن الناس مزدحمون أكثر الآن إلا إذا كان على الأقل للازدحام النسبي تماماً، علاوة على ذلك، علاقة بالإشهار (حقيقية من شسترفيلد، الآن سيحب الرجال الألبسة اللصوقة) الذي ينتشر في أضواء أنابيب النيون منها واحد أو اثنان يغمزان باضطراب لفسادهما بحيث أنهما سيتوقفان قريباً عن الاشتغال تاركين فيه كدراً غامضاً ـ لا سيما وأن المرأة الشابة التي ترتدي لباساً لصوقاً عارية البطن وتلبس من فوق قميصاً معقوداً أعلى

النهدين وهو يتقدم دائماً، راح يحاول أن يشاهد كيف يتصرف الآخرون أمام الصورة ولكن لأسفه الشديد أو دهشته، لاحظ أن لا أحد ينظر وعندها تساءل لم ينفع أن تزين ممرات المترو بنساء نصف عاريات إن لم يكن يلتفت إليهن أحد. إن الرجل الجالس في كرسيه الطويل يضع يده اليسرى التي تظهر دبلتها بوضوح في الخنصر كعلامة حياء أو شرف وإن كانت لا تنفع سوى لتخفيف جرأة الصورة، يضعها (يده) فوق الإلية اليسرى لزوجته وقد غطاها (ثوب النيلون اللصوق) حيث يظهر جزؤه الواقع بين السرة والفخذين ذا لون أدكن، كما لو كان القماش مضاعفاً على هذا المستوى، حينئذ، أخفض بصره أسوة بالآخرين وتقدم ناظراً إلى حذائه القديم، محدثاً نفسه ولكن الآن ماذا يجب علي أن أفعل، وقد علم بحدسه أنه لم يصل بالتأكيد إلى مبتغاه، كما سبق له أن نسي اسم المحطة التي يجب عليه أن يتوجه إليها إلا إذا لم يكن أبداً قد سمعه. متعثراً بأسفل حمله، يتلافى الاقتراب من الآلات التي تطرح الحلويات، مكتفياً بسماع الصوت الجاف الذي تصدره حين ترمي بكوكبة الفلك أو الكراميلا أو الحلوى المحمضة قليلاً أو النوقة، إلخ. بحيث يصير الصوت أليفاً لديه كآلاف الأصوات والضجات الأخرى التي يجب إعداد جردها، فيما بعد، المرأة الشابة تقف أمام نافذة، نرى منها، وراء الزجاج، دفة نصف موصدة، (اليسرى) بينما يظهر غياب الثانية، خلف زجاج الجزء الأيمن، أوراقاً كثيفة خضراء

دكناء نصف غامضة، ثم هو وقد تذكر الملصقة يروح يكرر: كان يجب عليهم أن ينذروني ولكن على كل حال لا دخل لي إن كان سكان البلد يقبلون مثل هذه السفاهات هذا يعنيهم هم ولكني أنا بقي لي أن أجد طريقي وهو مستمر في التقدم، يقتحم بويباً فينغلق فجأة على مؤخرة الحقيبة التي لم يسعفه الوقت لسحبها غير أنه لم يفقد هدوءه. ينتظر أن يفتح الباب بعد انطلاق القطار وينجد نفسه، الفتاتان تبدوان وكأنهما تخرجان من الحمام (ليس لألبسة شسترفيلد الحقيقية خياطة في التبان، لأن جسدكم ليس له خياطة). بما أن شعورهما ما زالت مبللة، والعلامة الثانية، الرجل الجالس فوق كرسي طويل يرتدي مئزر حمام، والعلامة الثالثة، المرأة الشابة الواقفة في لباسها النيلوني اللصوق البني فاتح تمسك، بين يديها منشفة تجفف بها شعرها. من جديد المدرجات الميكانيكية ودائماً هذا التخوف من وضع حقيبته على الإينوكس الذي يلمع حبيبات حبيبات بالبساط الميكانيكي كما لو كان يخشى أن يراه يبتلع الشيء المضخم بألف هدية، بعثها الآخرون، هناك، لأقاربهم وأصدقائهم، دائماً، مع هذه الضجة المغموسة كفحيح ممحاة وإن كانت مخيفة في النهار، وهي تصدر برقة عن الآلة الضخمة ـ الوصول، النسيان، الاختفاء. المرأة الشابة وهي تجفف البلل تبتسم للعدسة (أو للمسافر). عيناها وضاءتان كثيراً وفمها، المصبوغ الأحمر، عريض كثيراً، غير أننا لا نعرف ما إذا كانت تبتسم رفاهية

بعد حمامها أو لأنها مرتاحة في لباسها اللصوق، أو، وهو آخر احتمال، لأن يد زوجها، وهو يمسد اليتها اليسرى، تنعشها ببعض المتعة (حقيقي من شسترفيلد التبان اللصوق دون خياطة) مما ينشر شكاً سرعان ما ينقشع حين يلاحظ، أن الرجل، هو الآخر، يبدو متلذذاً بمتعة كبيرة بوضعه يده فوق إلية زوجته، المغطاة بالنيلون اللصوق. لكن فور ذلك، نتساءل ما إذا كان مسروراً بفكرة شرائه شيئاً متيناً واقتصادياً لزوجته المغبطة، بما أن ثمن اللصوق يظهر أسفل الصورة، في أقصى اليمين (5 ف). ثم من جديد، في منعطف ممر، نفس اللوحة الإشهارية تعتدي عليه فيعتقد أنه عاد إلى نقطة انطلاقه وبينما كان، في البداية على الرصيف باتجاه كنيسة «بانتين»، فإنه يوجد الآن، على الرصيف باتجاه «شارونتون إيكول»، مؤنباً نفسه، محاولاً أن يبحث عن بعض العلامات التي تمكنه من أن ينظم سعيه تجريبياً، غير أنه لم يعثر على ذلك إذ أن التطابق كبير بين الرصيفين. عند ركبتي الرجل، الموضوعتين على الأرض، يوجد عاكس نور، لون قاعدته الصلصالية مدعوم بألوان الغرفة (أخضر باهت، رمادي أخضر، لوزي، بني، أخضر أدكن، إلخ) يضيء المشهد كما لو كان كاشفاً، مما يجعل المرء يتنبأ خلف الصورة، بتضافر وسائل تقنية مجتمعة لتحقيق هذه الصورة: أي الكواشف بالحبال الشخينة الوسخة المربوطة بالمحرك الكهربائي بمئات الأمتار من الخيوط وكذا أجهزة التصوير، العدسات، الكاميرات، الأقواس، التقنيون، الحمالة

والعمال المساعدون، كل هذا لتمكين زوج من وضع يده اليسرى على الإلية اليسرى لزوجته الشرعية ذاتها. لم يعد يفهم شيئاً وحياؤه ينبعث من أسحق الأغوار لينضد صدغيه وشراييه، وقد كادت تنفجر، توقف مفاجيء للزمن. كخدر غامض أصلي!

السكة 1

ـ كل شيء كان نديّاً، لدناً، رمادياً، سمكاً، مضبباً أحمر قان هنا وهناك دون أن يتوصل إلى محو هذا الانطباع الشرس بالاكفهرار المنبعث انطلاقاً من مروحة جد واسعة حيث يمكن التمييز بسهولة بين كامل أصناف الرمادي سيما وأن الغبار الذي يتوضع على شكل غشاء رقيق يزور كل المعطيات ويلتصق على الأوجه المتصببة عرقاً كفطرية رمداوية ـ تضرب ـ حين نمر في منطقة مضاءة بالنيون ـ إلى الأخضر الرمادي دون أن يكون ذلك الذي يتوضع فوق الخبز أو الخضر المتعفنة وإنما ذلك الذي ينتج عن لطخة حامض فوق معدن فقير الحديد واصمة إياه بندبة كوشم لامرئي وإن كان مليئاً بالرموز الغامضة المتشعبة، هنا حيث عض الحامض في ضرب من الضرير باعثاً رائحة كبريتية. نداوة. لدانة. الكل غارق في شبه ظل مضر يعود العينين على سهولة شكلية بما أن كل شيء يختلط، يمتزج وينتظم حول لون واحد مسيطر يخفف التراكم الفوضوي قليلاً للأشكال المرمية بعشوائية في الفضاء الذي تنهكه بعمق

تفصله وتجزئه كما لو كان ذلك بواسطة ممزج معدني ذي درجة حرارة عالية جداً: 3480 درجة مئوية مثلاً، الحد الفاصل للتنغستين كي لا يغلي، مما يسمح له بالاحمرار طوال النهار داخل مصابيح حيث تتشابك الألياف في التواء شبحي خادع لمنح هذه الإنارة الضئيلة التي تساعد على دعم هذا الانطباع القاسي بالاكفهرار. نداوة أولى. وثبات صيف متأخر نحسه في بطن المترو أكثر مما نحسه من خلال فزع الأشجار المغصنة حقاً بيد أنها تخلو من تلك الوفرة وتلك الغزارة اللتين تفتحان التنبؤ بجريان النسغ عبر الشرايين العميقة تحت الأرض التي تفضل مقذوفاتها الانعقاد بدل أن ترضخ لهذا الاستنفار المزيف بما أنه غداة ذلك، سيكون الهواء ثلجياً من جديد وسينقل المطر هذه الرطوبة التي تطبع الحمرات، المبوالات، العمومية، ولا سيما الجو، ذلك الذي ترجعه جيداً الصوف المبللة المتبخرة فوق جهاز حرارة نهاية الصيف. ولكن أي صيف؟ هو كان حذراً، ليس الأمر متعلقاً بالفرق في قهقهة جنونية. لحظتها لن ننتهي من الاستجوابات، الضربات، الشتائم ولا سيما هذا الارتياب الذي يسد الطريق أمام البساطة التي تتدلى من محاجر العيون كما لو كانت قد تعرضت لرضض قاطع من حلم مفجع، دائماً نفس الشيء، مولعاً، مضنياً يدب بمعناه الفوري أكثر من دبيبه برموزه الغامضة التي لا يمكن أن يخلصه منها أي معالج. قهقهة جنونية؟ صحيح! وإن كانت تبلغ في أعمق أعماق النفس وتنقل عبر الأمعاء

التي تهزها قرقرة كأنابيب صنابير صدئة تثير الفارق الذي لا يمكن كبته، الكل ممزوج بالدهشة، الخوف وسوء الفهم الفادح. ولكن لماذا هذا الارتياب إذن؟ في الخارج، ربما، الصيف من يدري؟ هذا في ميدان الممكن. مع هذا الفرق الذي تحشو حموضته الملابس ـ الملتصقة على الجلد التصاقاً ـ سائلاً في سواقي تتلوى عبر الكتة ودعائمها تحت الإبطين الفحميين اللذين يصبحان، كلما يجفان (تباطؤ السير، الاستراحة، تيارات هوائية... إلخ). ضروباً من القوقعة القشرية والمنمنمات التي تتزعنف (نسبة للزعانف) حسب ارتفاع قوة الملح، والحقيقة أنه لم يكن يولي هذه القضية لا كثيراً من التوهمات ولا كثيراً من الخصوم ـ الصيف أو غير الصيف ـ الخريف أو غير الخريف ـ أية أهمية (باريس 26 سبتمبر 1973. الجو حار، الحرارة عند منتصف النهار 26، عدد ساعات إشراق الشمس 9). صحيح أن النداوة، الظل القليل، الوجوه المحمرة نصف الشفافة للنساء وهن يلبسن ألبسة خفيفة جداً! وكذلك الاختناق الذي يجعل السير أكثر صعوبة عبر الأمكنة المتراكمة كما لو كانت تنفتح على بعضها البعض، كل واحد منها يفسح المجال للآخر وهكذا حتى التراكم المستحيل الذي يشكل مجموعة أمكنة فوضوية، بالطبع مائلة وأحياناً مقلوبة، والأخرى غالباً ما هي متجمعة، حسب الزاوية التي نكتشفها من خلالها مغلقة، جادة أو قائمة.

ـ ملامح النساء العجائز المثيرة للشفقة اللواتي يتجرجرن

فوق المقاعد ويحلمن بماض حقير في مجمله، تمتزج بوجوه ربات بيوت مستعدات للاغتباط لأنهن تحسنّ قلي عجة بيض، الاستحقاق الذي لسن مسؤولات عنه أبداً، بما أن ذلك ينجم في أغلب الأحيان لا عن مهارتهن أو موهبتهن وإنما ينجم عن ذلك الطراز من المقلاة التي لا تلصق العجة أبداً وحتى لو كانت أولئك الطباخات وأرباب البيوت يرين القيام بذلك عمداً، فإنهن لن يبلغن مرادهن الشيء الذي يثير الأعصاب. كل هذه التحديات التي تقذف بها المواطنات المحصنات والتي تجرحهن بعمق ليست يمناً، بيد أن علم النفس لا يتوقف عند مثل هذه الاعتبارات وإنما بخداعه الحلو يتسبب هو الآخر في الكثير من السعادات الزوجية إلى درجة أنه يرى أيضاً فوق موائد الأكل المكتظة بالأطعمة والخمور والأطباق أو فوق الوجوه الممتلئة للنهمين وهم يلتهمون لحماً مسلوقاً في ذاك السمن أو أيضاً في التعبير الساجع لربات بيوت عند يقظتهن (سن اليأس وانقطاع الطمث) من الإغماء أمام شهية بعولهن المتهدلين نوعاً ما، بهذه البركاوية (نسبة لبركة) والتبرقع في الوجوه المسيطرة ببقع أو مناطق أو نواحي، (الخدان، الذقن... إخ).

يرى ينتشر ما يشبه الهلام الذي يغلف به بعض المواد القابلة للاستهلاك بإحاطتها بصنوف من الانتفاخات الدهنية البنية، اللزجة اللدنة التي يدعم تشنجها العصبي (أو المخادعات) الحزن المأخوذ من هذه اللامبالاة التي تحيط

بها، رغم الحشر الذي يدوس الأرض الآن، متوصلاً إلى التحرك في الفراغ المحدود كما لو كان بميكانيكية بل حتى باختلاج، إذ للتوصل إلى مثل هذه الدرجة من التناسق والتناغم، يقوم كل واحد، من بين هذا الحشر، بعدد ما من الحركات والأفعال (تأرجح الذراعين، تسريح المرفقين، تمديد المفاصل، ميلان الخصر، الانحرافات، الانفلاتات، التلافيات، مرواغات الساقين، التداخلات الذكية، التوقفات المفاجئة، الانطلاقات المصطنعة، العودة للانتشار في المكان، الاندفاعات، العرجات الدوسات) الفردية المتزامنة أو الجماعية مما يبرهن عن تنظيم لا يمكن أن تقدره حق تقدير سوى النسوة العجائز المخمنات ذوات الوجوه المطلية بالأحمر القرمزي المثيرات للشفقة والحالمات فوق مقاعد بماض مجمله. هن الموجودات هنا، صبح مساء لتدفئة عظامهن بالحرارة التي تشع من مئات الآلاف من الأجساد وهي تحرق حريرات ثمينة سرعان ما تسترد دون هم كبير لأنه لن يكون هناك سوى حرج الاختيار للاستهلاك الفائض إلى درجة ما، لا سيما أن الناس تساعدهم بشكل غريب كل تلك الصور الخارقة التي لا تفتخر بنرجسيتهم وإرادتهم في القوة ـ وهلم جرا ـ فحسب، وإنما كذلك بنهمهم، وأحداسهم (**أيقظوا أحداسكم الموروثة عن أجدادكم الغوليين! مرق الحريف أنه معد ليبقى لذيذاً**) وتفخراتهم وتطاولهم وغيرها من الصفات المريبة إذن هن هنا صباح مساء لتدفئة عظامهن ومشاهدة الغاشية الضخمة المنطلقة في

أمواج جد منضبطة صوب الأبواب، البوبيات، الممرات، المدرجات، منافذ النجدة، المخارج، المداخل... إلخ. ومشاهدته هو ماراً عدة مرات حاملاً حقيبته كما لو كان يتدرب على مشهد صعب من السحر، بل حتى أن إحداهن ستنشر دعاية مفادها أنه ببساطة سحار بدائي وأنه يحمل في حقيبته طفلة صغيرة مقطعة إرباً إرباً سرعان ما يركبها أمام مدخل المترو في الخارج، ثم يمرر طبقاً صغيراً لا يفارقه أبداً مثل الحقيبة والطفلة الصغيرة التي يقطع جسدها ويركبه كما يشاء، ولكن لما كان كل هذا يتم في الخارج، فإنها لا تستطيع القول بأنها رأته يقوم بذلك، بما أنها لن تغادر مكانها ولو لم يعط لها شيء في العالم، إذ هي تتدفأ من الإشعاعات الصادرة عن أجساد الآخرين، فتبدو لا تفعل شيئاً. عدا النظر، قائلة أنها عرفت هذا من صديقة موجودة طوال الزمن في الخارج وتفضل قضبان تهوية المترو على هذه النداوة الخانقة في الداخل، والتي أبدت مجرد فكرة أنه يظهر كساحر، دون الإشارة للحقيبة ولا لمحتواها، ربما قالت ذلك لتبدي شيئاً كلما نزلت لقضاء حاجتها فاصطدمت به مرة أو مرتين أو اصطدمت بحقيبته أو لأنها اندهشت لنحولته المنقذة، ما عدا إذا كان مجرد لون بشرته هو الذي دفعها إلى التفوّه بمثل هذه العبارة أو ـ أية علاقة؟ ـ ربما بسبب سراويله الزرقاء النيلية الفضفاضة إذ، في ميثولوجياها يلبس السحرة لفاعات لملوك المجوس تساعدهم على الطيران، أو بسبب تلك القصاصة (قصاصتان بدل واحدة

علاوة على ذلك) التي تكون قد ظنتها تميمة ذات آثار فاضلة أو مؤذية حسب النجوم الكوارث، اتجاه الريح أو بيان خط الحظ لكل فرد، ثم هو يمر أمامهن دون أن يراهن لغرقه الكبير في مأساته وإن كان يسمعهن يهمسن بل يقهقهن خلفه، مرطناً ولكن ماذا يردن مني ولكن ماذا يردن مني ولكن ماذا يردن مني بصدق؟ (جميع أطباق المرق تحافظ على لذتها إذ تحضر بنفس الصدق) إني أسير باستقامة، أنا! إني لا أكلم أحداً، أنا! إني لا أضر أحداً، أنا! ولكن ماذا يردن مني حقاً؟ وهو يتقدم بعمى مبدياً أحياناً أنه يوقف أحداً ولكن الحشد سرعان ما يختطفه، ويأخذه بعيداً، ثم يتغلب على المفاجأة فيعود أدراجه ليجد نفسه من جديد على مستوى المتشردات الحالمات، اللواتي تحدثن أنفسهن وحدهن مصدرات نوعاً من القرقرة (دو دوب دو) بالريق السميك السائل فوق ذقونهن المضاعفة المصابات بالاشقرار مشكلاً مجموعة خيوط رطبة وصلبة في نفس الوقت تتشعب كأسلاك فولاذية لتشكل ما يشبه الحثالة الليفية فيسميه الجميع ريقاً أقوى عصياناً من معدن كالتنغستين المستعمل في ألياف المصابيح ذات التوهج وذيول أقطاب أنابيب الأشعة السينية، مواجهاً التشويه بالساخن الذي يسمى علمياً التمييع والكل يتسايل في ذاكرة المسافر الذي صار بدوره مختلجاً ربما أكثر من الآخرين قليلاً لأنه ينقل حملاً ثقيلاً منذ ساعة أو ساعتين بينما هو يبحث عن التوجه إلى الرصيف المؤدي إلى «كونكورد» دون

أن يعرف من أين سيمر وسط هذه الغاشية. صحيح أنها لا تعادل الدرجة المخيفة للساعة السادسة مساء ولكنها صعبة جداً من الآن، هو لا يعلم حتى مجرد أن الخط رقم 1 هو الذي يجب عليه أن يأخذه (شاتو دي فانسان ـ بون دي نوي 14,640 كلم) وأنه يجب عليه أن يقطع سبع فجوات أو أجزاء مسافات أو محطات (سان بول ـ أوتيل دوفيل ـ شاتولي ـ لوفر ـ بالي روايال ـ تويلوري ـ كونكورد) لأنه يقف في مفترق ثلاثة اتجاهات ولا يسعه أن يقترع قرعة عن الاتجاه الذي يجب عليه اتخاذه، وإن كان عليه أن يكف عن الاعتقاد بأن جميع المتاهات متشابهة بينما توجد تفاصيل تعبر عن الفرق وهي التي يزيد عددها بكثير عما يعتقد، فمثلاً المتشردتان الموجودتان على رصيف اتجاه (بون دو نويي) لا علاقة لهما بالثلاث الجالسات على مقعد رصيف اتجاه (شارونتون) حتى وإن كانتا تبدوان بنفس الطبع بحيث تمثلان هذه الغباوة الشبه مسرورة، الشبه قلقة، ويسيل لعابهما نفس سيلان لعاب أخواتهما هناك وتنعسان بين الفينة والفينة، غاطستين برأسيهما لتستيقظا فجأة، مصدرتين قرقرة بلا معنى عميق، ثم أن لون الممرات ليس هو ذاته أبداً وتلاحم الإشارات المختلفة التي يمكن أن نلقاها فوق جدران المترو تلاحم كبير جداً (وخزف أبيض أو طبقة من الخشب البنفسجي الفاخر المزيف أو أوراق البوليستر البرتقالي أو الأزرق أو الأخضر أو الأصفر، حيث تطبع أحياناً فوقه معينات صغيرة سوداء... إلخ)

ولكن كيف تبلغ كل هذا في ساعتين من التراوح المؤدي إلى ارتخاء العضلات فتصير نوابض متعبة تثن ويفتت الأعصاب فتتحول إلى جراح مفتوحة، حتى الروح نفسها، حتى الجلد ذاته حتى الأسنان عينها (في الجبل يقال عرقت أسنانه) الخصيتان قفص كرة القدم والقهقهة المجنونة التي تذبح على مستوى الضفيرة. حسبي أن أصمد! وهن دائماً بحالتهن المثيرة الشفقة وإن كن يستيقظن من خدرهن كلما مر أمامهن (انظري، ها هو السحار!) دون أية ذرة من الإيذاء.

ـ مهما يكن فالشبكة ـ إن الأمر لا يتعلق بشبكة أسلاك المصابيح المتوهجة، ولا بأي هذر آخر وإنما هي شبكة دلائل ترمي إلى البرهنة بأنه سأل عن طريقه في محطة باستي بالحركات دائماً ـ وأن العديد من الناس ـ الأكيد أنهم أناس طيبون! العالم مملوء بهم! ـ أروه الطريق ـ لم يكونوا يعلمون أنهم إنما أضروه بذلك أعمق الضرر ـ آه البلهاء! ـ المؤدية (الشبكة) إلى الرصيف باتجاه «بون دو نويي»، بل حتى أن أحداً ـ أحد مواطنيه ـ رغم أنه لا يتكلم لغة الجبل، لقد قلت لكم إنها لهجة كان متجهاً نفس الاتجاه فهم ما يريد وقاده معه أو لنقل جره في أثره، بل أنه يقول إنه ساعده على حمل حقيبته حتى الرصيف ولكن هنا، مستحيل معرفة ما إذا كان يقول الحق أو أنه يريد أن ينال وسام الاستحقاق، من يدري إنهم يتشابهون جميعاً (ومع ذلك فهو لا يضع غليوناً بين أسنانه ولا عقب سيجارة

رطب يلتصق بشفته السفلى ولكنه يبدو دائماً وكأنه يتحدث وأصابعه في فمه وبدل أن ينطق فإنه يبدو يرطن، يلجلج يرمرم) فكيف تفرق بين هذا وذاك بما أن الحقيبة التي كانت حتى تلك اللحظة العلامة التي تطبع هذا الرجل انتقلت ـ هذا صحيح؟ ـ من يد إلى يد والأوراق إذن؟ من يدري، ماذا جرى لهذه الأوراق الملعونة وعلاوة على ذلك، فالآن توجد أكثر من اثنتين، فقد ذكرت لي أربع ـ تقدم هندسي آه! جميل! إن لم يكن الآخر يخرف اني أتساءل ما إذا كان يجب تصديقه، فهو غير قادر حتى على إعطائي الساعة التي ألتقي فيها بابن عمه أوه! إنه يقول ذلك هكذا لا قرابة عائلية بينهما ولكنه يعتقد أن ذلك جميل، مضيفاً أنه ليس مجبراً على حمل ساعة وأن الساعة ليست بطاقة إقامة وأن بطاقته شرعية إن أردت أن أتحقق وأن الساعة تواجهه طوال النهار في المعمل وأن هذا يقضي على رغبته في حمل ساعة في معصمه الشيء الذي يفرض أنه يستطيع أن يمتلك واحدة ولكن يتركها في غرفته أيام العطلة، ربما كان نقابياً هذا الشخص يعرف حقوقه جيداً، لا شك أنه يقرأ أدباً غثاً في طريقه إلى العمل، بمترو الخامسة صباحاً؛ لا أعترض على ذلك أبداً بالعكس! إنه شيء يسلي مع ضجيج السكك كموسيقى موضوع، لا ريب أن الأمر يشبه مأساة نفسانية، هذا يدرس الآن في أية مدرسة شرطة حسنة التأطير، لاحظوا كل هذا، سيان عندي المهاجرون، بطاقات الإقامة، مراقبات الفنادق، الطردات،

المراقبات الصحية، ليست من اختصاصي. إني أشتغل بقطاعي هذا فقط هذه الحكاية تعنيني لهذا السبب، بيد أن هذا الشخص كان يجب عليه أن يذكر لي الساعة. إني أحتفظ به تحت يدي مسجوناً فليس له تبرير عن النهار الذي يعنينا، من يدري فربما كان له دخل ما في الأمر. انظروا إذن ما إذا كان تبريره يناسب الواقع حقاً لم أتأكد منه حتى التأكد. اهتفوا لزوجتي أني سأعود مبكراً هذا المساء فقد تجد من غير اللائق عدم إخبارها بمثل هذا الخبر السار. من يدري ولكن الأساس أن الشبكة تنقبض حوله؛ إنها لعبة أطفال أن يرجع المرء أدراجه ولكن يا للشيطان لماذا لم ينطلق من محطة ليون؟

ـ وهو يقول للآخر الذي يريد أن يحمل عنه حقيبته «ولكن كلا ولكن كلا ليست ثقيلة، أنت تعرف ذلك». ثم يتوقف فجأة حين يلاحظ أن الآخر لا يفهم لهجته غير أنه يعرف القراءة: هذا أحسن من لا شيء! لقد رآه بعينيه. فقد أخذ مجموعة الأوراق (أكثر من أربع على كل حال) وبخفة مدهشة منها القصاصة التي تحمل العنوان وقد تعرف عليها هو بسرعة لأنها أقدم القصاصات، وأكثرها تعجناً ووسخاً بخطها الذي سبق له أن بهت لأن الخبر أمحى منه والورق تآكل كما لو قرضته الحموضة السابحة بحروف مقطوعة في وسطها يلفظها الآخر بسرعة وجهراً متحدثاً لغة فهم نبرتها لاستعمالها في سفح الجبل، ناحية السبخة. بيد أنه أحس بالارتياح أمام تعبير الآخر وطريقته في الفهم السريع واتخاذ

القرارات بهذه السرعة أيضاً، فكر أنه قد يكون طالباً أو شيئاً من هذا القبيل، عالماً، مثلاً، وعلاوة على ذلك فهو حسن اللباس، وليس مثله يرتدي هذا السروال الذي يجعله محط الأنظار أينما ذهب. والآن فما دام قد اطمأن، فإنه ما زال ملتصقاً بحقيبته التي لم يرغب في إثقال الآخر بها، يتبعه ويتخيل «العسكر» يعتقدون هناك بالتأكيد أنه بلغ مقصده منذ عدة ساعات وأنه غارق في الضحك من الخوف الذي انتابه حين نزل في هذا النفق المسخن فوق العادة ـ ما عدا إن كان الصيف في الخارج يتوثب أحد توثباته الأخيرة ـ الذي تفوح منه عفونة الصوف وحموضتها حين. قائلاً أنه كان يجب عليهم أن ينذروه كلا ليس هم، آه! كلا! الجميع يئس منهم ساعتها ولكن أولئك الذين يمسكون بغيرة اللزازات كما لو كانت ذهباً في قضبان بينما لا يتعلق الأمر سوى بقطع خشبية فوقها يلصق مطاط برسم مدور أو مربع أو مستطيل تطبعه عدة كتابات. كان يجب عليهم أن ينذروه لا فيما يتعلق بموضوع الفتاة ذات اللباس اللصوق التي تعرض نفسها بشبق بينما الآخر يمسد عجيزتها بطريقة لا تقل شبقاً، وإنما بشأن النسوة العجائز القرمزيات وهن ينظرن إليه يمر ويقهقهن في ظهره وربما يهمسن بكلمات سوء، مناديات إياه: فكير! كما لو فعلن عمداً باختيار الكلمة التي يعرفها بما أنها مستعملة في لهجته وإن كن ينطقنها بشكل سيء إلى درجة أنه لا يفهمها.

ـ ولحظتها تداخلت الذاكرة حين قال الدليل: «كيف

الحال هناك؟» مبدياً حركتين لكي يفهم قصده جيداً، الأولى باليد مفتوحة والأصابع متباعدة مؤرجحاً إياها من الوضع العمودي إلى الوضع الأفقي، والأخرى بالسبابة مرفوعة مشيراً إلى مقصد باتجاه كتفه اليمنى، الذاكرة منزلق عبر أشياء غامضة بلا علاقة ظاهرة (مسلك، ظهر جمل، ليل صعب، مؤنث) غامضة هي الأخرى حوافي الأشياء والأحلام. الوجوه المرفقة، الأجساد التي صارت نحيفة، ضباب الصباح، الصوت المذبذب، مرح القيلولات، اهتزازات الهواء الساخن، الأشباح التي تبدو وكأنها على شفا فقد التوازن، الكل يتراوح في الهواء الكثيف الذي تأتي الألوان تلتصق به كما لو كان الأمر حلم يقظة أبكم (كان من عادته أن يقضي ظهر كل يوم يلعب الضامة بحجارة بدل البيادق في قبو بائع توابل وفحم وشحم غنم مجفف ومملح فوق حبال تخيط، كما يقال الدكان الصغير الذي كانت هيكلته المعقدة دوماً بسبب حباله المتقاطعة المتشابكة والملتوية في الفضاء المظلل، كانت تتركه حائراً أمام هذه الظاهرة المعتدية التي تغلق الأفق رغم بقاء باب بائع التوابل مفتوحاً دوماً موصداً المناظر في لون مصفر لون الشحم وشارات نظرات اللاعبين الذين لم يفدهم اختيار السرح بخيالهم ـ إن صاحب الحانوت متواطىء مع «العسكر» الآخرين المعتادين على معاقرة الخمر في أمكنة أخرى سرية وإن كانوا يبدون أنهم لا يغادرونه أبداً ليزرعوا الشك ويبعدوا الإمام بعداً محترماً ـ الآن وهو يفكر في

ذلك، فإنه يتساءل ما إذا كان هذا التشابك من حبال القنب والترتيب الخاص تماماً لقطع الشحم المملح لم يكن وسيلة لرؤية العدو أو الدخيل يأتي من بعيد، مما يسمح لهم بإخفاء الزجاجات والغليونات واتخاذ جلسة لاعبين مرتاحي الضمير، متجسدين أمام طريقة مهولة يستعملها العدو، قائلين وهم يمسحون أفواههم بظهور أيديهم: «ولكن العب، أيها الحمار، ألا ترى أنك خسرت»، وأما فيما يتعلق بالروائح، فقد كانوا مطمئنين لأنهم يعيشون في نوع من الثلاجة الطبيعية، ذات سفح ربوة، إذ كان لهم نظام تهوية ملائم لا سيما وأن روائح الشحم المعفنة مختلطة بروائح التوابل لا تترك أي حظ لأية رائحة أخرى تركد عبر الهواء، وحين كان يصل، كانوا يقولون له: «وهذا السفر إذن؟ أهو قيد الإعداد؟» وهم يقهقهون في نوع من الشيطانية، متشابهين لكثرة التصنعات، اللعب المسرحي، اللغة المشتركة والرمزية أحياناً ـ حين يتعلق الأمر بالتحدث في السياسة، الديماغوجية السامية المبلبلة أو الشعرية خاصة، ولكثرة الولع بلعبة الضامة (أو الدومينو) التي علموها له رغم تحريم الأب الذي كان يرى في ذلك بداية الضياع، وهم يرفلون في ثياب ممسوحة، الرأس حليقة والعين نبيهة، يتنهدون أمامه ويبدون كأنهم يكتمون قهقهة جنونية لا طاقة لهم بها: «لا يمكنك أن تعرف أية أعجوبة هو المترو، ومع ذلك يجب ألا تتعود لذته!») حلماً يعود فيه لاعبو الدومينو بلا انقطاع يطاردونه، أصدقاء حقيقيون!

كان يجب عليه أن يفهمهم!... مع كل الأشعار التي يحفظونها عن ظهر قلب، كان من الصعب عليهم أن يتحدثوا ككل الناس دون رمز، دون وهم، دون تناقض (ما أكثر جمعهم له) دون تقصير، دون استطراد (آه! هذا لم يكونوا يحرمون أنفسهم منه) وكانوا يقذفون وجه المتحدث إليهم بتلك الجمل التي يبدأها واحد، فيستأنفها الآخر فينهيها الثالث إلى أن يسحقها للثاني وهكذا بلا نهاية مهولين الجميع، مختصرين الدائرة حولهم، إلى درجة أنهم لم يعودوا يعيشون سوى من تحرشهم الشفوي كله علاوة على ذلك، قائلين: «آه! هذا، المترو، ليس أزرق للاشيء!» بينما كانوا يعلمون علم اليقين أنه كان أخضر خلال إقامتهم! غير أنهم كانوا يستقصون الأخبار بالتأكيد، أي يدعمون معلوماتهم بالالتهام الخفي للجرائد القديمة التي كانوا يقترضونها من حافظ سرهم، بائع الشحم والتوابل والغرابيل وحتى الفحم ما عدا إن كان يؤجرها لهم، لأنهم كانوا يتهمونه، في الخارج، بالبخل، مختصرين بذلك دائرة صداقاتهم وإن كانوا يتجنبون طرده هو، إذ كانوا بحاجة إلى واحد من صنفه، تحت اليد، كي يحلموا جهراً ويتذكروا تسكعاتهم التي لا تنسى ويخرجوا صوراً قديمة من عشرين سنة باحتياطات مولعين بالكذب، يبالغون في الدعاية العمومية، التي تتهمهم باستغلالهم لبنات مسكينات عاشقات غرقن بسببهم في الفجور التجاري، مما يفسر ربما مدخراتهم التي يحافظون بفضلها على احترام سكان الجبل

لهم، دون أن يضيعوا أية فرصة في التذكير بذلك، قاذفين المال من فوق الوادي مدعين تحررات خارقة، محيطينه علماً بالأساس فقط لتأكدهم من عدم واقعية مشروعية، وهو يلتصق بهم، متذرعاً بمقابلات لعبة الضامة أو الدومينو ومحاولاً أن يسلبهم بعض المقتطفات من المعلومات التي كان يحاول، مساء، إلصاق بعضها ببعض كي يصنع منها شيئاً مفيداً ومفهوماً. كان يجب عليه فهمهم! فقد كانوا يتحدثون كمجوسيين خيبهم المستقبل...

ـ ثم تصل الكتلة صامتة ملتوية عبر الخندق حيث غرست السكك رفرفة فراشة زرقة معدنها المبطن بالمطاط (يعرض العتاد ذو العجلات المطاطية بهذه الطريقة: كل قاطرة تشمل حاملين حديديين بأربع عجلات مزودة بإطارات مطاطية تسير على سكتين (مصنوعتين من الأزوت الطبيعي القاسي جداً المستورد من الكاميرون) تحيطان بسكة حديدية مغلقة من الطراز العادي. أما التوجيه فإنه يتم عن طريق أربع عجلات أفقية، مزودة أيضاً بإطارات مطاطية ومرتكزة على قضيبي توجيه يكملان السكة) تجعلك تشعر بالأسفار الهادئة، ثم كلاك! الأبواب تفتح أو تغلق في رنة معدنية مفاجئة وجافة كصوت مشرط وليس له من الوقت سوى لحظة وضع أصابعه غير أن الجو الداخلي يختلف، فهو أكثر لمعاناً وجمالاً مما رآه خلال سفره الأول حيث أحزنته القاطرات بخراطيمها الوسخة، فيروح يحدث نفسه: «آه! إن كان هذا «العسكر» كان الأجدر بهم أن يحذروني وأنا الذي

كنت أخسر المقابلات قصد استدرار عطفهم، إعجابهم منحهم الثقة، والآن، وهو يجلس فوق كل هذه اللذة الممطة مشتهياً الحضور المطمئن للآخر دون أن يستطيع التعبير عنه، ـ الطالب؟ ـ فإنه يستعيد جأشه يريح يديه المتألمتين، يقول في نفسه إنه لم يخطىء خطأً كبيراً، ثم يغرق بعذوبته في اللدائن اللينة المبطنة بالسكاي الأحمر، فيشعر تمام الشعور أن الرفاهية هنا على مدى قبضة أصابعه المثقلة. لقد نسي في غمرة ذلك كل آلامه التي عاناها من قبل غير أنه لم يرضخ لرغبة ترتيب أوراقه إذ يخاف، حدسياً، أحد الأقدار السيئة أو تخلي دليله عنه أو اصطدام القطار بآخر أو تعثره بجدران النفق التي يقلقه تسطيرها المتحرك خلف النوافذ، لصق وجهه تقريباً. بيد أنه مصمم على البقاء هادئاً، يستمع إلى صوت الآخر يهمس في أذنه كلمات غريبة، كلما توقفت الكتلة بإحدى المحطات (سان بول، هوتيل دو فيل...) ما قبل تذوق الرفاهية! القاطرة مستطيلة الشكل بدسوت موضوعة بتسطير محكم في صفين بينهما ترك ممر ضيق يسمح بسير شخص واحد. الدسوت تتقابل مثنى مثنى وتمكن جلوس شخصين على كل منهما عند طرفي القاطرة رتب مكان شاغر كنوع من السطح المغطى حيث وضعت مثنى أربعة مقاعد متحركة ملصقة بالجدار المعدني ذاته على اليمين، ونفس الشيء متبع على اليسار. الترتيب المسطر محترم بدقة فائقة ـ لا مكان للعشوائية كما لو كان الأمر يتعلق بالبرهنة على تساوي

المواطنين في حلق الجلوس متشابهين على الدسوت المسطرة بنظام دقيق ظاهر لعين المسافر الجالس الذي يستحضر في ذاكرته قطع الشحم وهي تجف في قبو بائع التوابل المزعوم، إذ أن التسطير مطابق للصورة التي تطارده بها ذاكرته وتسحقه. غير أن التسطير موجود في كل مكان: فمثلاً، الألواح الصغيرة الملصقة بالأنابيب الفولاذية التي تدعم مجموع الهيكل تتقابل مثنى وتشهر بنفس المنتوجات، ونفس الشيء بالنسبة للأبواب التي تتقابل أربعاً أربعاً من كل جانب، وكذا رسم الطريق الذي يقطعه القطار بأسماء المحطات بين كل منتهى، تفصل بعضها عن بعض بدوائر بيضاء حين يتعلق الأمر بمحطات تنطلق منها قطارات أخرى. وبدوائر حمراء حين يتعلق الأمر بمحطات لا تنطلق منها قطارات أخرى في هذه الحالة يشير خط أحمر ملتو ينطلق من الدائرة الحمراء هي الأخرى، إلى الاتجاهات المختلفة التي يمكن اتخاذها، حيث يتراوح عددها بين اثنتين وخمس (وهكذا فنقطة الخط البياني الذي يشخص محطة سان بول بيضاء، والنقطة الخاصة بمحطة هوتيل دو فيل حمراء، مع تشعبين يشيران إلى الاتجاهين: ميري دي ليلا وشاتولي، بينما ينطلق من نقطة شاتولي تشعب متعدد الرؤوس ومتفرع إلى خمسة رؤوس أو فروع تشير كل واحدة إلى اتجاه، أي كينيا نكور، ناصيون، ابرى سان جرفي، ميري ديفي، ميري دي ليلا) رسمها ملتو في أغلب الأحيان شكل مدواة يحاصر من أعلى وأسفل الدائرة الحمراء

اللون. ونفس الشيء مطبق بالنسبة للألواح التي كتبت عليها توجيهات أو معلومات (ممنوع التدخين، مقاعد الأولوية لمعطوبي الحرب، الناس الطاعنين في السن، النسوة الحبالى، الأمهات اللواتي يرافقهن أطفال سنهم لا يتجاوز ثلاث سنوات، ممنوع النزول من بعض الجوانب، ممنوع النزول من القاطرات قبل توقف القطار نهائياً، إلخ). يكاد يدعم تسطيرها شدة كل هذه الممنوعات التي يحترمها الركاب حرفياً فيطفئون سجائرهم (قبل الصعود إلى القاطرة، فيدسونها ـ بخزي ـ في جيوبهم إن كانوا قد أشعلوها لتوهم أو يرمونها بالأرض إن كانت مستهلكة الثلثين بنظرة أسف أو ـ بالنسبة لبعض المتشددين أو المهووسين أو الجبناء ـ يذهبون حتى سلة الورق وهناك يطفئونها ويضعونها ملاحظين جيداً ما إذا كانت قد انطفأت لتجنب خطر إحداث حريق، وربما عادوا أدراجهم للتحقق، وهم يؤنبون أنفسهم بلا شيء، غاضبين على أنفسهم بسبب التدخين وجلب الخطر لا للهيكلة الضخمة لمترو المدينة فحسب ولكن لآلاف البشر الأبرياء أيضاً، متذكرين ردعات زوجاتهم (السرطان، الحريق، ألم الأسنان.. إلخ). وقد يتركهم المترو لا للمرة الأولى فحسب، بل ربما مرتين أو حتى ثلاث مرات، لأن القاطرات تمر بتوقيتات متقاربة جداً (95 ثانية) لا سيما في ساعات الازدحام وهم مأخوذون بخصالهم المتشددة، فإنهم لم يعودوا يجرؤون على إقرار الذهاب، مانحين أنفسهم أحياناً أجلاً أطول كثيراً، العين

على سلة الورق لرؤية ما إذا لم يكن هناك أي دخان مريب ربما في حيرتهم وتأسفاتهم وتذنيبهم لأنفسهم، قد يذهب بهم الأمر إلى درجة مهانة رجال المطافىء وعندها تتجاوزهم عدة قطارات، إلا إذا كانوا أكثر نباهة كي يفكروا بدل ذلك في كسر الزجاج الذي يوجد خلفه، على الرصيف، جرس الإنذار الملحق مباشرة وحتى إلكترونياً برجال المطافىء، شرطة النجدة، مركز استعجالات المستشفيات الأكثر قرباً... إلخ. متألمين لعواقب حركاتهم، حالفين بأنهم لن يعيدوا الكرة أبداً، مقررين فوراً إيقاف التدخين ومتذكرين جميع حوادث الصحة التي يمكن أن تصيبهم (الصمامة، سداد عضلات القلب، التقلص التاجي، التهاب الأوردة، النزيف الداخلي، شلل الدماغ، ارتفاع الضغط، إلخ). فيروحون يتلمسون أنفسهم فجأة ليتحققوا من أن كل شيء على ما يرام واعدين ـ إلا إذا أسرعوا فور ذلك تاركين كل قضاياهم متوقفة ـ بالذهاب إلى طبيب يفحصهم فيبتلعون ريقهم حتى لا يضطروا للبصق ويسدون لأنفسهم نصائح حسن الصيانة، وقد داخلهم فجأة شك بشأن نظافتهم الشخصية، لا سيما أولئك الذين لهم نظام عرق كثير الإفراز والآخرون كذلك بالتأكيد وهم يحترمون، جميعاً، ميكانيكياً لا مضمون هذه القوانين التي تحرج ميولهم الطبيعية وإنما يحترمون هذا التسطير الذي يلزم أن يكون كل شيء، كل لوحة معدنية، كل كتابة ملك انعكاسه سواء تجاه أو خلال المنقول بدقة على إحساس

الجسد الذي يجهلون أنه ليس مؤسساً أبداً وأنه ينظر إليه دوماً نظرة دعاة التشريح. ولكن هو، والحق يقال، يشعر بالطمأنينة أمام هذا النزوع لإعطاء كل شيء معادله، الذي يطابقه معدنياً، بيانياً، وموضوعياً.

ـ والقطار يقتحم بعذوبة وليونة (المطاط) الظلمات، يهرسها ويندفع عبر ضجيج قاطرته الموقع الذي ينوم المسافر الواقف (لم ير أبداً وهو جالس في هذا الجزء من المسافة) المرتكز على مقبض باب أو أنبوب مطلي بالكروم في الهيكل، الأنف يوشك لمس الزجاج، الركبة تركن الحقيبة، وفي الخارج، على الجدار الذي يكاد يلتصق بالقطار، الشاشة المصغرة تعكس صورة غامضة مقلوبة ومقطعة للقطار وهو ينزلق بروعة على عجلاته التي تلتحم بفولاذ السكة المسخن يصاحبه تلك الرفرفة الممحاتية الشبيهة بقماش خشن يمزق في تشنج، والصورة تتزاوج، تتضاعف، تذوب، تختفي، تعود من جديد حسب المنحنيات،الانحرافات، درجات الإضاءة، فتبهره حتى أنه من شدة تحديقه فيها، انتهى إلى إغماض عينيه بعض الوقت وهو يعي حضور الآخر، بجنبه والحقيقة الملموسة للحقيبة؛ صحيح أنها مهترئة، منفتحة، مربوطة، ممزقة، رثة، مرفوسة ـ فيما بعد بقليل ـ مكسرة ـ صدئة... إلخ، غير أنها ملموسة فعلاً تعطيه انطباعاً بأنها موجودة أفضل من قلبه المنقبض الذي ينبض داخل قفصه نبضات كبيرة منتظمة أفضل من وريده المتململ تحت جلده تململاً لا يكاد

يحس، أفضل من عضلاته المتشنجة والمعقودة على مستويين أو ثلاثة مستويات لا يرغب في تحديد مكانها، أفضل من عينيه المطرفتين أمام اللمعان المدهش للشاشة الصفراء، أفضل من عرقه المتصبب ـ سائلاً لزجاً ـ على جنبيه في شبكة خطوط لامعة تنهي مجراها في حفرة الكليتين، أفضل من كل هذا مجتمعاً، إذ أن حقيبته هي التعبير ذاته عن سفره الذي أعد مشروعاً لتحقيقه منذ بعض السنوات فلم يتمكن من إنجازه من قبل، بسبب غموض أصدقائه اللاعبين الذين لا يكلون من الدومينو أو الضامة ـ.

ـ إن الإنكسار يحدث في الباطن بجمع كل هذا المزيج الخليط، التشابك، التداخل، التكويم والتراكم المختلف لنفس الظاهرة الوحيدة التي تتجاوزه، بالطبع حيث يعيها بغموض بل يعيها ضمنياً، وهو يعلم أن سر كل غرابة المحيط الذي هو ضحيته يكمن في هذا التشابك الشيطاني بين الأشياء، الأدوات والبشر المأخوذين في قانون اتحاد لم يتوصل إلى حل رموزه وإن كان يحدسه كما لو كان مخطوطاً نهائياً في تلك الأوشام التي شرعت في طرق ذهنه: الخطوط التي تشكل تصميم المترو، الحبال التي يقطع بعضها بعضاً في القبو، السكك التي تنحرف إلى ما لانهاية، الآثار الداخلية التي تقطع لحمه، الممرات التي يتداخل بعضها في بعض إلى ما لانهاية، الكدمات اللامرئية المنتفخة تحت خميرة الحرارة، دوائر الزمن التي تنفجر في ألف قطعة، الفراغات المهدمة، الهندسات المشققة،

المستقيمات المنكسرة، الأقواس المبعوجة... إلخ. كل هذا المشهد الخارق الفضائي الموجز الذي لا يفهم لا بداياته ولا نهاياته وإن كان يحدسه بليونة كما في نصف حلم متوبر ندي لا يتوانى عن تعذيبه تخويفه لأنه يرى فيه علامات سحرية (لا سيما الكتابة المقلوبة علاوة على ذلك) حيث يخشى ألا تتمكن تميماته العديدة من القضاء عليها أبداً أو حتى مجرد محوها، وإلى أن يستعيد جأشه، يغادر دائرة المصائب وإلى أن يجد نفسه في نقطة الوصول كي يبرق ـ عاجلاً ـ إلى الآخرين الذين بقوا هناك لتمويه أفعالهم الحقيرة بورود البيان المسلوبة مباشرة من شعر العصر الذهبي ومجونهم البشع بطبقة من الديماغوجية السياسية السامية والغامضة، استعمالها داخلي محدد بصرامة، باختصار شديد علاوة على ذلك: «وصلت نقطة سالماً، نقطة، معافى، نقطة». دون أن يوقع، لا داعي! باسمه ويسمح لهم من استعادة أنفاسهم، ومقابلاتهم في الدومينو وأحاديثهم المشبوهة الرمزية... إلخ. وهم، يقولون في قليل من الخيبة. هذا غير ممكن، الأبله لم يفهم شيئاً، كان عليه أن يعود في أول سفينة تتجه إلى الجبل، في أول توقف أو بمجرد الوصول، الأبله؟! الأبله!

ـ الأبله! الأبله! ـ كان يقول الآخر الذي راح، بعد استشاطة قصيرة، يشمئز، ينضح ويرمرم، ولكن كان يمكنه أن يكون جالساً، إذ كان هذا سيوافق العديد من الشهادات بما أن الأمكنة الشاغرة كانت موجودة، إذ لا يمكن أن

يقال إن فترة 12 ـ 13 هي ساعة ازدحام، الشركة متأكدة قطعاً، ربما على هذه السكة التي يرتادها الكثير من الأمريكان وهم يتجهون نحو الإيتوال ليشاهدوا قوس النصر قبل أن يتفرقوا على سطوح المقاهي ـ كان النهار حاراً ذلك اليوم ـ ليتغدوا في الشانزاليزي؟ ولا حتى هذا! كانت هناك أمكنة، العديد من الأمكنة الشاغرة وكان تعباً من كركرة حمله منذ ساعة أو ساعتين أو حتى ثلاث ساعات؛ كان يتألم من يديه وها هو واقف، هذا غير صحيح، أجننت أم ماذا، أي شيء أصابني، إذن عليكم استقصاء القطار وعدم اعتبار ما يحكيه الطالب وعلاوة على ذلك فهو ليس طالباً ولم يزعم ذلك أبداً فقد أقسم دائماً أنه عامل مقدماً العديد من بطاقات الأجرة، بطاقة الترقيم وبطاقة الإقامة مكرراً أنه هو كان قد جلس بينما كان المسافر صاحب الحقيبة قد رفض الجلوس كما لو كان يخاف تجاوز المحطة التي كان عليه النزول فيها، ملصقاً أنفه بزجاج البويب الأيسر حسب اتجاه القطار، هذه الشهادة دقيقة جداً، إني لا أحب هذا كثيراً مضيفاً أنه في وقت ما رآه يغمض عينيه لبعض الثواني في موقف من ينعس وإن كان لم يره يفتحهما لأنه لم يكن ينظر إليه طوال الوقت حتى لا يحرجه على مدى المسافة دون تبادل كلمة! ولكن الرجل صاحب الحقيبة يجيب بحركات ـ حركة واحدة علاوة على ذلك ـ وهو يحاول أن يقول هكذا وهكذا بيده المفتوحة بحيث أن باطن يده موجه نحو الأرض، الأصابع

مباعدة بشكل غير منتظم، سيما وأن الإبهام يصنع زاوية 30 مع السبابة المستقيمة تقريباً وكامل اليد تروح وتجيء معبرة عن فكرة أن كل شيء ليس سيئاً تماماً ولكن كل شيء ليس حسناً تماماً أبداً بين اثنين ماذا! وخارج هذا لا شيء! غريب أليس كذلك لا سيما وأن شهوداً صادقي السريرة يؤكدون أنهم رأوهما يتحدثان يضحكان معاً ويمزحان لا شيء يقال خلال مسافة عشر دقائق على الأقل قولوا أتجدون هذا عادياً أما أنا فكلا! عشر دقائق! حوالى دقيقة ونصف بين كل محطة ومحطة أي 7 × 1,5 أكثر من عشر دقائق قليلاً هنا لا أحد قاس سبع محطات أي سبع مسافات:

1 ـ باستي ـ سان بول،

2 ـ سان بول ـ هوتيل دو فيل،

3 ـ هوتيل دو فيل ـ شاتولي،

4 ـ شاتولي ـ لوفر،

إذن «اللوفر»! ماذا تريدون أن يعني بالنسبة إليهم أتذهبون أنتم إلى «اللوفر»؟ المحنطات المصرية، مع طفلتكم الصغيرة أي سن تبلغ في الواقع؟ لنمر!

5 ـ لوفر ـ بالي روايال،

6 ـ بالي روايال ـ تويلوري،

هنا أيضاً طلاء أليس كذلك؟ ما عدا إذا كان الأمر يتعلق بالزرابي فقد يهمهم ذلك، كلا فكلهم يبيعونها!

7 ـ تويلوري ـ كونكورد.

من غير المنطقي ألا يجلس بعد ساعتين من التسكع بحقيبته الملعونة، الواقع، هل رقنتم الجرد؟ 35 نسخة! وهكذا إذن يصل كونكورد صحبة رفيقه لا شيء على ما يرام! لقد قطع أطول مسافاته في زمن قياسي بينما بين «الافورش ـ بورت دو كليشي ـ محطتان اثنتان ـ استغرق عدة ساعات رغم أنه لا يوجد شيء، لا تبديل ولا شيء آخر، استقامة تامة! لم يكن له أن يخطىء الأبله! الأشد سذاجة في الأمر كوننا سننتهي إلى الخلط بينهما الاثنين بعد كونكورد، الحقيبة؟ من يقول إنه لم يقع تبديل، لماذا لم يحاول الدليل سرقتها والاختفاء بها لا يمكننا أن نتقدم، التفاصيل تنقصنا يجب أن نحصل عليها سواء أكان المسافر جالساً أو واقفاً! ما عدا إذا كان الدليل هو الواقف بينما الآخر جالس هذا أكثر منطقاً! كان الأفضل بالنسبة إليه أن يكون أشد تعقلاً إذ أهلكه تعنته في عدم الرغبة بالجلوس، الأبله لم يكن يعلم أنه سيفارق الحياة لذلك.

ـ ولكن لم يكن وحده (**حين تودع حبة طماطم في الفرن فإنها قد تفقد قشرتها**) فقد سبق لآخرين أن سقطوا في ضجة كبيرة، من صقالات جد عالية، الأعين محاطة برعب الفراغ، باردي الرعدة قبل السقوط، لزجين تماماً فيما بعد، في انفجار ضوء بينما السماء تمطر تمطر فوق الناس، فوق الأخشاب، فوق المرتكزات الهوائية الطويلة، فوق كومات الأسلاك، فوق الطين، فوق الآلات القبيحة، بيد أن المطر ما زال ينزل والعنف البدائي يتراجع أمام الارتخاء مخلطاً

شيئاً فشيئاً الماء بالدم المتفصد من الجمجمة، مصيباً العيون بعمى منذر وغامز، متصلبين نائمين، وهم يسقطون من كوكب ما من الخرسانة الموضوعة في مقدمة الفراغ والدوران سريعي الحركة ومنتفضي الأجسام، على شفا الهاوية دوماً ورئيس الورشة يشير إليهم بإصبع سلطوي، وقد فرغوا في هذه الساعة من دمهم وكيلوسهم وريقهم، متحدين البؤس والنخارة والتسوس، حالجين الزمن كما تحلج صوف جد لينة هشة ساقطين من مئات الأمتار عبر الحبال والهياكل ليموتوا في اليأس التام قصد الهروب من الغرف النتنة في الفجر البارد، المطابخ العائلية (الحوالة التي يجب إرسالها!) أسرة المستشفى (للهروب من القضبان الممرضات اللواتي تتركنهم تحت رحمة السل والداء الصواني وغيرهما من العلل) وهم يغسلون أيديهم، في نهاية العمل، بصبر يضحك رفاقهم ألماً كنوع من الوضوء لم تعد ذكراها سوى تأسلية مموهة أو محرفة، يحضرون وجبات طعامهم تحت الأسرة، خفية من المالك، فوق مواقد صغيرة حقيرة وفي أوانٍ محدبة منقذة من آخر طوفان (مع الأطباق ذات الفرن العادي، نفس الشيء دوماً: فكلما اصفر الجانب الأعلى جيداً، التصق الجانب الأسفل. من حسن الحظ أن كل شيء يتغير مع الطبق الجديد في الفرن طراز تفال: كل شيء يتذهب، كل شيء ينضج ويصبح لذيذاً دون الالتصاق أبداً وذلك بفضل طلائه الداخلي المضاد للالتصاق) أو من آخر ترحال، متنقلين من ورشة إلى ورشة كما لو كان

يجذبهم العلو والألوان اللامعة لرافعات من آخر طراز، وهم يسعلون رئاتهم في ورق أكياس الإسمنت، في ذهاب وإياب دون فكرة مسبقة، ثم آخرون أيضاً فقدوا عيونهم، سيقانهم، خصياتهم، أدمغتهم، وأغلق عليهم في ملاجىء، سجون، قضبان حديدية، أجهزة بلاستيكية وهم يفقدون هناك جلودهم التي غلاها الفولاذ المنهك أو أحرقتها الأفران (حين تودع حبة طماطم في الفرن فإنها تفقد قشرتها «تفال»! لكي تنجحوا في كل شيء، من فوق ومن تحت) ذات الغاز، الفحم، المازوت، البترول، الجير، الزيوت الثقيلة، الأقواس، التأثير... إلخ. وآخرون أيضاً ململمون، مسحوقون، مغتالون، مرميون، مبتلعون، مطرودون، محتقرون، مكرهون، مسلبون، مقتولون، مهيجون، معطوبون، مغرقون... الصورة التي رآها وأعاد رؤيتها خلال تسكعه، تهتز بحدة لصق حدقته حسب إيقاع سير القاطرة التي تجر حوالى عشر سيارات تتشابه كلها ما عدا واحدة خضراء فستقية أو لبنية أو لوزية جديدة أو (1) وتلتصق بلا ثوان في جفونه، ملحة، مفصلة وأشد واقعية من الطبيعة، ربما لأنه لا يحسن القراءة، فهو يمحو آلياً الحروف المطبوعة التي غالباً ما تغرق الصورة وتفقدها بعضاً من شراستها، مما يسمح له بتفريغ اللوحة الإشهارية من كل هذا الحشو من الكلمات غير المفيدة كركيزتي الأخمص التي تعطى لبطل 100م. زعماً أنها تساعده على الجري بسرعة أكثر، وهو يمحو بعشوائية كل الكلمات التي

تستوعب الشيء ولا يحتفظ في ذاكرته سوى بالصورة التي تقطع رأسه، تطارده ولا تترك له أية راحة ـ ولكن، في الواقع، فبنفس الطريقة يحذف الطبق البرتقالي اللون المعلق بيد المرأة ولا يحتفظ سوى بالصورة الراعدة لحبة طماطم مسلوقة باللحم ومكبرة خمس مرات بالمقارنة مع حجمها الطبيعي، وهي تلمع بالزيت بقشرتها المجعدة ذات الوضوح إلى درجة أنه يمكن عد التجاعيد الملتوية فوق القشرة الحمراء للخضرة، لا سيما وأن هذه الصورة هي التي تطرق ذاكرته، أي صورة القشرة المجعدة وإن كانت سالمة بحيث تترك المرء لا يتنبأ فحسب وإنما يرى فعلاً بذرة السحاة الرقيقة التي تحميها واللب اللين، اللذيذ، والشبقي على الأخص بشكل رهيب. والمحقق يقول: «لم يكن له أن يتصرف كالأبله، هذا يبدو غير صحيح ولكن ربما لو كان قد جلس كما الناس جميعاً لم يكن. ثم لم ينفع كل هذا العناء الضائع الأحمق، فالناس لا يعرفون أهمية التفصيل، بين وضعية الوقوف ووضعية الجلوس هناك عالم لا يحصى مكون من مليار إمكانية يجب إعداد جردها ذات يوم، ثم هذه القصة الخاصة بحبة الطماطم لا علاقة لها بالشخص أبداً!» ثم الآخرون مرهقون مدفوعون للإغاظة، ممخوضون، سكارى من النوم وهم يتلمسون طريقهم عبر صقالات تحملها أخشاب نخرتها العواصف فيسقطون في الفراغ كما لو كانوا يغرقون في النوم المريح اللين. والآخر، الطالب المزيف، ينظر إليه ينعس مدة ثانية،

بعضلات الوجه تنفرج بدون إحساس وحتى لون الوجه يتحول بنفس البطء إلى الأصفر الليموني، ثم سرعان، ما يستيقظ، بلا انتقال، فيتفكر الآخر: «لأنني أنظر إليه أستيقظ، ربما لم يكن عليّ أن». ثم القطار يندفع كصاروخ بارد الرأس على معدن عالي الضغط موجود بين السكتين يجري فوقه نوع من المقبض المعدني المسطح يمون المحرك بالكهرباء التي تتكون ـ بلا مرئية ـ من تلامس العنصرين (السكة المكهربة والمقبض المعدني) بدسوته المصنوعة من السكاي الذي يبعث نوعاً من الرائحة النتنة الفاترة ـ ثم الآخرون وهم يلعبون الدومينو أو الضامة، بحجارة صغيرة بدل البيادق، وبرسم مخطوط على الأرض المدكوكة مباشرة مبيناً لعبة الضامة، حين تصلهم البرقية، فيروحون يقولون: «الأبله، كان عليه أن يدخر كل هذه الكلمات اللامفيدة، كل هذه النقاط التي لا تعني شيئاً وإن كان ثمنها يعادل في الغلاء أطول كلمات يمكن تخيلها. **وصلت سالماً معافى**. هذا هو النص بوضوح. آه! الأبله. سالماً معافى! ولكن ماذا يعرف. الأكيد أنه أرسلها قبل أن يبلغ الهاوية بكثير. بمجرد نزوله من الباخرة. كي يعطي لنفسه وزناً أو كي يتهكم بنا ذاك هو إلعب أنت ولا تحاول تحريك حجرتي، فعيني عليك! الأبله، كان الأفضل بالنسبة إليه أن يعود أدراجه، يتهكم بنا! إنه يضيع وقته. لنصل صلاة على روحه... أو نسكر منكراً خاصاً بالمناسبة الأبله... ثم:

4 ـ شاتولي ـ لوفر.

5 ـ لوفر ـ بالي روايال.

ـ عند اصطكاك الأبواب استيقظ، متهيئاً لرفع حقيبته والاختفاء في المتاهة التي لا يفهم منها شيئاً وإن كانت قد صارت مألوفة لديه إلى درجة أنه بعد قليل سيروح يفكر أنه مهما يكن فإنه ليس تائهاً في هذا الخلط القصي والأسماء الملتصقة كالعديد من الأشياء الصلبة المائلة والملتوية في نفس الوقت عبر عدم تفكك صحيح أنه مجنن ولكنه بدأ يألف تشنجاته، ثوراته، تقهقره، اندفاعاته ولا سيما الرموز التي ليست ظاهرة دائماً وإن كان قد شرع في فكها في غالب الأحيان انطلاقاً من عتمة خلطها ألف حدث يتداخل بعضها في بعض من خلال شبكة تظهر غير متناسقة على ما يبدو وإن كانت متلازمة شرسة بل حتى قامعة. مكرراً في سريرته على كل حال فهو ليس غارقاً تماماً في مأزق بل أنه مستعد لقبول أي شيء الآن بعدما ذهب الآخر متذرعاً بقضاء حاجة عاجلة، تاركاً إياه هنا، مفزعاً ومحتاراً، عرقه يتصبب بقطرات ضخمة، جالساً على مقعد، المرفقان فوق الفخذين واليدان تعتمدان الوجه، العينان كما لو كانتا غائبتين وإن كانت تلحظان، على مستوى الأرض مئات الأقدام المختلفة القياس ذات الأحذية المتنوعة وهي تتقدم ـ بشكل هزلي ـ الواحدة بعد الأخرى، دون أن تكون في نفس العلو أبداً، ودائماً بتباعد أكبر أو أصغر قليلاً، كبيراً أو منزلقاً، أو تسرع في حركة فوضوية متداخلة إلى درجة

أنها تختلط، تضيع، تتضاعف، تختفي عن النظر ليعثر عليها فيما بعد قليلاً، بارتياح بديهي وإن كان تافهاً. بيد أنه وهو ينظر إلى الحشد يرفس الأرض انتهى إلى أن ينبهر ويفقد، خلال دقائق، هذه الحيرة التي يحسها في أسحق أعماقه، ليروح يقول لنفسه، فيما بعد، على كل حال ليس أسوأ أن يموت المرء محاطاً بحشد بهذه الضخامة فلا يكاد يحدث لي هذا في «الجبل» لا سيما وأنَّ موتي ستصيب بالبرودة «العسكر» الثلاثة أو الأربعة (ليس مؤكداً أن صاحب الدكان عنصر في عصابتهم) كل منهم يرمي على الآخر مسؤولية و، إلى درجة أنهم لن يستطيعوا بعد لا معاقرة الخمر ولا لعب الضامة ولا التلذذ بالقيلولة ولا مضاجعة المتسولات (يا له من سقوط بعد أن لعبوا أدوار الإغراء لسنوات طويلة!) ولا إخراج صورهم (لمن يظهرونها؟) ولا سرد أكاذيب لجماهير «الجبل» التي تكون قد وعت فجأة أن «العسكر» الثلاثة (أو الأربعة) ليسوا إلا قتلة شجعوا الآخر على الذهاب، وهم يعلمون بالتأكيد أنه يجري أخطاراً كبيرة، فتقرّر طردهم ـ نهائياً ـ من القرية ونفيهم إلى مدينة بعيدة (تهاجمها مداخل المعامل العكرة، السيارات ذات الألوان الحية والبتروكيمياء الغازية) حيث يمكنهم إشباع نزواتهم وخيالهم، لعب الضامة ببيادق حقيقية من الخشب الأسود والأبيض، ضاربين عرض الحائط بما لهم (المدخرات التي جمعوها بفضل عمليات مريبة أو تقاعد كسبوه على ضوء غاز الأستيلين) وهو يزحف في النهاية معهم، مصلياً في سبيل أرواحهم... ليس الأمر

أسوأ لا سيما وأن الحرارة بدأت تنخفض (في الخارج، ربما توقف الصيف محشرجاً فجأة، وقد كنسته خراطيم الماء، هبات الريح العاتية، تساقط الثلج) فقرر أن يجلس فترة قصيرة واضعاً حقيبته، مرتباً أوراقه (الآخر أعطاه واحدة أيضاً، كما لو كان يبرر سوء ضميره كمهاجر توصل إلى السيطرة على طرقات المترو، الحافلات، القطار، الباخرة وحتى الطائرة. منزلقاً عبر حلقات شبكاتها بتلك الليونة التي تميز أناساً حذرين نبيهين). مركزاً رأسه بين اليدين كما لو كان يريد أن يهصرها، يستخرج منها الحل الذي سيمكنه من تنظيم اللعبة التركيبية بصفة أكثر نجاعة وأكثر سرعة، فيكتشف على حين غرة، أن الفتاة ـ صبية في الخامسة عشرة من عمرها متبرجة بشكل مفضوح إلى درجة أن المرء يتساءل ما إذا لم تكن بشرتها، تحت ثيابها، موشومة كلها برسوم جنسية أو إشهارية تمثل مضاجعات شهوانية، وضعيات خليعة، مرهمات للشعر، عطوراً للأعمار الفتية، مستحضر شفاه بنفسجياً، مسحوق الأزرق الوردي، مستحضرات للوجه خوخية مشمشيّة أزرق الجفون السماوي البحري، أصبغة أظافر قرمزية، عطوراً خضراء ليمونية، غواسل شعر دقيقة الصنع، أسطوانات صارخة، سراويل «الجانس» المضبوطة قمصاناً مطروزة، مجلات متكلفة... إلخ. مرسومة بأحمر شفاه قان خشن ـ التي تجلس بجواره تقوم برفع الجورب الداخلي لساقها اليسرى تلك التي توجد عن كثب من يده التي يروح يضغطها بقوة

متزايدة كي يضبط قلقه ترفعه بصفة جد موحية كما لو كانت مرتخية بطيئة، بطيئة مغطية المغزل الأمرد الممطط للبشرة الملساء البرونزية حيث يكبر النيلون، كما تفعل العدسة، حبيبات الجلد المضبوطة الشرسة التي تشكل نسيجاً من الدوائر المتراكزة تنتشر باتجاه العرض وتختفي تحت الجزء الداخلي للفخذ في رمز يجنن تاركة إياه غارقاً في العرق، وقد استبد به هيجان باطني تماماً (الكلمات المكبوتة في الحلق، حبيبات السبحة، أقراص الشمس المجزأة بـ 22، 20، ومضات الضوء التي تبرق عبر الجفون، الرؤى التي تضبط طوق النجدة المنفوخ بالهواء المركز حول غرقه، الحجارة التي تطقطق في حذائه بألم ميناءات الساعات الجدارية المشاهدة في الحلم أو على لوحات الإشهار، صرير العجلات المطاطية اللصوقة وهي على وشك التميع، الآهات الموقعة بإيقاعات قاطرة نشوى، للأصوات المنقولة بالخل والعسل، التنهدات المبالغ فيها، شذرات الجمل المطحونة أو المفتتة، المناجاة المبثورة باحتفاء والممحوة في بعض الأماكن... إلخ)، فيروح يكرر ولكن ماذا تفعل؟ ولكن ماذا تفعل؟ وهو لم يصدق عينيه، والحرارة تغرقه والتعب ينهكه...

2 ـ سان بول ـ هوتيل دو فيل.

3 ـ هوتيل دو فيل ـ شاتولي.

4 ـ شاتولي ـ لوفر.

5 ـ لوفر ـ بالي روايال.

6 ـ بالي روايال ـ تويلوري.

... منهكاً بالتعب، غارقاً في الحرارة وهو لا يصدق عينيه أمام الشاشة المصغرة التي يرى فوقها السيارة تتوثب كجعران مبسوط الجناحين وإن كان مصاباً بنعرة تثقل سعيه فوق العادة وتكلفه حتى الجمود الكامل تماماً، وها هو الآن متقوقع على نفسه، ينطح برأسه في عمى كي يخرج متلمساً طريقه ظاهراً مختفياً كانتحاء من الألومنيوم وقد سقط في الحفرة التي حفرها بنفسه تمخضه تهودات الأرض المختلفة ميتاً! شبيهاً في جميع النقاط بالفكرة التي يرى نفسه عليها مثل تلك الحيوانات المغسولة الدماغ التي تخضع لتجارب في مخابر تلمع بياضاً بإطلاقها في مجاري مكتظة بالحواجز حتى تحلل، تراقب، تقاس وتوزن ردود فعلها، سلوكها، ذكاؤها، كبتها، تعودها... إلخ. وقد أصبح يخالف اللحظة التي سيفارق فيها رفيقه الذي ذهب يعد الدسوت بينما كان الأفضل بالنسبة إليه أن يقرأ اللوحة المصنوعة من الملاط الأبيض ذات الكتابة الزرقاء: (48 مقعداً للجلوس)، متعمداً الخطأ، متحرجاً من سكوت الآخر الذي سلبته لعبة الظل والضوء تلك كما لو كان يومض داخل حدقته ذاتها، مفكراً في أولئك الذين بقوا هناك قابعين خلف لعبة الضامة أو الدومينو، أولئك الذين يخرجون كل يوم أحد علبة ورق مقوى مطلية بالجير أطوالها 2 × 2م. فيلصقونها بالجدار الخارجي للدكان، ثم يأخذون جهاز عرض قديماً (16مم) لا شك أن أحدهم

ورثه من إحدى تلك الحروب التي خاضوها في مكان ما من الكون، أو نقل من المدينة حيث قضوا نصف حياتهم أو سرق من إحدى المصالح النفسية الموجهة لبعض الجيوش الغازية، خلال حرب السبع سنوات، آلة (كوداك) 1932 أو (باتي) أو (بال روال) أكثر قدماً، يكونون قد زوروا تاريخ صنعها، حيث يرفعونها فوق حجر مربع علوه متر، يستعمل دعامة وضعت على عتبة الدكان ـ مركز القرية وقلبها حيث تتم المناورات، تعقد الزواجات، يتصالح الفلاحون الذين تخاصموا حول نفس قطعة الأرض، تنال التصريحات، جوازات السفر، حق المرور، الإعفاءات من الضرائب، جوازات المرور لنقل بعض السلع (دقيق، سميد، سكر، شاي... إلخ)، تكسب العادات السيئة، تقرأ الصحف السياسية، تناقش التفاسير المختلفة للقرآن، تعطى الدروس المسائية، تتكون الدعايات... إلخ ـ فتروح بمجرد، سقوط الليل، تعرض صوراً أخطبوطية أو مائية أو تدرجية مرسلة عبر حركة متقطعة ترش الشاشة بنقاط سوداء وبيضاء ومنقطة ومرشوشة برقون متداخلة كحركة الدود يصاحبها ضجيج محرك رهيب يتغافل عنه تماماً المتفرجون الذين دفعوا تذاكرهم، وقد بهرتهم أشرطة الأحداث القديمة حيث يفضل الشخوص الترحال دوماً وحيث يقدم رؤساء الحكومات داء الصرع لجماهير متعطشة إلى الخطب النهرية المحروم منها سكان «الجبل» لأن آلة العرض ذات 16مم ليست مجهزة بالصوت، متوثبين، متقافزين، مختلجين،

داحصين من الصرعة، كان شخوص أشرطة الأحداث (الأفلام الروائية مبعدة لأن رواد الدكان كانوا يريدون من وراء عرض الأحداث، حتى ولو كانت قديمة جداً وتجاوزها التاريخ، إعطاء دروس في السياسة السامية، إذ كانوا متأكدين من التكرار الآلي للأحداث التاريخية) يتميزون بنفس ذلك القلق الظاهر من الصورة الداحصة والمقلوبة للقطار، الملتصق بجدار نفق السكة رقم (شاتو دو فانسان بون دو نويي) يضاف إليه هذا البرد المتقطع المملوء بالحزازات والرقون ذات الصرير كما لو كانت على وشك ثقب شاشة الورق المطلي بالجير والمميز للأفلام القديمة التي يعرضها «العسكر» ويعيدون عرضها دعماً لنظرياتهم الكاذبة. في حرجهما، إذن، كلاهما لا يعرف كيف يغادر الآخر، فيروح كل، على حدة، يعد مخططاً دقيقاً حتى لا يؤدي الفراق إلى نزوات غير مرضية في مثل هذا الإطار (تقبيل، تبادل صور، عناوين وهدايا، عبارات التأدب والشكر، حركات الوداع، مناديل مفتوحة ترفرف، معاملات خاطئة، حركات مصحوبة بفيضان، تدفق، دموع داخلية، نلعثم، إلخ..) الذي لا يحمل بصمة أولئك الذين شيدوه على هذا النحو فحسب، وإنما يحمل أيضاً تنفسهم ورائحتهم التي تنشر في الجو «فينولا» ما $C_6 H_5 O H$ منهكاً، ساماً مطهراً، أساسه زفت فيخرجه بشكل فظيع.

7) تويلوري ـ كونكورد.

ـ ثم نفس المسار ولكن بصفة معاكسة:

6) بالي روايال ـ تويلوري.

5) لوفر ـ بالي روايال.

ـ ثم يتخلى عنه، من جديد، يدفع بقوة، يعصر الكلمات تقطع أضلاعه، أقسى من رصاص عيار 6مم لأنه لا يفهمها ولأنه يحس بالخزي لاقتحامه هذا العالم المغلق المضني حيث يطارد، يقيد، يسجن في رواق تحت أرضي لا وجود فيه لشيء من العالم الحقيقي وحيث كل شيء اصطناعي (الهواء، الضوء، الزمن، المكان) وحيث لا شيء عادي لأنه يصبح تافهاً إلى أقصى درجة، وقد وضع هنا بعد دراسات طويلة ودقيقة حول التصرف الصفقة الأرض، الموضع، إلخ. ولا محل للأصالة لا في أكشاك الصحف، ولا في محلات الملابس، ولا في الناس المستعجلين، المعصورين المتعبين، المضنين وغير المشفقين على أنفسهم بالأخص وعلى الآخرين. وقد أخفوا تحت ملامح متجهمة، اللحظات التي فيها ضحكوا، بكوا، أحيوا، خافوا، ابتسموا، إلخ. كما لو كانوا يخفونها تحت أقنعة من البوليستير الفاتح اللون. إنه يحاذي، من جديد، ممرات لا تنتهي، يتوقف أمام آلة علك، يلحظ بدقة كيف يفعل الناس، يميز غلظة ولون القطعة النقدية التي ينزلونها في الشق وبمجرد ما يصبح وحده يدخل قطعته فيسمعها تسقط في الداخل بصوت نوعي، لكنه حين يجذب المقبض يحرن ولا شيء يخرج. غش! عندها يستأنف سيره فيتعرض لاعتداء مئات الفراغات المنبعثة من كل ناحية، يميناً،

يسارا، محفية صاقلة المساحات المفروغة من الدم او المزينة، دوماً على شكل متاهات، ممرات، دهاليز، مدرجات، مستويات، ملتقيات معتدية ومتفجرة يتجنبها كلما استطاع ـ مما يفقده في أغلب الأحيان مقصد توجيهه ـ غير أنه لا يملك شجاعة مواجهتهم خوفاً من التخاذل وسطهم فتسقط حقيبته أرضاً بجنبه، وتنفتح نهائياً هذه المصارع لأن الأقفال أو الملازم أو كليهما في نفس الوقت لم تتمكن من المقاومة فانفكت جاعلة المحتوى (برنوس خشن، بزة عمل زرقاء، سترة جوخ هي جزء من البدلة التي يلبس سروالها والعديد من الرزم المغطاة بالورق وإن كانت تظهر علباً قديمة للكعك طرازها ممحى، طاسات زجاجية، صناديق خشبية صغيرة إلخ) يندلق. لقد شرع يحس بزيادات متعددة تخرج من رأسه وإن كان من الصعب تحديد أصلها فيروح يعتقد، على حين غرة، أن رأسه مملوء بالثقوب التي تفتح المجال لسيلان لزوجة لصوقة تحرج رؤيته أو تبطئها أو توقفها تماماً لبضع ثوان يفقد خلالها الذاكرة ويتخلص من مستقبله. دوران! مناجاة! رعدة!

ـ إن تطفله عبر ضجيج وفرقعة الأصوات والأشياء المغمومة أكثر فأكثر يجعله حساساً ـ إنه يدور في الفراغ ـ فلوحات الزجاج الواقي نصف البرتقالية، نصف الشهباء التي سطرت عليها الاتجاهات تدور في رأسه ثاقبة فتذكره، وهي مرقونة كذلك، بالأضواء العجاجية لسيارات الشرطة، والمصابيح الغامزة التي رآها خلال عبور المدينة حيث

رست بِاخرته. ولا يسعه، كلما رآها، إلا أن يشعر بالسأم والإثم لذا يتجنبها ويركز جهوده على اللوحات التي تشير إلى اسم المحطة المكرر عشرات المرات بل أكثر:

ـ كونكورد ـ كونكورد ـ كونكورد ـ كونكورد ـ كونكورد ـ كونكورد كونكو ـ هذه الرموز مخيفة إلى درجة أنها لا تعني شيئاً في نظره وإن كان في نفس الوقت ينتبه جيداً إلى أن أشكال أهميتها لا تخفى عليه، حتى ولو كان ذلك ناتجاً عن مجرد انتشارها هنا في حركيتها المتكررة، فتتصغر، تنحرف، تتضخم، تتضاعف حسب إيقاع مهووس يمزرق رأسه بما يشبه العديد من الومضات البارقة زرقاء وبيضاء بل حتى أنها تختفي بين الفينة والفينة، في طوفان من النقاط الصغيرة أو الأقراص الصغيرة الحمراء والخضراء مخترقة رأسه ومستطيلة كي تشكل شبكة من الخيوط بجميع الألوان مرتعدة على مستوى عينيه وملتوية إلى ما لا نهاية وقد عقد العزم على متابعة السير، الاستمرار في التحرك كي يبرهن لنفسه أنه ليس جباناً بينما شرع النعاس في خلط أفكاره، مزجها في كبة مؤلمة، لا طاقة لفكها، من الحدس، التخوف، ردود الفعل التي تزيد رغبته في تقيؤ عرقه وتعبه. إن الإضاءة لم تصنع لتخفف هذا الشعور المجنن المرعد المبرق الذي يرسم أمواجاً ومنحنيات في الهواء كاشطاً عينيه رغم ألوانها الباهتة الغامضة، ربما، بسبب تعدد المنابع والمكامن التي تنقسم كل منها إلى آلاف الجزئيات الكروية الدائرية، منطلقة ومعججة في الهواء

وعبره، طابعة الوجوه بطبع شاحب باهت (نيون) أو منطفىء (مصابيح التنغستين)، وكل هذا التراكم للأمواج الممغنطة المكهربة التي تنكسر، تتامص، تتذاوب، تتداخل، تتجزأ عبر اتجاهات متعددة، حاملة أضواء مرئية وأضواء سوداء جسيماتها تكاد تتناطح في رأسه، تقهقره، وهو على تلك الدرجة من الحساسية، حذراً، واعياً طقطقة وتململ الأشكال المشخصة بتوزيع الإضاءة مارة عبر موشورات وانحرافات خالقة لطخات، دويرات، كوات، منقطة الاستشعاع، مغرقة بذلك الأشياء نفسها في ألف نغم، محولة الجو إلى نوع من السيولة، إلى نوع من الذوبان، وذلك رغم الشظايا المفاجئة للضوء في مثل هذه المنطقة أو تلك التي تكاد تكون غامضة، وهو ملتصق بكل هذا الطوفان من الضوء فإنه يحس إحساساً ضعيفاً بضرب من الانتحاء الذي يبقيه متيقظاً لأنه لا يريد أن يترك نفسه تمتصها الرموز المتقطعة الوامضة التي تتربص به لتغزوه، تبهره وتجعله مجنوناً. لذلك، وهو واع بالخطر، فإنه ينهض بسرعة ويرفع حقيبته، يخرج قصاصاته (حوالى عشر بالتقريب الآن) التي ركز بها بين إبهام وسبابة يده اليمنى، حاملاً ثقله بيده اليسرى وذراعه ممتدة إلى الأمام قليلاً بحيث ترى في كل منعطف، ممر أو كل منعرج، مدرج ميكانيكي وقد ظهرت تسبق جسده.

ـ سيولة الحركة الغامزة برتقالياً وأزرق كحلم قسم إلى اثنين كي تستخرج منه الألوان والانطباعات الغامضة

المتخمرة داخل النعاس تحت خميرة الكلمات المكسورة، الممحوة، المشطوب عليها، المبعثرة التي يبقى معناها مجزأ بالنسبة للمهاجر المنغلق في خزيه كزنبور تاه في هيكل الحويصلات التي يستخرج منها عسله، المأخوذ بين الانتجاع والتفكير متذكراً أصياف الجفاف مذاقها كمذاق القرفة التي يرويها الشريك الرابع في القبو البارد والمخاط إن صح المعنى بالفتائل والحبال (آلة العرض!) مع الهواء الجاف المعطر بالرائحة الطيبة للمشمش وهو يجف فوق السطوح، مفرغاً من نواته، مقطوعاً نصفين، منشوراً، مسطحاً مباشرة على القرميد الألفي القدم فيضيف إلى الالتهاب الفادح لمنتصف النهار وهو يزحف عند سفح «الجبل» قبل أن يغزو في نوع من الحركة الخليعة ويغرق القرية المظلمة دوماً، الغامضة دوماً، ربما، بسبب هذا النشر اللامرئي المحكوك بالدكانة والصدأ والمحاط بالحشرات نصف النائمة، نصف اليقظة، وإن كانت مع ذلك تطارد الطفيليات والمنبوذات إذ لا أحد يتحرك باستثناء الحيوانات الصغيرة و«العسكر» الأربعة الذين لا يستيقظون فجراً كي يذهبوا لجني المشمش أو حصد القمح بل ينامون حتى الضحى وقد تأكدوا أن مدخراتهم آمنة تحت الوساطة وأنهم سيعرفون يوم الأحد شريط أحداث مكرساً لأتاتورك الذي يوصم ذاكراتهم السديمة كثوري أصيل لأنه أرغم مواطنيه على الاعتمار بالبرنيطة ـ هواء جاف ملتهب لا علاقة له بهذا المحم الجبني الذي يفوح جوه برائحة صوف

مبللة، رائحة محيط مسلح، رائحة مصارين تغسل بالأمونياك، وذحة، مرسلة نوعاً من مادة سميكة رطبة يتحرك فيها هو، وفي ذاكرته وعلى بشرته انطباعات وأحاسيس تطبعه إلى درجة الاختلاط ـ المتقطع ـ للأمكنة، العمود، الحركات، الأعمال كما لو كان منحه قد زود للأبد بضرب من البقعة المنيرة، صحيح أنها كليلة ولكنها حمراء مصابة بارتعاد تشنجي أبدي كتلك التي ترى تكبر وتصغر وهي ترسم منحنيات التوائية حين يصور كهربائياً دماغ مريض في الغيبوبة ـ أصيب في حادث مرور أو مرضض ما ـ بدماغ، مثل دماغه، تصدر عنه أمواج كهربائية غير منتظمة، أحياناً سريعة متقطعة وأحياناً ضعيفة وهنة، مع ذلك الفارق الضئيل، كون البقعة الضوئية التي يراها المرء على الشاشة بيضاء بينما تلك التي يحس ـ بغموض ـ أنه يحملها في رأسه حمراء برتقالية أو بنفسجية، حتى ولو لم يرها أبداً في حياته...

ـ والآخر يرمرم: «ولكن من قال إنه أغمى عليه في كونكورد؟ أنتم الذين سقطتم على الرأس أجل، حذار لا تتركوا نفسكم تغرق في غنائية تكون تافهة في مثل هذه الظروف، إني لا أريد أن أصدق أنكم تفعلون ذلك عمداً قسماً بشرفي! وعلاوة على ذلك، فهناك وثيقة من الملف قد اختفت. إني لا أقول إنكم أنتم أوه! كلا؟ ليس لي بينة، ولكن جنبوني هذه الذاتية التي تتدلى من بشرتكم كلما تقدمنا قليلاً. إني أحس أن أحدهم يحاول طمس الطرق. حذار سأجعل هذه الحكاية قضيتي. لقد وقع هذا في

مقاطعتي وهذا يكفي كي أقوم بالضروري حتى أوضح كل شيء؛ فكأنكم تريدون معاكستي، لقد زور شيء في الملف فعلاً، حكاية أثر القدم تلك التي بدلت صور. ولكن من قال إنه أغمي عليه؟ إنه شك حتى في كونه جلس على مقعد بمجرد وصوله إلى كونكورد. هل وجدتم أثر الصبية ذات البشرة الموشومة كلها؟ إلا إذا كان الأمر يتعلق أيضاً بأحد اختراعاتكم، كيف تفسرون كونه لم يجلس خلال مسافة باستي ـ كونكورد رغم دعوة ابن عمه وأنه بمجرد نزوله في المحطة يجري ليجلس ويعتمد رأسه بيديه ويروح ينظر خلسة إلى الفتاة الصغيرة وهي ترفع جواربها الداخلية، اتركونا إذن! سيكون هذا بسيطاً جداً الأصح كلا! اعثروا لي على الصبية أولاً وعلاوة على ذلك فإني أتساءل مع هؤلاء الاستعرائيين إلا إذا كان شاهدكم قد أخلط ما يعتقد أنه رآه، أي فتاة في السادسة عشرة ترفع جواربها الداخلية فوق مقعد مترو، مع ملصقة تمثل فتاة وهي تشهر طرازاً ما من الجوارب الداخلية ذات الألوان الخضراء، الزرقاء، الحمراء إلخ. ألا تعتقدون؟ أو إذا كانت موجودة بالفعل فليؤت بها إليّ، فليعثر عليها، رباه! الواقع، وجود الحقيبة؟ في 35 نسخة؟ ما زال الوقت، حذار يا عزيزي لا تعقدوا لي حياتي وتذكروا أني رب قطاعي هذا أفهمتم والآن إن وقع تزوير وثائق التحقيق هذا خطر وسأعرف كيف أعثر على المسؤولين يمكنكم الوقوف في آن! هذا يقع، أعوذ بالله وفي قطاعي!».

السكة 12

تجمع الرجال، النساء، الأطفال وأحد الكناسين الزنوج أو الكناسين الزنجيين (المعروفين جداً بسترتيهما الزرقاوين ولا سيما بمكنستيهما الواسعتين اللتين يرتكز طرفا مقبضيهما الخشبيين على المعدن المسطر بعارضة مستقيمة من الفولاذ هي الأخرى يكاد يلتصق أعلاها المشكل من الخلنج (أو الوزال والأسل) بالوجه المختفي وراء التفرعات العديدة التي تمكنهما من الاختفاء والمرور دون أن يراهما أحد تقريباً) جامد (التجمع) وسط المدرج الميكانيكي تماماً (توجد 164 عبر مجموع الشبكة مغطاة بالإينوكس اللامع، تتكون درجاتها أثر مسطح الانطلاق فوراً الذي لم يكن، في الأصل، وعلى بضعة أمتار (3 أو 4) سوى سجادة متدحرجة كتلك التي ترى في الممرات الأكثر طولاً، كي تتكدس في رفوف الواحدة فوق الأخرى كما لو كانت تخرج من الأرض ببطء محسوب وتختفي من جديد على مبعدة أمتار من مسطح الوصول، ثم تستعيد شكلها الأول الجد مسطح. هذه العملية التي تتم في هدير محرك مغموم

لا تدهش أحداً من بين المجموعة التي ما تزال جامدة وإن لم تعد الآن وسط المدرج الذي قطع بالفعل ثلاثة أرباع المسافة الإجمالية. الأطفال يسكتون، ربما خوفاً من الإحساس بالسرعة الهائلة التي تدفع الآلة، تلك التي ليست سوى ظاهرية إذ أن المدرج الميكانيكي يتقدم في الواقع ببطء شديد. إن الظهور والاختفاء المتقطع المتطابق للعديد من الدرجات الوامضة يعطي ـ بمساعدة تلاعب الضوء ـ إحساساً بسرعة مذهلة يختفي بمجرد ما تترك الدرجة الأخيرة المدفونة تحت الأرض المجال للسجادة المتدحرجة التي يظهر بطؤها ـ الحقيقي ـ أكبر إذا قورن ببطء المدرجات الداخلة والخارجة، المنبجسة والمختفية مع هذا الهدير المميز الذي لا يكاد يسمع إطلاقاً. المجموعة الجامدة المضمومة (حوالى عشرة أشخاص) تشغل وحدها المدرج ذا الطول العادي الذي يكاد يكون منحناه الآن كاملاً متموجاً عبر الفضاء فيبدو وكأنه مشدود في الهواء بأعجوبة الميكانيكا وحدها كما لو لم تكن توجد تحت الدرجات كل تلك الآلة الضخمة والدقيقة في نفس الوقت، المغبرة والسوداء من التشحيم الذي يرى بين الفينة والفينة حين يتعطب المدرج فيأتي فريق من العمال لإصلاحه، فينزعون الإينوكس اللامع الذي يكشف تجميعاً فوضوياً من السواعد. المفاصل المتحولة، العجلات، الضابطات، الدافعات، الأحزمة الدائرة، الحدبات المسننة وناقلات الحركة التي تتفرع هياكلها يميناً ويساراً فتسير بتموج مجموع

الآلة ـ أربعة أو خمسة أشخاص يقفون يساراً أيديهم موضوعة على المتراس المغطى بالمطاط المنزلق فوق الجدار المعدني للمدرج الذي يتزاوج سطحه اللامع المصقول مع الفولاذ المبطن للدرجات المرقوشة هي ذاتها بخطوط عارضة مضافة للمادة كزخرفة لا يرى المرء ضرورتها ما عدا إذا كانت تستعمل كتجهيز يدعم فولاذ الدرجات. على اليمين لم توضع سوى يدين أو ثلاث أيدي، أي أنه تنقص يدا الكناسين الزنجيين الشادين على مكنستيهما شاردي النظرة، ويد صبية صغيرة ملتصقة بذراع أمها. الأيدي الموضوعة هكذا، يميناً ويساراً تبدو مصابة برعدة تكون ملهية إذا لم ينتبه المرء بسرعة إلى أنها منتقلة من المترس الممطط الأبدي الحركة الدائرية، إلا إذا كان الأمر مجرد خداع بصر ناتج عن حركية المدرج واستشعاع الضوء المنقسم إلى ملايين الجسيمات المدغدغة، المنعكسة باستمرار على المادة المكثفة والمصقولة بالنسبة للجدران المنقطة والمرقوشة بالنسبة للدرجات ذاتها.

ـ في انعزال قليل (بعض السنتيمترات) يلحظ المسافر في صمت وحقيبته بيده، المجموعة التي توجسه بثبوتها المذهل، بينما تتحرك حواليها الأشياء، تتآكل، تتماص، تعود للظهور، تنبجس على السطح، بذرة بذرة، لوحة ضوء لوحة ضوء، وقد جمعت في مخطط ضامة لا ينضب، منطلقة في الفضاء مكرمشة وساجنة إياه عبر منحنيات، سطوح وقطع مكدس بعضها فوق بعض، صاعدة إلى أعلى،

متوقفة على مبعدة سنتيمترات من السقف، بالهيكل المدهش الذي يملأ الفضاء، كسد معدني يقابل الخيال، التهاون والحلم (وليس حلم العاملين الزنجيين الملتصقين دوماً بمكنستيهما فقط) المخلخل، المكسر إلى ألف شظية زجاج، بلور، طلق، وصوان. الآن وهو يشرف، نوعاً ما، على الآخرين، فإن له وجهة نظر تختلف عن رفقائه الذين لم يعد يرى بدلاتهم، مآزرهم، فساتينهم، معاطفهم، جنباتهم، أذرعهم، وجوههم إلخ. وإنما يرى جماجمهم، أعناقهم، آذانهم، ياقات قمصانهم، محرماتهم، مناديلهم، إلخ. إن ما يحيره أكثر هو أنه لم يظهر أحد على مسطح الانطلاق الذي يبتعد أكثر فأكثر، كما لو كان للمجموعة خصوصية استعمال المدرج الميكانيكي، على الأقل مدة المجرى، لأنه لم يتوقف عن لحظ الطرفين: نقطة الانطلاق ونقطة الوصول، وهو متوجس كذلك وأكثر توجساً أيضاً حين يتعلق الأمر بركوب هذه الآلات الأوتوماتيكية اللامعة التي تعلقه فوق المستوى العادي وتأخذه في الأجواء حيث يغطيه الهواء المختلف قليلاً عن هواء الأسفل، بمكر ويطمئنه مع ذلك، لأنه ينتبه فعلاً إلى أنه هواء المترو رغم بعض الفروق التي يلحظها منخراه الحساسان من فترة لأخرى. إنه يتساءل ما إذا لم يكن قد غلط وما إذا لم يكن بصدد الركوب مع مجموعة خاصة، وهو ما ليس من حقه فعله، فيستعد للاعتراف بأنه خالف القوانين السارية ـ غير أنه سرعان ما يطمئن إذ هناك في أسفل الدرجات، البعيدة جداً الآن، أخذت مجموعة من شباب صاخبين فوضويين

مكانها على المدرج وشيئاً فشيئاً راح يراهم يعلو أحدهم فوق الآخر حسب الدرجات التي تتضاعف، تنبجس من الأرض مشكلة ضرباً من الصنيدقات المستطيلة علوها يبلغ حوالى 20 سم تتلوى في الضوء الاصطناعي وتبتلع ما هو ثابت حواليها (الممرات، الأشخاص، القضبان، السقف، إلخ)، بينما كاد الأشخاص الذين يكونون المجموعة يصلون إلى أعلى السلم وهم مستمرون في صمتهم، كما لو كانوا يفعلون ذلك عمداً، بهدف تخويفه ورفضه ونبذه، قاضين عليه بذلك من خلال نوع من المؤامرة الصامتة، عواقبها ترعبه لشدة جمود الآخرين بوجوههم المتجهمة المكفهرة، وقد ظهرت مكان عيونهم عقديات خضراء مزرقة مخددة بسائل محمر.

ـ والآخر يقول ولكن بالطبع ولكن بالطبع إني أؤكد لكم؛ إنه هو فعلاً، إني أتعرف عليه أخيراً، من الصعب التعرف عليه غير أني متيقن آه! هذا لم يكن ليتخلى عن حقيبته أبداً، للاشيء في العالم، وجدت طلعته بشوشة بل حتى أني مزحت فيما يخص حقيبته فقلت بالتقريب شيئاً كهذا: «إذن توجد قطع ذهب أو ماذا يوجد داخلها؟» غير أنه لم يبد عليه أنه يستسيغ مزاحي ـ نقوم بما نقدر عليه ـ إلا إذا لم يكن قد سمع شيئاً نظراً للهدير الصادر عن المدرج الميكانيكي، ثم خذ، إني أتذكر الآن حتى لقد كانت هناك صبية تنهق وأعتقد أن أمها كانت تقرصها كي تسكتها مما أثار غضب عجوزة زعلت من مثل هذا التصرف القليل الأدب والسادي. أعتقد أنها الكلمة التي قالتها

«سادي!» وقد كانت غاضبة تلك العجوز إلى درجة أن زوجها وهو بنفس السن، راح يحدثها بصوت منخفض، لا شك لكي ينصحها بالاعتناء بما يخصها، كلا ولكني أؤكد لكم ذلك، ليس للحصول على طبع صورتي في الصحف، أنتم تعرفون أن الأمر يكاد يكون تفاهة في هذه الأيام، كلا ولكن لأني وجدته بشوشاً، الرجل، كيف أقول فخور، ربما أنفه، لا أعرف، بل حتى أني قلت له «ضع حقيبتك، فأنت على كل حال لم تسرق كل ذهب بنك فرنسا!» أو شيئاً من هذا القبيل، سذاجة بلا شك، وعلاوة على ذلك فقد كان هناك خلق كبير فوق ذاك المدرج الميكانيكي، كما أنه كان قديماً لا يشبه تلك المدرجات التي تركب في كل مكان تقريباً الآن، فقد كان لهذا ـ أنتم تعرفون ـ درجات خشبية، وكان ذا صخب كبير، بطيء جداً، وسخ جداً لا لأتهم بالسوء الناس المكلفين بالعناية، ولكن كي أعطيكم تفاصيل بما أنكم تلحون كي تحصلوا عليها، أعتقد أن هذا تفصيل أليس كذلك؟ آه! حقيبته إذن، لم تكن رديئة تماماً، ولا جديدة تماماً، وإن كانت ما تزال لامعة بحزامين من السكاي يغلقان بمساعدة إبزيمين كبيرين مذهبين، ولكن يا ما كانت مدكوكة إذن، كانت تخرج منها حدبات كبيرة هكذا، الأكيد أنها أشياء ثقيلة أو صناديق أو علب ورق مقوى، لهذا مازحته بتلك الحكاية عن بنك فرنسا، لم يكن يبدو أنه يستسيغها ولكن من حقه كما هو من حقي أن أمزح، أعترف أن مزاحي ليس طيباً جداً على الدوام،

ولكن إذن حقيبته يا ما كانت مدكوكة! لقد كان يحمل أيضاً مجموعة أوراق يضغطها في يده، النقود، حسبما فهمت، ربما لهذا فكرت في حكاية السرقة هذه. أوه! لا لأنه لي خيال خصب ولكن يكفي فتح أية جريدة لأخذ فكرة عن هذا الموضوع الواسع. لا تلوموني عما أقول ولو كنت أقفز من الديك إلى الحمار، إنها طريقة ولكن لاحظوا أني لا أضيع الخيط أبداً ـ إذن لقد كان وحده فوق درجة وكان يشرف بدرجتين أو ثلاث درجات على مجموعة الأشخاص الذين كانوا مستمرين في تبادل الشتائم بسبب هذه الطفلة التي قرصتها أمها، أنا لم أر شيئاً ولا أحد! بعضهم قال للعجوز: «كذابة!» وسكت، نازلاً فجأة أسفل كما لو كان قد سئم هذه الحكاية الساذجة وعلاوة على ذلك، فقد كان على حق. أنا، كانت الحقيبة تبصرني، آه! نعم جلد جميل، ولكن يا ما كانت مملوءة كانت تنبعج من كل مكان فيحس المرء أنها ستتمزق من لحظة إلى أخرى فأنا أقول له: «ولكن ضع حقيبتك إذن، إنها ليست مصنوعة من البلاتين!» أو شيئاً من هذا القبيل، غير أنه هو لم يكن يبدو عليه أنه يسمعني. إن كنت أقول لكم هذا، فليس للحصول على وسام أو على ثناء الشرطة هذا تعرفونه. غير أني وجدته بشوشاً. لم أكن أعلم أنه كان مفقوداً، وإلا ربما كنت قد ساعدته، أخيراً! إنه غريب مع ذلك، كان يمكنه أن يقول لي ذلك، ماذا! كنت سأعينه بالتأكيد!

ـ ثم عند هذا، أفلن! من جديد المخطط الذي لا يفهمه

وإن كان يخبر به، يدهشه ويبهره حيث تتلوى الخطوط عبر شبكات حمراء، سوداء، صفراء، خضراء، زرقاء، حمراء من جديد وإن كانت هذه المرة مرقونة بالأسود ثم زرقاء ولكن مرقونة بالأحمر، ثم خضراء ومرقونة بالأبيض مع دويرات شاغرة في الداخل ودويرات مطلية بالأسود، ثم أرقام يعرف قراءتها (10، 12، 7، 1، 2، 5، إلخ) ثم أسماء بعضها مكتوب بحروف أثخن من الأخرى بيد أن المجموع مرسوم بعلامات كما لو كان بالمقلوب إلا إذا كان الأمر. بطيات وطيات معادة عبر شبكة مضبوطة بالخطوط المنكسرة، المقطعة، المجزأة الذاهبة في اتجاهات مختلفة مشكلة تداخلات، تشابكات ضمات ومنطلقات صعبة التأويل إلى درجة أنه وضعت في ممرات بعض المحطات أغلب الأحيان مقابل باب الدخول الرئيسي، وضعت أجهزة كهربائية تسمح بتسهيل قراءة الخريطة، لا سيما وأنها منيرة، إلا أنه للوصول إلى هذا، يجب معرفة الضغط على الزر المناسب ومرة أو مرتين بقي أمام هذه الأجهزة التي تضيء خطوطاً بيانية خرافية تتوقف هنا أو هناك ولكن بصفة قاطعة تحكمية وبالأخص، ثم سرعان ما تنطفىء كي تفسح المجال لطرق أخرى، تتشعب، تتلوى وتتقدم في رشة فوسفورية ملونة بالأخضر، الأزرق، الأحمر، حسب الاتجاه رقم السكة واتجاه من ضغط على الزر المناسب. بهذه العلامات التي تمزرق المادة المصنوعة من البلاستيك أو الفورميكا أو البوليستر

بألف منحنى تشكل ضرباً من الجراح الحية الطاعنة مباشرة في المادة المزججة التي تومض حسب إيقاع الجسيمات التي تتناطح، تتصادم وتبرق بالكهرباء، مهرسة وحتى مخربة إياها لأنها لا ترتاح أبداً وإنما هي تحت رحمة أي صبي طائش يمكنه أن يضغط على زر، أو على عدة أزرار في نفس الوقت، لاعباً لعبة البيانو فوق اللوحة المحيطة يميناً ويساراً بوجه الجهاز الذي يخفي هو الآخر بالتأكيد أعماقاً من الخيوط الفولاذية ومصارين ملتوية، تحت رحمة أي لاعب «فليبر» مبهور بتشابه النظامين، مخترعاً، بلا شك، وسيلة كي يتمكن من صنع لعبة منها، بخسائرها وأرباحها، قائلاً للمسافر المنبهر والحائر، المتوقف فجأة أمام الجهاز: «أنت ترى، العلم يتلخص في لعبة «فليبر»، لا شيء يقال! خذ، أنظر، لا يمكنك أن تعرف مقدار التشابه، لا يسعني سوى أن أتخيل أن هناك جلة على طرف كلّ خط، ولكن ها هو! المأساة، هي كون المرء لا يمكنه أن يضغط سوى على زر واحد، وإلا، أنت ترى، فقد أكون منذ أمد بعيد قد حولت لهم هذا إلى لعبة «فليبر» مجانية وشعبية، ولكن لنسرع، لي موعد أوه! أطمئن ليست فتاة وإنما أهم من هذا. غير أنه لا يمكنني أن أذكر ذلك. آه! حقيبتك كم تبدو ثقيلة. خذ، لقد جعلت أحد كتفيك أعلى من الآخر. يجب عليك أن تمررها إلى اليد الأخرى من فترة لفترة ـ كي نعود إلى لعبة «الفليبر»، أنت تعرف!».

ـ ثم مع كل هذه المستويات يبدو له (أضف إلى أنه فهم

الحيلة مع الأبواب، البوبيات وغيرهما من المغالق الميكانيكية، ولم يعد يقع في الفخ إذ صار يحث الخطو حين يراها تغلق ببطء في طقطقة مكفهرة، محورها المقوس في نصف دائرة يفتح كلما انغلق الباب، حتى أنه صار يجري فيتوصل للمرور على شفا الانغلاق ملتفتاً ليرى خلفه الناس الآخرين وقد بقوا لاصقين وراء البويب كحاجز رمي نهائياً بينهم وبين باقي العالم، فيبقون هكذا جامدين، لا يتحركون، وقد كادوا يكبتون تنفسهم، ناظرين بأسف شديد، إلى القطار يمتلىء، أبوابه تغلق وقاطرته تنطلق تحت أنوفهم، عاجزين وحازنين للعبة السيئة التي وقعوا فيها، ووجوههم دوماً مقنعة بتلك الأقنعة المنكمشة، المجمدة المكفهرة كما لو لم يكونوا يخرجونها إلا حين يدخلون في «المتروبوللتان» ثم يروح البويب يدور حول نفسه ببطء، ببطء شديد كما لو يفعل ذلك ليتحرش بهم أكثر والفاصل بين الدفتين يروح يكبر، ولكن قبل أن ينفتح الباب تماماً، يتمتع بمشاهدة سيقان وأقدام أولئك الذين ينتظرون خلف الباب الجامدين هم الآخرون، وقد وضعت بحكمة الواحدة جنب الأخرى، مثنى مثنى، كما لو كانت مقطوعة على مستوى القصبة، وحدها، ميكانيكية وحمقاء، وهي لا تترك للرؤية سوى أسفل سراويل الرجال، الأحذية، القصبات العارية أو المغطاة بجورب داخلي شفاف للنساء بأحذية عالية الكعب وإن كانت مغبرة مثل أحذية الرحال، دون أية أصالة خصوصية. أضف إلى هذا أنه يعرف الآن يتدبر أمره

مع هذه البويبات الأتوماتيكية التي عذبته في البداية، متلذذاً برغبة جامحة في المرور بآخر دقيقة، معطياً لنفسه هوامش أكثر فأكثر، وقد وقع بذلك في فخ «العسكر» (الذين تنبؤا له بأنه سينتهي إلى التذوق في المترو...) معتقداً أنه خدع بكل هذه المعابر أيضاً، هذه الجسور المعدنية المرمية في الفراغ مباشرة فوق الركاب الموجودين في الأسفل، واضعة حياتهم في الخطر، هذه الثغرات المذهلة من الخرسانة والفولاذ المعلقة بين مستويين حيث لا تخفف وطأتها رادعات الغفلة وغيرها من الحواجز والسياجات، التي تتضاعف يسرة ويمنة مثل هياكل معقدة مجننة، تمكن المرء من أن يرى، أسفله، رجرجة الحشد الذي لا يرى منه إلا الجماجم الكثة الشعر أو الصلعاء، أقواس الدوار وقد أفسحت المجال لمشاهدة أجزاء رصيف، أنصاف قطار كما لو كانت قد قطعت بمفصلة ومناطق فراغ كثيف مجزأ. إن المرور من نقطة إلى أخرى لا يتم دون تردد، لا سيما وأن الحقيبة ثقيلة الوزن، وهو يتساءل ما إذا لم يكن يخالف القانون هنا أيضاً لأن الركاب الآخرين لا يحملون في اليد سوى محافظ، حقائب صغيرة أو شنطات، أو جريدة أو كتاب دون ذكر أولئك الذين لا يحملون شيئاً، وقد خشي أن يوقفه عون متجند ليراقب محتوى حقيبته، وربما يعد جردها، يحجزها منه، يحرر له محضراً ويطرده بكلمة واحدة: أمش! بنفس النبرة في الصوت، نفس القساوة في العينين وحتى طرف سبابة اليد اليمنى المرفوع في اعتداء

مشيراً إلى نقطة ما، كما فعلت الفتاة المجندة بالمترو التي أمرت بشيء في لغتها هي، وهو لا يدري ما إذا كانت غاضبة منه أو من أولئك الذين شتموه، بينما كان هو يحاول معرفة ما إذا كان قد بلغ محطة باستي، قد أغلق المرور نوعاً ما على أولئك الذين كانوا يريدون النزول مهما كانت الحال، فغضبوا لمثل هذا السبب التافه وراحوا يركلون بأرجلهم حقيبته دافعينها على الرصيف، قائلين: فهذا إذن؟ أبله، وسخ يا لها من جرأة، إلخ. ولكن لا شيء يفعل، فهذه الطبوغرافية الجوية تقلقه أشد القلق، وقد أضيفت إلى طبوغرافية الممرات، المدرجات الخرائط الجدارية (المترو الحافلات)، الأرصفة السكك، التي سبق لها أن كانت مذهلة رهيبة التعقيد، فما فتىء يحذرها، هو الذي ما زال يتوجب عليه معاناة هذا التعدد، هذا التضاعف في الفراغات المتراكم بعضها فوق بعض وإن لم تكن مكدسة، وقد انبجست من أي مكان، قياماً، توازياً، عمودياً، أفقياً فتتشابك الواحدة فوق الأخرى إلخ. واعتدت مرة أخرى على مجال بصره وكدرته بعمق إلى درجة أنه سيتعثر من جديد بجدران الفخ كفأر حجز في بناية متاهية.

ـ هم هناك يقولون، مع التظاهر باللعب، ما عدا إذا استولى عليهم الهلع، فيفزعون وفي خفية يستلون الزجاجات من مخابئها ويروحون يخمرون ليتحصنوا من الشر، الحنين وعذاب الضمير آه! الأبله، آه! الأبله، لم يكن يجب عليه أن يذهب أبعد من العاصمة، فقد كانت تلك فرصة فتحت

له ليزورها، فرصة فريدة آه! صحيح نعم، أنهم يعتمدون على سوء نية البيروقراطيين وتكالبهم في رفض منحه ما لا يحصى من التصريحات التي يحتاجها لمغادرة القطر، وقد اطمأنوا إلى جبنه الذي يكون قد اضطره إلى العودة عاجلاً إلى «الجبل»، وتأكدوا من ترددانه، وتيقنوا من أنه سيسرع بالرجوع، فيدق على الثانية صباحاً أبوابهم، ولا يمهلهم إلا مدة ترتيب الغليونات والزجاجات واصطناع وجوه متنسكين. وهو يعترف، في قهقهة جنونية، أنه أوقع بهم فعلاً، وأنه أخافهم بالتأكيد، وإن كان الأمر لا يتطلب منهم إخفاء زجاجاتهم لأن تنفساتهم كانت حامضة بما فيه الكفاية وإنما يمكنهم تعاطي الشراب لنسيان خوفهم أو الاحتفال بعودته. وقد طمأنهم إلى أنه لن يذهب يوشي بهم إلى السلطات أسفله، ولا إلى الأمام، ولا إلى المشايخ، ولا إلى غسال الموتى، غارزاً الأصابع في بطونهم النحيلة والرخوة وهم يحلفون بأغلظ الأيمان والأولياء والشعراء المفضلين لديهم أنهم لم يشربوا قطرة خمر أبداً منذ عودتهم، وبعضهم يشم تنفس بعض، ويقحم أنفه في فم الآخر، ثم يقولون: «آواه، أنت تحلم، أنت تعبان، لقد رأيت كثيراً من السفن والموانىء والرافعات والنوارس، لم تكن معتاداً، إنه الهواء البحري، تعال، استرح، تمدد هكذا واتركنا نكمل اللعبة...» ثم يقرأون البرقية ويعيدون قراءتها (وصلت سالماً معافى) وهم لا يصدقون عيونهم، مكررين المسكين يا لها من نهاية حزينة! إنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة غير

أنه ذو حيلة كبيرة ـ ولكن ليس هذه المرة. الأبله! الأبله! مكررين أنه كان يجب عليهم أن يأخذوا الخفايا بعين الاعتبار ويحسبوا حساباً أفضل لضربتهم، بدل أن يحكوا له قصة المترو الأزرق تلك والأخرى الساذجة التي وصل بها الأمر إلى أن تسحب بحركة مسرحية لزانية سابقة صوراً تظهر هيئة أمير يكون قد أنفق عليها في الماضي. لائمين أنفسهم لكونهم لفوا كثيراً حول رجال الردع بدل أن يتنبؤا أنه قد يقع لهم الانزلاق في المزاح، عند اقتراب العلاوات، مثلاً، أو منح النقاط الإدارية. مضيفين وهم يشربون، لكن من صدق أنه لن يخاف البحر، فهو لم يره، مع ذلك، أبداً! الساذج! يجب إخبار الإمام، لن يعود حياً، هذا، على الأقل، أكيد، لا شيء يقال في الأمر، لقد وقع في الفخ! من كان يصدق أنه سيلعب لنا مثل هذا الدور؟ سالقين أنفسهم حتى الموت، آكلين الحشيش المخلوط بالعسل، مغرقين حزنهم، ممررين البرقية لبعضهم بعض، قارئينها، معيدين قراءتها، مكررين: البائس! إنه لا يعلم ما ينتظره حتى وإن نجا هذه المرة، ما زال أمامه المعمل (بمقاصله التي تدور على أسطواناتها المسننة بالفولاذ الدائرة في الاتجاه المعاكس والهاصرة للمعدن، مسطحة وممددة، إياه في الحرارة الصاهرة التي تحول المناخير إلى جرح جاف أليم، مع ضجيج كتل الفولاذ المسحوقة يتطاير منها الشرر، أفرانه العالية تنهش الفحم الصناعي، تلك التي يجب تموينها بلا توان، آلاته المعقدة التي يجب التصدي

لها بسباق لا هوادة فيه، مكررين نفس الحركات، نفس الكلمات التي تقشر الرأس، رؤساؤه ذوو النبرة الشبيهة بنبرة الخونة الذين مروا إلى الجانب الآخر من الحاجز، ساعاته الجدارية المهووسة بالحساب، أجهزته الخاصة بتسجيل حضور العمال، معاكساته، أوساخه، أتعابه، معاناته، أمراضه، جرحاه وهم في خطر، موتاه، إلخ) حيث سيفقد جلده، هو المعتاد على الهواء الطلق، سينتهي إلى فقدان أصابعه، يديه، ذراعيه، ساقيه، جمجمته، رئتيه، أشلاء لحمه التي ستبقى مغلقة بأسطوانة أو ساعد: وإذا لم يعجبه هذا، يمكنه دائماً أن يجرب إحدى الورشات حيث سيكون له كامل التمتع بلعبة البهلوان الجاري على الحبال إلى أن يسقط ذات يوم من إحدى الرافعات، يداه المثلوجتان بالجليد، أمامه، وإن كانتا لا تجنبانه كسر العمود الفقري فوق الخرسانة التي رسها بنفسه أمس رغبة في الاتقان، في أن يعجب رئيس الورشة... سيعلمه ذلك أن يريد العمل الجيد، أن يستحق أجره بجدارة في بناء ديار للآخرين كي يحاذوه فيما بعد بالشارع أو في المتر، فيتجاهلونه، يحتقرونه، يضربونه، يغتالونه: على كل حال فمثله مثل الفأر ومهما يحكى أنه خرج منتصراً من المتاهة (وصلت سليماً معافى) فإنه لا يعلم ما ينتظره... هم وثقوا في بطء الإجراءات الإدارية، معتقدين أنه سرعان ما يسأم إذ لم يكن عليه أن يثبت وجوده فحسب، وإنما أن يثبت أيضاً وجود أمه، أبيه، جديه وأجداده الأولين! آه! الأبله! طريقة

واحدة للخروج من هذا ونسيان أنهم قتلة: تحويل سوء ضميرهم إلى سوء نية ولهذا زيادة كمية الكحول والحشيش بنسبٍ فاحشة كي تحصل القهقهة المجنونة إلى درجة القول في شهقة لا تقاوم: الشح فيه، سيعلمه هذا آخذنا مأخذ الجد، إنه ليس جديراً بنا حقاً!

ـ وهو يقول كلما مرّ أمام نفس الملصقة الإشهارية في ممرات محطة كونكورد أو سان لازار أو مادلين (عندنا بقيت الطبيعة طبيعية) التي تفتخر ببرتقال الناحية، «آه!» العسكر «كان يجب عليهم أن ينبئوني بشأن كل هذه المعابر، إذ الأكيد أني كنت سآتي معي بتميمة تحميني من الدوار، ولكن هنا إذن، لا شيء!» متهماً إياهم بالتخلي عنه تحت رحمة أية سقطة قاتلة، أي زلزال مغناطيسي أو أية كارثة معدنية، وفوق رأسه هدير قطار يمر عاجلاً متوجهاً إلى «لابورت دو لاشابيل» أو «لابورت دو سانت أوان» أو «لبون دو لوفالوا بيكون» أو نحو «لاميري ديسي» أو «لابورت دي ليلا» مرجرجاً الأقبية المغطاة بالزنجار في قطع مكدس بعضها فوق بعض والمربوطة بدعامات فولاذية تشد الصرح بهشاشة مثالية ـ وكي لا يفقد عزيمته راح يستمر في المشي كمسير متصلب ومرهق، وبالأخص، بحقيبة رهيبة الثقل إلا إذا كان التعب يزيد في انطباعه بأنها أكثر ثقلاً، ماراً بين الملصقات التي يطمئنه رسمها (برتقالات تفصيلها خارق بلونها وحبيبات قشرتها ومخمل بيضويتها)، كما لو كان قد فطن، على حين غرة إلى أنه لم

يغادر «الجبل» أبداً، وأنه لم يعبر البحر أبداً وأن كل هذا كابوس اختلقه «العسكر» القادرون على بعثهم فيه أحلامه ومسخه، استيلابه، إغرائه وحتى سحره من بعيد، بما أنهم يشتهرون بكونهم يملكون صفات خارقة الشفافية مما يمنع الآخرين من مهاجمتهم، أكثر من مدخراتهم أو تقاعدهم التي يزور مقدارها بالتأكيد لأغراض نفسية. بيد أن هناك هذه الكتابة الملعونة التي تنتشر على الملصقات، التي لا يفهم معناها وسرعان ما يعود للواقع، بلا انتقال، مع الممرات، الدهاليز، ملتقيات الطرق، المضايق، صخب الطوفان، إشعاع الضوء المتزايد الاعتداء كلما تراجع النهار وحتى وإن كان يصل بهشاشة من خلال بعض الأبواب التي تنفتح على الشوارع، فإنه يبقى قليل الأهمية أمام الإضاءة الاصطناعية التي لا تتوصل مع ذلك إلى أن تنير إنارة أفضل المغارة حيث يتحرك جميع هؤلاء الناس المبهوتين والضجرين الحزينين، الذين يحنون إلى الغابات الخضراء، الإضاءة الطبيعية، أشجار البرتقال (عندنا بقيت الطبيعة طبيعية) المورقة والسموات الظهيرية وهم يوشكون أن يتركوا أنفسهم تقف موقفاً تصالحياً مع هذا الميل لا لنزع الأقنعة فحسب وإنما للقضاء أيضاً على الأبعاد، الجري على العشب الكثيف، كل هذا بسبب تلك الملصقات التي يحلمون بشأنها مقدار ثانية ثم سرعان ما يتنبهون، فيستأنفون هذا السعي المعتدي ويعيدون على أوجههم تمرير هذه الطبقة من الطين التي كادت تتقشر، هم الحذرون من

الأخطاء الصرفية، والغرائب النحوية، بل المتذمرون من فكرة تجريد لغتهم من طبيعتها كما درست لهم في المدارس. إذن سرعان ما يعودون إلى تفكيرهم السليم الأسطوري، إلى جداولهم الزمنية المعبأة وتوقيتهم بالسكة، تاركين للآخرين مثل هذه التوافه (عندنا بقيت الطبيعة طبيعية) وقد راحوا يؤنبون ضميرهم على ترددهم لحظة أمام الميل للحلم مدة ما وتجاوز أنفسهم، والاندفاع إلى الفضاءات المحرمة، هم المعصورون الذين يخدش باطنهم هذا الشعور المتفشي بالذنب الذي يسحبونه أبداً، بمجرد رغبتهم في التخلص من الهياكل الرياضية، السرعة الميكانيكية، أدلة الهاتف، دفاتر العناوين واستعمال الزمن، وقد حاذوه هو وحقيبته وقصاصاته التي ملأت جيوبه وإن كان قد أحسن سحب أهمها، تلك التي خطت عليها صبية حروفاً جد واضحة وجيدة، وراح يحركها تحت أنوف المارة الحائرين قليلاً من جراء شلال اللوحات التي تدعو عبر مذاق البرتقال إلى عالم صحيح أنه أسطوري غير أنه يكاد يصير واقعاً لكثرة التكرارات المتقطعة المنبجسة يمنة ويسرة مغطية جدران الممرات وجدران المحطات مقحمة إياهم في يقظة شديدة تمكنهم من الإفلات من اليوتوبيا وإبقاء أقدامهم فوق الأرض والاستمرار في التقدم، شاحبين، غرباء ومعاندين عبر الأنفاق والمتاهات، دون أي أمل في الخروج منها يوماً، متعثرين بالإعوجاجات النحوية التي تثير منطقهم المرضاني (طبيعة طبيعية بالطبع أو طبيعة

بالطبع طبيعية أو) وفوق ذلك رائحة البرتقال تلك التي تنتهي إلى طبع ملابسهم وتضميخ فكرهم، (يا له من تبذير)، تلك التي يتصادع هو، ضمنها واقعاً في الفخ مقطوعاً إلى اثنين (واقعي خيالي) الحنين يعذبه، الدموع الباطنية تكاد تخترق أهدابه، مهاناً في فطنته الحدسية كلها، محركاً قصاصاته مبرزاً أكثر الأولى التي يكاد عنوانها يصبح غير قابل للقراءة، كما لو كانت الورقة، التي كتب عليها، ذات يوم لا ينسى، هناك، في الجبل، قد غطست في محلول فرمول، وعرق فتت الرموز مما لا يفرض الآن قراءة وإنما يفرض فكاً للرموز انطلاقاً من عناصر يجب تجميعها ببطء. وبمساعدة الذاكرة، فإن القارىء المحتمل سيتوصل إلى إيجاد الرسالة، إلا إذا كان مزوداً بملكة خيال أكثر فيضاناً، فيضيف، وانطلاقاً من ذلك يزور مطياتها أو كان قليل الموهبة في فك الرموز، فيبعث الغريب في اتجاه خاطىء حتى لا يفقد جأشه، لحياته أو تفخره، وفي هذه الحالة يقول في أعماقه، لا لأنهم يكتبون لغتنا بهذا الشكل السيء (الحشو النموذجي المسطر هنا على آلاف الملصقات عبر مجموع شبكة مترو المدينة، في الخارج، فوق الألواح التي تختفي وراءها (سمعاً وليس بصراً) الورشات ذات الصقالات المعقدة من خشب نخر، من عليها يسقط بلا صراخ، أجسام موشومة في العضلات والأصداغ (رسوم عابرة، إشارات رسائل غرامية أو فلسفية) وفي الصحف والمجلات الفاخرة المسحوبة بالأوفسيت على تبابين

تحتضن صدوراً معوجة أو حلمات سمينة، على لوحات مضيئة مرفوعة فوق ملتقيات طرق العواصم، إلخ) يجب أن نعطيهم انطباعاً بأننا عاجزون عن قراءة عنوان حتى ولو كان غير قابل للقراءة (سيروا قدماً، أمامكم، نعم ذاك هو، تابعوا! تابعوا!) حتى ولو كان مكتوباً على قصاصة مكرفسة ووسخة كلها...

ـ هكذا إذن، فحسب تقرير الطبيب الشرعي يكون قد اغتيل بضربات جنازير دراجات وطعنات خناجر وغيرها من الأجهزة الشبيهة الراضة، وأنتم تأتون لتسردوا لي حكايات حادث، فلم لا يكون الأمر انتحاراً ما دمتم تتساهلون في التنكر، فلا يتطلب الأمر سوى القول بأنه ضرب رأسه على الجدران حتى مات، لم لا؟ آه! أنتم الذين سقطتم على رأسكم نعم! مصاب بداء الصرع ماذا؟ مرض من هناك أليس كذلك؟ وتقرير الطبيب؟ إني أفترض أنكم ذهبتم إلى مصلحة الجنائز هذا ليس جميلاً ويصعب التمسك به، وبالخصوص لا تنسوا أن الأمر وقع في منطقتي إذن هنا، فمن قاموا بهذا ليسوا محظوظين إنهم لا يتخيلون من هو صاحب قضيتهم عبيط! مهووس! إني أعرف ما يقال خلف ظهري فلدي وشاتي على كل حال هناك وثيقة تنقص من الملف وهي هامة صورة إثر الحذاء الذي اكتشف قرب الجثة، المخبر متأكد أولاً: فهو مغطى بدم الضحية الجاف، ثانياً هو ليس أثر قدم الضحية إذن فهو أثر أحد القتلة إني أعترف إني أعترف أنه من الصعب معرفة لمن

هذا الحذاء غير أنه يمكن أن يقودنا إلى طريق هام هذا إذن يكفيني من كل هذه الشهادات البلهاء، اطردوا المتشرد (هو، يلح دائماً، كلما سئل: لكن أجل، لكن أجل، هذا أكيد وليس تنكيتاً لقد رأيته فعلاً ولاحظته جيداً وهو متوقف هكذا فاغر الفم أمام الدعاية، هكذا تسمى تلك الأشياء التي تشهر بالتبابين ورافعات النهود وغيرها من الملابس الرقيقة، العين مضاءة وهو ينظر إلى اللوحة وفوقها رجل يضع يده في فرج فتاة عارية، العينان كبيرتان كطبقين. إن ما أحكيه لكم ليس نكتاً، لقد رأيته فعلاً في محطة ليون إلا إذا كان ذلك في محطة أوسترليتز أنتم تعرفون كل هذا متشابه، إنه قطاعي...) إنه يخرف وهو ليس هنا سوى للبقاء في الدفء واحتساء القهوة التي تقدم له إنه يستشفى، أليس كذلك! غير أنه ليس قادراً على أن يرى أبعد من متر إنه قصير البصر وأنتم تعرفون ذلك جيداً لكن حكاية السيولة هذه تهمكم إذن عندها تتشبثون بها تحبسون متشردكم وتنشرون فرضية محاولة الاغتصاب أوه! إني لا أدافع عنهم إني أعرف أنه لا يوجد سوى هذا الذي يعتبر بالنسبة إليهم ولكني أريد أدلة على أنه وقعت فعلاً محاولة اغتصاب، ثم كان الدفاع الشرعي ولكن عندها لماذا هربوا؟ أين هم؟ ثم أنتم ترون فعلاً أنكم تتراوحون، تدورون مكانكم يوماً، انتحار، وآخر حالة دفاع شرعي وفيما بعد محاولة اغتصاب كلا! ولكن كونوا أكثر صرامة اعثروا لي على الصبية التي يكون قد اختلس النظر إليها بينما هي. أوجدوا لي الصورة

ضعف الأثر فيما بعد سنرى، أما العجوز فإنها لم تتزوج أبداً ولم يكن لها ولد قتل هناك أبداً إنها مسكينة مريضة بالعزلة فوجدت أخيراً انشغالاً يلائمها: أن تشهد أمام محافظ شرطة ثم أمام قاضي تحقيق ثم فيما بعد أمام محكمة، الانتصار، أليس كذلك! ليس لها أي قريب وهي وحدها تحكي لنفسها حكايات وتقنع ذاتها بأنها سافرت لقضاء شهر العسل وأنها فقدت ابناً بعد أن قطعت رصاصة شريان فخذه كلا! لكني أكرر لكم ذلك يجب عليكم التحقق من كل هذه التخريفات أما الآخر المفروض أنه ابن عمه يجب أن تحفظوه لي محبوساً هذا يصدمكم ولكنه ربما هو الشاهد الوحيد الجدي أوه! لا تذهبوا إلى الاعتقاد بأني أحبهم على الأخص كلا! كلا! لكن قطاعي، إنه مقدس! في الواقع، ألا يمكنكم أن تتعطروا بخفية أكثر؟

ـ وهو لا يصدق عينيه وقد راح يستنشق الهواء البارد للساعة العاشرة ليلاً، مسروراً لفكه الملزمة، لكونه لم يمت مختنقاً من جراء الروائح المنبعثة من أصول متعددة، يكاد يجري قدماً، مخفياً كل الأوراق الأخرى حيث لم يحتفظ سوى بتلك التي تحمل العنوان، وقد تأكد أنه وصل وأن الرهان نجح الآن وهو في الهواء الطلق، هازئاً بالآخرين حين تصلهم البرقية (وصلت سليماً معافى) متخيلاً ملامحهم المتقلصة، تنهداتهم الخانعة، حركاتهم المتواترة (وهم يتمارون البرقية من يد إلى يد، محللين مضمونها، مقلبينها على جميع الجهات قائلين لأنفسهم عظيم! لقد نجا

بأعجوبة لكنه ليس أبله من ذلك، النقد الذاتي ضروري ولكن بدون تأنيب! ليكن بخير! ولكن في أعماق أنفسهم، غاضبين عليه كل الغضب، حانقين لنجاحه بينما كانوا قد نشروا ادعوا في كل مكان أنه لن يذهب بعيداً وأنه إن ركب الباخرة حقاً، فإنهم متيقنون أن برقية تعلن موته ستصل الجبل في أقرب الآجال) وانفجاراتهم بالضحك التي كان قد اعتادها وهو يعلم أنها تخفي ضجراً، حرجاً صعوبة في التأقلم والحياة وسوء اندماج ـ بعد السنوات العديدة التي قضوها في الخارج ـ ما يزال يطبعهم فيغرقونه في خمرتهم اللذيذة المقطرة بصبر في خفاء عن المجتمع، مدة شهور، بحب، بمراءاة! وصلت سليماً معافى، لا داعي للتوقيع، سيعرفون من المرسل. سعيداً بعد هذا السفر عبر الجحيم التحت أرضي، الخطوط البيانية، الملصقات، الأضواء، السكك، القطارات، الأبواب الأتوماتيكية، الأجهزة الكهربائية، المدرجات الميكانيكية وبالخصوص لامبالاة الآخرين وهم يحاذونه، يحتقرونه، يطردونه، يكلمونه دون احترام، باستثناء البعض، (لاعب الفليبر، صاحب المطعم، الطالب، الفتاة: سلين؟ آلين؟ إلخ) الذين ساعدوه، أركبوه، نصحوه أولئك الذين يخلط وجوههم، ما عدا وجه الفتاة التي أخافته في البداية متسائلاً ما إذا لم تكن تسخر منه في هذا الوقت، وقد أخذت بيده، ضاحكة من حذره، تاركة على يده علامة يدها الواصمة المعطرة (أي عطر؟) والذي يضعه على حدة سعيداً لوجع بطنه من جراء ذلك، مقحماً

جسده في الخارج، نافذ الصبر، وقد تهيأ لأن يقوم بآخر جهد، حين رآهم يقبلون في صخب وضجيج فارتمى في أحضانهم، الورقة ممدودة في مسالمة سائلاً إياهم بعينيه وهم حانقون وسعداء بالفرصة، قائلين لقد مضى زمن طويل منذ لم نسلق أحداً بسرعة البرق يخرجون من تحت ملابسهم جنازير دراجات، وهم مرصعون بالجلد، المعدن المصقول اللامع بالأبيض في الليلة الباردة قطعاً إلا إذا كان ذلك انطباعاً ناجماً عن الحرارة المخزونة مدة نهار داخل المتاهة التي لم يصدق أنه سيخرج منها، يلمعون بألف نار تشع من مآزرهم الفوسفورية، متسكعين يذهبون في عبثهم إلى أبعد من المهرجات القديمات تحميهم من الضربات صدريات مرخية حساسين ناهقين، يلبسون أحذية جلدية تثز، مسعورين وهم يقولون إنه مضى زمن طويل منذ لم يجدوا أنفسهم أمام مثل هذه الفرصة، وقد سيطرت عليهم، ساعتها، رعدة شنجية، هم المدفوعون هكذا بسلطة الموت تلك التي تجذبهم إليه وهو يمد دائماً قصاصته دون أن يكشف، في غمرة فرحته، أنه كان يحاصره قتلة قرروا أن يمزقوه إرباً إرباً، بسرعة البرق، يقومون بتدوير آلاتهم المشحمة والمنظفة بحب، فتتذبذب في الفضاء بصخب، يبقى يدق السمع، بعد مدة طويلة، تقطعه كما يقال أصوات أجراس الأقواس المضجرة الطويلة، وقد أسعدهم هلعه المفاجيء لحظة وعى ما سيحصل له، فبقي هناك مندهشاً، يده مجمدة في امتدادها نحو وجوههم، وهي لا تزال

تمسك قصاصة الورق (التي كتبت، فوقها العنوان بطريقة مجهدة، بالتأكيد، صبية تسحقها عظمة مهمتها، إذ أنها كانت تأخذ كل شيء بجد إلى درجة أنه كان يقال عنها إنها كانت تشبه منذئذ الكبار بتدخلاتها، وحركاتها وشذوذها، وقد تجاوزتها، بالتأكيد، أهمية القضية، وهي تكتب، تحيط بها كامل الأسرة أو حتى العصابة أو حتى القبيلة، ماسكين تنفسهم أمام هذه الطلاسم المقلوبة التي تخطها الأخرى بدقة، الجبين يتصبب عرقاً واليد متصلبة، مع «العسكر» الثلاثة أو الأربعة الذين كانوا قد وصلوا ربما أخيراً، فراحوا يشاهدون بصمت وخبث العملية التي لا يتوقف عليها مصير المسافر فحسب وإنما مصير كل القبيلة التي لعبت ورقة شرفها ومعاشها برضاها عن هذا السفر المغامر نوعاً ما، وهم بائسون حين يفكرون أنهم سيتخلى أكثر فأكثر الآن عن خدماتهم ككتبة عموميين لأن هناك صبيات أصبحن اليوم، يعرفن القراءة والكتابة، حزينون أمام خبث سكان الجبل الذين شرعوا في إهمالهم صحيح أن ذلك لا يكاد يرى غير أنه سريع على الأقل، حاصرينهم في القبو الذي ما زال مع ذلك مركز شؤون مثمرة حيث تعد المؤامرات، تعقد الزواجات، تقرر الطلاقات، يحصل على جوازات الحق وجوازات المرور، تنظم الخمريات، تختفي العذارى، تسوق منتوجات التهريب وتجف مرتعات شحم الغنم على حبال تشابكها؛ وإن كانوا يبالغون في هذه القضية ويشوهونها كي ينسوا أنه من أمد بعيد، تهربوا، إذ

لم تكن لهم شجاعة كتابة العنوان المعروف وبذلك يرسلونه إلى موت أكيد كانوا يعطون مسبقاً جميع تفاصيله وقد تحولوا فجأة إلى سحرة مثلوجين يخلطون رمل الصحراء ورمل البحر حيث يقرؤون أخطر المصائب أكثر الزلازل تقتيلاً، أكثر مواسم الجفاف، طولاً، أكثر غزوات الجراد أذى، فراحوا ينظرون بوجه الشفقة إلى الصبية وهي تخط، دون أن تغفل ومضة فتنة تطير برشدهم، الرموز الشريرة المنمقة التي تقطع تنفس الأجداد الذين وفدوا جماعة ليحضروا هذه المناسبة اللامنتهية، وفي الخارج قبة السماء موضوعة بتوازن هش على القمة المتفحمة للجبل، الدجاجات تقاقي خشية هذا التحرك الاصطناعي تماماً، وقد راح يعتني به ـ عمداً وسراً ـ «العسكر» الغيورون من هذا السفر الذي لم يكونوا يصدقونه أو البائسون لفكرة هذا الفراق مع المتحدث الوديع الوحيد أو المتوجسون من الصدفة غير الملائمة للنجوم أو ببساطة تجاوزتهم الأحداث منذ أن راحت الصبيات) التي تظهر مادتها المتقطعة في عدة نقاط ما يشبه لطخات الزيت على ضوء مصابيح الشارع حيث انبجسوا مدججين بالحديد والفولاذ ليشوهوا ذاكرته إلى الأبد، ليكبتوا فرحته في أوردته المزرقة المهصورة بجنون فانفجرت بالأحمر ولوثت البلاط بسائل مريب ملتهب كحامض، راسماً فوقه ما يشبه الخطوط البيانية التي لا تخلو من علاقة بتلك التي بهرته خلال إقامته تحت الأرض.

ـ والصبية صاعقة: «ولكن أنت أحمق أو ما هذه

الحكاية؟ إني لا أرتدي الجوارب الداخلية أبداً! أبداً! وعلاوة على ذلك، فما نفعها؟ أنا لست مقرورة ولا أتحمل النيلون لأنه يتزلق لا سيما في المترو. من رآني؟ بالطبع لم يبق إلا هذا! إني لا أحبهم. صحيحة أني لا أعرف لماذا ولكني لا أحبهم. الزنوج ليسوا كذلك. إنهم جميلون! آلهة! أتعرفون جيمي هندريكس؟ أنتم مخطئون. لكن لم يبق إلا هذا! لا أحب أن ينظروا إلي خلسة. لست بقرة أنا ولا أرتدي الألبسة اللصوقة. أبداً. هذا يضايقني، خذ! يؤذيني! إني أملك ساقين جميلتين أنا ولست بحاجة لإخفائهما تحت جوربين أو لصوقين أو سراويل. لقد قضيت ساعة على الأقل في هذه المحطة لأن صديقي الصغير تأخر عن المجيء وعلاوة على ذلك، لم أنتظره. بعد ساعة ركبت المترو باتجاه «هافر ـ كومارتين» ولكن لماذا إذن كل هذه الأسئلة. إني لا أراهم حتى مجرد الرؤية، إنهم ليسوا حتى موجودين بالنسبة إلي. الزنوج، يختلفون. أتعرفون جيمي هندريكس؟ أنتم مخطئون، أنتم تعرفون. ولكن الآخرين، آه! هذا كلا! نظر إلي. يا له من أحمق! ولكن على أية حال لم أر شيئاً. إني لا أراهم. إني أشمهم! عندها أغير الرصيف. ولكن بصراحة لم أكن أرتدي جوارب داخلية ذلك اليوم. كنت أريد التأثير على صديقي الصغير. إنه مغر، أنتم تعرفون. إني أحمل صورته إذا أردتم. لا تدخلوه في كل هذا! ولكن هذا استجواب! ثم إني لا أعرف شيئاً عن هذا ربما كان هذا قد وقع يوماً آخر بما أن الفتاة التي

تتحدثون عنها كانت ترتدي جوارب. ولكنها ليست أوشاماً، إنها رسوم كالصور الملونة المنقولة التي تلصق على الجسد، تغسل بالصابون بعد دقيقة لا يبقى شيء. لا تدخلوه بالأخص في هذا. تكفيه مشاكله. على أية أجزاء من الجسد أنقل رسومي؟ إذن هنا تدغدغوني. لن أقول لكم ذلك إلا إذا ألححتم حقاً. أفهمتموني! كيف، لم تفهموا شيئاً؟ أنتم أحمق؟ فاجر. آه! ذاك هو. ولكن ما هذه الحكاية؟ ومع ذلك فليس من الممنوع ركوب المترو. وعلاوة على ذلك، فقد طلب مني مفتشكم أن أزعم بأني كنت ألبس يومها استثناء جوارب لكن هذا غير صحيح! حتى لقد قال لي أن أحكي لكم بأن الرجل نظر إلي. ياه! حتى مجرد فكرة... أنا، أنتم تعرفون، إني أشمهم. عندها، أغير الرصيف. لاحظوا لست. إني أحب الزنوج كثيراً. ولكن هم، الأمر يختلف بالنسبة إليهم. إلا إذا كانت فتاة أخرى. ليس هذا ما ينقص، الفتيات، في محطات المترو، أنتم تعرفون».

ـ وبمجرد ذهاب الفتاة، يروح يرمرم كلاماً ولكن السيل بلغ الزبى أنكم لا تريدون اعتبار تحذيراتي. أنتم مخطئون! لا تحكوا لي بأنها ابتدعت هذا، لقد أوعزتم به إليها، لقد أوعزتم به إليها! لكن ليس عملكم أن توعزوا، الأفضل لكم أن تجدوا لي بينات صلبة وليس خزعبلات سينمائية! آه! أنتم إذن ماذا تمسكون يا رب! لقد جفّ ريقي لكثرة ما حدثتكم وإني أضيع وقتي لقد تعودتم عادات سيئة كثيرة

هناك حان الوقت كي تتغيروا هنا قطاعي وعلاوة على ذلك فالفتاة ليست تلك التي وصفها الشهود؛ الأكيد أن الأمر يتعلق بفتاة أخرى ولكن يجب عليكم ألا تعثروا على أي شاهد كي تتظاهروا بالعمل. إن ما أريده لهم شهود حقيقيون وليسوا النشابين ولا الكذابين وبالخصوص لأدلة يا رب الأدلة! الأدلة (**الدليل: البرتقالة تنضج فوق غصن، وليس في مخزن الدليل: الطماطم تنبت في حدائق صغيرة وليس في معامل طماطم. الدليل: التمر ينضج على غصن نخلة تحت شمس الخريف، وليس في مشغل تكييف. عندنا الطبيعة**). هذا ما أريده آه! أكيد! عادات سيئة عاطفي آه! هذا أنتم، لا ذرة من الفكر العلمي للتنظيم البوليسي، لا شيء، اندفاعي! اعثروا لي على المذنب ثم سنرى في هذه الآونة أريد أن أعرف: الفضول العلمي! بهذا الصدد، فإن تقرير الطبيب الشرعي صارم هذا الرجل لم يكن أيسر أبداً والآن من يعلم لماذا كان يحمل حقيبته بيده اليسرى على مدى الزمن! ها هو تفصيل مثير: لماذا كان يحملها كذلك؟ لا تنسوا أنكم هنا في قطاع نموذجي أنتم جدد بالطبع ولكن ستعلموا سيقال لكم ذلك في كل مكان في تلك اللحظة ستفهمون أني لست لا أحمق ولا مهووس ولا مدلل الفن للفن أليس كذلك! وبعد فكل شيء ممكن ولكن يجب أن يحسن المرء التزوير! شيء شديد الدقة بلا خدوش أنتم سذج لأن زملاءكم الآخرين لا يحبونكم، نبرتكم، شعركم تمدهون، بدلاتكم الشبيهة ببدلات الأوباش الغجر ذات

الحرير المخطط، ولكني أنا أعترف أني أحس نحوكم بعاطفة ما. إنكم لا تصدقونني ولكنكم مخطئون هكذا لاحظوا أني لا أحب أيضاً أحذيتكم ولا رابطات عنقكم ولا حركاتكم ولا سيما عطركم ولكن فيكم شيء نادر في أيامنا هذه. أنتم شرطي حقيقي شرطي بشراسة شرطي بإمعائية، وهذا جنس يفقد غير أني غارق في التعاطف لقد عثر على أثر الحذاء. لقد أرسل إلي المخبر؛ إذن فهمتم إذا لم تنطلقوا قدماً سأضطر لأن أتحرك بسرعة كبيرة إذ هذا قطاعي هنا.

ـ وهذا، داخل المتاهة، تراكم الأصوات المختلفة التي يألفها أكثر فأكثر يجعله نافذ البصر ودون أن يعرف يروح يفككها، يفتتها ويبضعها دون أن يحتاج إلى تحديد موقعها أو الإحاطة بها ـ ضحكات النساء تصله من خلال ضباب كثيف عناصره الجنسية تأتي لتستضاف إلى هذه الميكانيكية البلورية المفولذة (نهود عارية طافرة لفتاة بلغت لتوها وجهها يقلد وجوه المدرسة الفلامندية أو يذكر بها، بالأنف الدقيق الطويل، الشفاه الشفافة قطعاً، الرموش الممحية تماماً، العيون الخجولة (ذات الخضر، الحياء) ذات الجفون المسدلة بثقل وبيضوية الأديم المرسوم بكمال لا بفضل دقة النمط وإنما بفضل تلاعب الظل والضوء المنظم بتحايل حسب خصائص صارمة، وتلاعب الألوان المنحدرة من نفس الصبغة المصفرة، فوقها نفس الفتاة المصورة هذه المرة في نفس الوضعية الأقرب بتفصيلين: أولاً نهداها

العاريان من قبل مضبوطان حالياً في رافعة نهود بيضاء أطرافها مزينة بطرز حلزوني، يتوسط طرفي رافعة النهدين وردة صغيرة من النيلون، ثم للنمط عينان مفتوحتان بالتأكيد نظراً لأنه لم يعد هناك ما يدعو للخجل بما أن عري النهدين مغطى الآن برافعة نهود تجعلهما أكثر ثخناً وأكثر نفوراً، حيث أن هيكلهما يبدو شديد الصلابة، فتى شاب عارٍ تماماً، في وضعية الوقوف، يدير ظهره للعدسة، يرى ظهره الأمرد الأملس وأليتيه المشعرتين، وكذا ساقاه اللتان يجعلك شعرها الخشن المسطح تتنبأ ببشرة مخملية، زوجان شابان يظهران في نافذة قديمة نوعاً ما يحيط بها شجيرة ورد أغصانها تمتد يمنة ويسرة، الشاب ذو الشعر الأشقر الطويل الخشن يقف عاري الجذع يلبس ثياباً بينما الفتاة القابعة على ركبتيها جنبه ترتدي فستاناً، ذراعاها حول خصره وسبابة يدها اليسرى موضوعة على فمها مومية إلى أنه يجب عدم إفشاء سر رائع وإن كان قليل الوضوح) التي تخترق صدغيه وإن سبق لهما أن عانيا منذ الصباح، تلك التي يخلطها باستمرار بهذه الصور الملصقة في كل مكان مضيفة للجو الندي المسخن فوق العادة مزيداً من الشبق الذي يشعر به المرء على مستوى الأصوات أكثر مما يشعر به على مستوى الصور التي تقطع رأسه بومضات خلفية خاطفة وإن كانت كثيفة الضوضاء البكماء التي تزداد بصدى الأقبية وحيث يجمعها بهذا التراكم من النقش الذي لا يفهم معناه وإن كان تعدده وفوضويته (شعارات، رسوم، رسائل،

رموز، توقيعات نصوص شعرية طويلة نوعاً ما، خربشات، إلخ) تذكره بأصوات العمق تلك الخاصة بالمترو، ذات الأصل الغامض نوعاً ما، هو ذا جردها (أصوات وقع أقدام، تذبذبات الهواء الحائم عبر الممرات بما يشبه مضيق اختناق، الهمهمة المنتظمة للمكانس في دفعها للنفايات، أصداء هدير القاطرات التي تبقى تسمع لمدة طويلة بعد مرورها، صرخات أطفال يبهرهم صدى أصواتهم نفسها، ضحكات عصبية لنساء تعرفن أنهن محط أنظاره، صفارات حادة تتحكم فيها شفاه علقية، أصوات متنافرة تنقلها مكبرات صوت خشنة المخارج، مناجاة سكارى عادوا من عالم بعيد، ضوضاء متشردات يقمعهن رؤساء المحطات، صرير غير متناسق لبوبيات دقيقة الدوران، إلخ) يسابق بعضها البعض وتتردد خلال المتاهة الخارقة كي تصله، وكذا الأصوات الأخرى الأكثر صماً، الأكثر حدة والأكثر تقطعاً. دقات الهاتف، صفارات رؤساء المحطات، الأصوات البكماء لأجهزة الحلويات، تصفيرات القاطرات وهي تنطلق عبر الشرد المعدني، الأصوات المهمهمة الممحاتية للعجلات المطاطية، فرقعة العجلات الحديدية، أصوات الآلات التي تصل من وراء العوازل (المطرقات الآلية، المقعرات، الخراقات الكهربائية).

ـ ثم هو وقد وصل إلى محطة «سان لازار» دون أن يعرف كثيراً عن كيفية وصوله، يتقدم عبر الممرات الشاغرة الآن وإن كانت ما تزال تغزوها الملصقات بعضها تغرض

برتقالاً، الأخرى طماطم، الأخرى أيضاً تعرض فلفلاً، إلخ. وهي ما تزال ملتصقة بأغصانها ينقطها الندى (الاصطناعي؟) الصباحي، وقد جمعت خمساً خمساً كحاملات الفأل الحسن البرتقالية، الحمراء، الخضراء، إلخ، في ترتيب متشابه تماماً (2، 2، 1، 22، 1)، وراحت تتكرر إلى ما لانهاية، حتى ليحسب المرء أن أحداً قد ألصق بعضها ببعض بخيط معدني كي يتقنها ويربط بذلك الرقم السحري 5 بالمنتوج المطلوب استهلاكه ويرمز إلى سعادات ضخمة، أحماض طازجة ووداعة غضة تماماً (عندنا بقيت الطبيعة طبيعية. الدليل: الطماطم تنبت في حدائق صغيرة، ولا تنبت في معامل طماطم) صورها تتصادم في رأسه وهي عرضة لهجوم ضياء الأصباح الجديدة ـ حتى وإن كانت تفوح من الصور الاصطناعية والترتيب التقني ـ وتجعل بدنه يقشعر، رغم المتاهة التي يصارعها، قبضة حقيبته المصنوعة من البلاستيك المقسى التي تدغم البشرة الميتة ليده اليسرى، قصاصاته الورقية التي تتعدد كلما تقدم في السير بحثاً عن عيون ودية أو ضاحكة أو على الأقل ليست بتلك البرودة التي تطبع عيون من تعود الآن ملاقاتهم، دون ذكر النساء وهن يحملن أنوثتهن النيلونية، معطرات، متبرجات مثل ترس تأتي رغباته المكبوتة تتكسر عليه وتفرقع نهائياً، في اللامبالاة التامة، طبعاً باستثناء الآخرين (الفتاة التي ساعدته على الوصول إلى هنا، دون أن تتحدث، مكتفية بالابتسام له والإيماء له بأنها

صديقته بضغطة من يدها طبعت يده بحرقة خفيفة العطر محدقة في عينيه مباشرة، ضاحكة ضحكة.. جنونية متواطئة آخذة بيده في صمت عبر المتاهة المذهلة، وقد تركت نهدها الأيسر ينسحق على مرفقه الأيمن فيسحبه هو بحكمة من الغواية المطردة، سيما وأن المارة الآخرين الغارقين في نهاية نهارهم وفي حساسيتهم كانوا يرمونه بنظرات شزراء، بيد أنها كانت هنا تسير بخطوات واسعة، ضاغطة جسدها على جسده كي لا تضيعه مزاحمة حشوداً بكاملها كانت أغرقتهما بضع ثوان، محرجة ميثولوجيا الجماهير التحت أرضية، مازحة لارتياعهم، متحرشة، الشفة غضة والنهدان ـ نافران، العينان وضاءتان والشعر أسود فاحم ـ لدهشته الكبيرة ـ مطاردة الفراغ تحت تأثير اندفاعها الذي لم يكن مطاطياً وإنما يكاد يكون مائياً، الفطنة مغرية، مع شيء من السلافية في الخدين والفلامانية في رفع الرأس يذكره بذاك الذي تتميز به الفتاة صاحبة رافعة النهود البيضاء (زبى؟)، طويلة، هيفاء، وقد راح يلامس البشرة المرداء المتوفزة كرادع زمن لعزلته، هو لغرقه في هذا الجو القبوي، حيث انبجست، دون سابق إنذار، فاهمة كل شيء في ومضة جلاء، ماحية الحركات العقيمة، مشرفة على العمليات بنفسها، وقد راحت تسحب في أثرها شعراً مخملياً غزيراً، نفحات بشرة استحمت بالليمون وانتجاعاً فطرياً كما لو كانت ـ على طريقتها ـ قد عبرت البلاد الصعبة ذات البحيرات الشاطئية اللامعة كالزجاج المصقول المعرض

للأشعة فوق الحمراء زوالاً في حصار ينعكس على معدن خلايا ملايين الإلكترونات، آخذة إياه هكذا حتى «سان لازار» محدقة طوال المسافة، (السكة رقم 12، 13,886 كلم) في عينيه بلا أية عاطفة قائلة في نفسها: «لو استمر ينظر إليَّ هكذا سأنتهي إلى السقوط في الغرام»، ثم في «سان لازار»، بقيت في القطار، أنزلته، شرحت له أن عليه أن ينزل بحركة دقيقة واضحة لم تكررها، اختفت خلف الأبواب التي انغلقت في طقة ميكانيكية قاطعة بذلك دائرة اللقاء، تاركة إياه للحشد المتعجلين في الرجوع إلى بيوتهم الأكل حسب توصيات اللوحات الإشهارية، مشاهدة برامج التلفزة، التي ترشدهم إليها الصحف الضخمة السحب، النعاس في تخوت متأرجحة والحلم بالاستيقاظ الصباحي الاندفاعي وبدقات الهاتف، العالم (عامل؟ طالب؟)، لاعب الفليبر، الكناسون الزنوج، رجل المدرج الميكانيكي، صاحب المطعم... الذين غادروه الآن. على شفا فقدان الأعصاب، فقدان النفس، فقدان الحياة، مشدوهاً شاحباً جائعاً وإن كان لا يتجرأ على فتح حقيبته كي يأخذ منها بعض الزاد مذرى عليه الزعفران والفلفل القوي جداً، خشية أن يتسبّب في تجمع، حتى وإن كانت الأرصفة، في هذه الآونة، أبعد ما تكون عن الزحمة وحتى إن كانت الممرات شاغرة تماماً، يتقدم متذكراً عراجين التمر المنفوخة بالضوء كما لو كانت ستتحرك تحت هبة الريح (وربما كان يتوهم أنها تتحرك) بينما هي متصلبة ميتة

بحيث لم تكن سوى انطباعات ضوء مثبتة على اللوحة الحساسة بالكولوديون نيترات الفضة وغيرها من المستحضرات الكيماوية التي تأكل اللوحة وتقضمها تدريجياً (الدليل: التمرة تنضج فوق عرجون النخلة في شمس الخريف، ولا تنضج في مشغل تكييف. عندنا، الطبيعة) ممكنة بذلك التمرة من الانبجاس ببطء شديد، شق طريقها في صرير شبقي (مثل مذاق نخاعي يكون في فم المرء) والانفجار في لونها البني الداكن الشفاف، وهو أشد جذباً في واقعها المصور مما تكون عليه في نخلة تمرق فوق سماء بطاقة بريدية زرقاء العجينة، تلوينها لا يسمح بالتنبؤ بنقاوة الهواء الجاف البارد للاشتاء الصحراوية الأقل فتوراً بكثير مما تجعلك تتنبأ به الملصقات الإشهارية، الدلائل السياحية، الأفلام المركزة على المناظر الطبيعية، الرسوم المنقولة، الباردة، القاطعة التي تعرض سرابات وغيرها من الشعارات الغارقة في القصد السيء.

ـ على شفا فقدان النَفَس وعلى شفا فقدان الأعصاب، مفرغاً، مجففاً، هلعاً من رائحة الأخرى التي طبعته، حيث سرعان ما اعتاد بشاشتها، والآن صار يائساً، تعباً، محموماً، منهوكاً من الإصرار، رديء الحلاقة، دون أن يستيقظ جيداً من حلمه وهو يرمي بسرعة مذهلة في الواقع الذي ما فتيء لا يطاق، وقد تخلى عنه دليله ذو الهيجان الذي لا يغتفر، منطلقاً في حمية، يحاصره خيال الصور الإشهارية التي تعرض فواكه وخضراً يعرفها إلى درجة أنه

يشعر أنه يكتشف الرائحة المختلطة بنفس الأخرى، الأجنبية اللامبالية الجريئة المحمية ببشرة متماسكة وعضلات ملساء، لامبالية، بردود فعل الآخرين، وقد ذهبت الساعة، اختفت، ابتلعها الموج البشري الذي شرع يتضخم، يتسم بالاحتشاد، متخلية عنه هنا، كسيحاً، حالماً، مستنشقاً الهواء كي يتأكد فعلاً من واقع جميع هذه العطور التي تختلط في رأسه، تطبع بشرته كدغمة مؤلمة لا تمحى، يشعر بأنه لن يتملك من التخلص منها عما قريب (مسك، إكليل الجبل المعطر، روائح حمام عمومي، رائحة برتقال، تمر ومشمش، الرائحة الحامضة لشحم الغنم وهو يجف على حبال متشابكة، روائح نتنة تنبعث من الجو التحت أرضي وخاصة عطرها هي، المحرق الذي توقده الذكرى بجنون، ينفخ كامل جسده) تلك التي تجمده على مقعد، تعباً محموماً ينهكه الإصرار، الحلم الخاطف المتعب يحثل في جمجمته فلم يعد يعرف أين يتجه، غارقاً في أوراقه تثقله حقيبته، التقصير القدري والمهزلي في نفس الوقت لرحلته التي لا تنتهي، وقد أصابته الوداعة في أسحق أعماق جسده المتعب، على شفا الإغماء، ناظراً إلى الأحياء والأشياء يتقلصون في غمز بالتنسيق مع الأضواء التي ما فتئت تضعف، الهوس والسلب يتغلبان عليه، إلى درجة أنه تيقن فجأة، اقتنع أنه لن يذهب بعيداً في هذا الفخ العبثي حيث رماه «العسكر» الذين راح يسمع ضحكاتهم الهمجية يضخمها الصدى من خلال ضجيج جنوني، جوهره

الطبوغرافي أشد رهبة مع سطور المخطط الصعب تماماً وهي تتلوى عبر تعرجات تعطي لذاكرته رغبات في تقيؤ فائض الإحساسات التي عاشها منذ يومين أو ثلاثة أيام وهي تتكدس بعضها فوق بعض بما يشبه تلك الخطوط السوداء، الحمراء، الصفراء، الزرقاء، الخضراء، الحمراء من جديد، وإن كانت هذه المرة مرقونة بالأسود، ثم الزرقاء وإن كانت مرقونة بالأحمر، ثم الخضراء مرقونة بالأبيض بدوائر شاغرة داخلها ودوائر ذات مركز أسود ثم أرقام يستطيع قراءتها (10، 12، 7، 1، 2، 5، 13 إلخ). ثم أسماء بعضها كتب بحروف أثخن من الأخرى وإن كان المجموع قد رسم بحروف على شاكلة الحروف المقلوبة إلا إذا كان بخط من أزرق وأبيض بيانها الأثخن يصنع تشابكاً كذراع بحر يقطع الصورة إلى قسمين متساويين أو ربما غير متساويين تماماً، القسم السفلي أصغر من القسم العلوي وهو لا يعرف أين هو الشمال من الجنوب وأين هو الشرق من الغرب، وبتشابك الخطوط يحيط تسطير بالنقاط كما لو كان يجسد أحد الحدود المخزية المنجزة على عجل، في قليل من الخلسة، خلال ليلة ماطرة، كي يوضع أولئك الذين يوجدون وراء التسطير أمام الأمر الواقع، يضاف فيما وراء خط الحدود لون يختلف عن اللون (الأبيض) الذي تجري فوقه الخطوط المختلفة ذات الألوان المتنوعة نوع من الأصفر مطبوع بنقاط حمراء صغيرة جداً تكاد تكون غير مرئية فلا تعطي، أساساً اللون

الرئيسي للأصفر مخربشة، كما يقال محيط الخط المنقط الذي يصنع دائرة غير كاملة (حتى بزيادات، عقد، معينات ومربعات تسطيرها سرعان ما يعود ليلتحق بمنحنى الدائرة الأولى) فائضة هنا وهناك، غائرة أحياناً، متعنتة مع ذلك في احترام حد أدنى من الدائرية حتى وإن كانت هشة... مع ذلك الاختلاف، كونها في الذاكرة، تكون أكثر أساسية، أكثر تقلصاً حول نفسها بتجاوزات، تكتفي، بدل التوجه للبحث في أشكال أخرى (مربعات، مستطيلات، معينات، إلخ) عن الانطواءات الضرورية لعيشها وتوالدها الأبدي، تكتفي بتكديس الدوائر المتراكزة جمعها في هشاشة داخلية لا تفقد بالضرورة طراوتها غير أنها تبطل كل أمل في العثور على مركز مثل هذا التوسع الملكي الذي لا يعبر سوى عن درجة التقعر الضروري لتوازنه الخاص وسعادته الخاصة لكن التطابق حقيقي بهذه الشبكة من الخطوط المتقاطع بعضها ببعض، وهي تتوقف هنا حيث لا ينتظر المرء ذلك منها إلا قليلاً، تتقاطع ضاربة عرض الحائط بجميع القوانين الهندسية، تتجاوز، تتفرع، تتضاعف، تنقلص بما يشبه قليلاً طريقة الذاكرة المستعدة دوماً للانطلاق وإن كانت مستعدة أيضاً لأن تعود تتقلص بالتواء في عمق الأشياء، الأدوات، الأحاسيس، مشكلة هي الأخرى، شبكة تقطع في جميع الاتجاهات تعرجات الزمن، متجننة، متحاجزة، طاغية ولو من خلال الحلجة أو انعكاس أو انهيار جد قصير في ذهاب وإياب، متقطعة

ومتواترة كنقطة ضوئية تقطع خطاً منحنياً في تردد يزيد صوت «البيب بيب» الصارخ من مأساويتها أو صلفها، حسب. وهو يتساءل إذا لم يكن قد سبق له أن عاش هذا الوضع الكابوسي مخلطاً بين طبوغرافيا القضاء وطبوغرافيا الذاكرة، بل أنه لا يميز بينهما وإنما يمزجهما عبر شيء غريب، سرعان ما يسميه الرائي دون روية: اعتلال الذاكرة، وإن كان ينفلت من المسافر النصف مدوخ، وقد جففه وأرعبه عطر الأنثى الذي يطبع جسده، ملابسه، حقيبته وحتى جو المغارة التي ما زال يتخبط داخلها، متسائلاً عما إذا لم يسبق له أن عاش هذا.

ـ بما يشبه قليلاً طريقة المتشرد المصر على القول: «لكن أجل لكن أجل هذا مؤكد وليس نكثاً. فلست كذاباً لأن رائحتي كريهة. لقد رأيته في محطة «جار دوليون» وقد كانت له حقيبة ضخمة محشوة إلى درجة أنني قلت في نفسي: «ها هو واحد يكون قد سرق مال بنك إنجلترا» وهذا أضحكني، الشيء الذي نادراً ما يحدث لي، إني من النوع الحزين، أنتم ترون، إن الناس قساة ظالمون إنكم لا تستطيعون تخيل ذلك. ولكن أنا لا أعرف شيئاً عن القضية، لقد قلت بنك إنجلترا كما لو كنت سأقول بنك فرنسا ـ كانت فكرة طائشة وبعد، في «جار دوليون» أقول لكم ـ يجب أن تصدقوني لا حاجة لي في اختراع القصص» بينما هو يقضي حياته فوق مقاعد المترو، كان قد رأى من هناك وصول مهاجرين بحقائب ضخمة محشوة لحد

الانفجار، يطبعهم ذلك السعي الخاص بالفلاحين وهم ينظرون عبر الفضاء كما لو كانوا مصابين بالدوار وسط تلك الممرات التي تمتد قدماً، إلى ما لانهاية، على مدى كيلومترات (200 كلم في المجموع) أو كما لو كان يخنقهم ضيق الأمكنة بينما هم متعودون على الفضاء الفسيح ـ وهو يخلط بينهم كسكير رأسه مملوء بالتأنيب والزلازل، لا سيما وأنه قبيح السكر، محشو بالتناقضات، مؤرق وثرثار يتناجى على مقعده، بدل أن يرقد، العين مسلطة دوماً على المخارج، مقصورات رؤساء المحطات، الدوائر المغلقة للتلفزات المعلقة فوق الأرصفة التي لا تتوقف عن مراقبته بعيونها الإلكترونية الجامحة النظرة، وهو متهيء للهروب عند أقل إنذار بالخطر، يقظاً دوماً رغم خمول عقلي واضح، ينظر إليهم كل يوم يمرون ويعيدون المرور أمامه، الأيدي مثقلة بالحقائب، الشنطات محمولة معلقة على الأجناب الأكتاف والظهور، قصاصة الورق السحرية مضغوطة بين السبابة والإبهام وحتى بين الأسنان أحياناً، آتين من بلاد مختلفة يتعرفون على بعضهم بعض غير أنهم يتجنبون النظر إلى بعضهم بعض، وقد مست كرامتهم وجرحت أعماقهم، يتلافون نظرات الآخرين، فيسقطون بين أيدي من يفترض أنهم أصحاب توظيف يقتنصونهم على مشارف محطات القطار ومواقف المترو كي يحتالوا عليهم، بملء رؤوسهم بأجور خيالية وشروط حياة مترفة، عاكسين أمامهم الحياة المضطربة لعاصمة المدن، ناهبين ما عندهم،

مفاجئينهم، عاصرينهم... فيخلط بين أولئك الذين رآهم أمس وبين أولئك الذين رآهم في ذات اليوم، وهو غارق في بحر حلمه اللامنتهي، يموت كما يتوقع في سحاب كحولي مهادن أو في حركية مهذبة قاتلة منبعثة من جسده النتن الناتىء العظام المخترق بهوائيات مسلطة أبداً على المخارج والمقصورات الزجاجية من حيث تصله أصوات تهمهم في الهاتف أجوبة أو أسئلة يعرفها عن ظهر قلب، مستعداً للاختفاء دون ترك شيء عدا رائحته وهو ما يزال يصر على القول: «ولكن أجل ولكن أجل هذا مؤكد. ليست نكتاً. فليس لأن رائحتي كريهة أني» بينما كان قد رأى آخر يمر بمحطة ليون صحيح أنه كان يشبهه ـ ولكنهم يتشابهون جميعاً ـ مع اختلاف بسيط كون هذا يحمل حقيبتين ويمسك قصاصته بين الأسنان، إذ أن المسافر وصل بالفعل من مارسيليا عن طريق أوسترليتز بدل أن يصل كالعادة عن طريق محطة ليون لأن القطار كان قد حول عن اتجاهه المعتاد ووجه إلى آخر، بسبب تضخم المرور، وهو شيء يجري خلال هذه الفترة من السنة (بدايات العطلة أم العودة منها؟) حيث يمكن للقطارات الإضافية التي تأتي من الجنوب أن تصل إلى محطة الشمال أو إلى محطة الشرق أو إلى محطة أوسترليتز وهلم جرا من خلال مئات المناورات الممكنة بينما ليست هناك سوى ست محطات أو سبع غير أن مناورها كبيرة إلى ما لا نهاية ـ مؤكداً: «ولكن أجل، ولكن أجل» بينما كان أمام الآخر، مكتوباً في

تقرير، حل اللغز الذي حيّره أيما حيرة، محاولاً بذلك البقاء في الدفء أطول مدة ممكنة، حالفاً بأغلظ الأيمان أنه صادق إلا إذا كان ببساطة، معتل الذاكرة على طريقة المسافر الذي أنهكه تشابك الخطوط المتداخلة مما يصيبه بصداع بشع، لا سيما وأن سلين (ألين؟) وهي تمر كنيزك في نهاره المرهق، قد تركت خلفها هذه الرائحة الأنثوية التي تضمخه حتى النخاع وتفجر في أذنيه تفرقعات مهولة.

ـ محدثاً نفسه، وقد حاصرته عزلته التي لا تطاق، سيما وأن سلين (ألين) كانت لبضع دقائق، قد أرجعت إليه الثقة ببشاشتها: «كان عليهم أن ينذروني، فيصفوا لي الأشياء بصراحة بدل أن يغالطوني، يرسلوني إلى هذا الجحيم حيث لا أعرف أبداً أين أتجه، مع كل هؤلاء الناس الذين يدوسون قدمي ويتجاهلونني آه! «العسكر» كان عليهم أن يعلموني بعادات البلد عوض أن يقولوا إن عليّ ألا أعتاد تذوق المترو. وقد تذكر إصرارهم على الغش في لعب الدومينو أو الضامة عنوة بكل بداهة، إدعاءاتهم التي تجاوزت شهرتها الجبل حتى مشارف الحدين (الشرقي والغربي) أحاديثهم الرمزية التي توصل، شيئاً فشيئاً، إلى اكتشافها، لكثرة ملازمتهم مما كان يجبرهم على ابتداع أخرى أكثر تعقيداً وأكثر لامرئية لم يتمكن من فكها أبداً، تلك التي من خلالها، كانوا يبدون ـ كلما جاء يخبرهم بتحضيرات السفر ويفرغهم من نصائحهم ـ حذرهم الكبير تجاه البلد الذي كان يزمع الهجرة إليه، ساخرين منه، في

لغتهم دائماً، هم المبتدعون الذين ما فتئوا يحسنونها مع مرور الزمن، المواسم التي تلتف حول الجبل (ثلج، ضباب مربع السماء الزرقاء، دائرية الشمس، إلخ) والأوهام التي تضيع (التكوين السياسي للجماهير، نشر الأفكار المناهضة للدين، التعليم الحرفي للتناقض، إلخ) كل يوم، أكثر قليلاً، معرفة إياهم أكثر في عزلتهم التي بقيت بلا روية أحادية التصور حتى لا يفقدوا ماء وجوههم، أمام الأتباع النادرين الذين ما زالوا يلازمونهم دون حماس كبير بسبب مصلحة (الشراب والتدخين مجاناً، اختلاس أخبار عن أسفار متوقعة، سماع قراءة الصحف التي تصل بتأخير هائل، الحصول على وصفات سحرية لمعالجة أحزان الحب، صداع الرأس، داء الحفر، والبواسير، وبالخصوص! نيل جوازات حق الحصول على إعانة مالية من الدولة في إطار التنمية الفلاحية، تبادل أفكار تقية مقابل مجلات جنسية مستوردة من الدانمارك بالتهريب تصل بسرعة خارقة رغم القوانين القامعة جداً في هذا الصدد، الهروب من الزوجات المشاكسات، إلخ) حمقاء وأنانية، الشيء الذي يجرحهم بعمق، وهكذا ينتبهون إلى أن الزمن يتجاوزهم بلا هوادة، سيما وأنهم الآن عرضة للتأنيب الذي يهاجمهم ليلاً نهاراً لعدم امتلاكهم الشجاعة الكافية للذهاب إلى مكة لتهريب الذهب بينما يجتهد بعض السذج ـ فلاحو الجبل، مثلاً ـ في إصابة أنفسهم برعدات حول قبر النبي، وهم يوبخون أنفسهم لكونهم لم يغتنموا الفرصة كي يثروا

ثراء كبيراً وهكذا يتمكنون من الاستمرار في تضليل أتباعهم بهبات لا تصدق وتلقينهم بعض مبادىء الاقتصاد السياسي بوسائل سمعية بصرية محسنة أكثر قليلاً من جهازهم 16مم من طراز «باتي» أو «كوداك» أو «بال و» منظمين خمريات مخزية الظرافة حيث يمكن لجميع سكان الجبل أن يرتادوها للتعلم، دعم معلوماتهم، تعميق معارفهم الخمرية في الحياة المعاصرة.

ـ وهم يقولون إذن بلغتهم السرية: لما كان لا يصدقنا أبداً، الأفضل أن نقول له عكس ما نفكر فيه، وبذلك سينتهي إلى الفهم بأن المرء لا يذهب إلى هناك دون خدش وأنه يجري خطر فقدان شيء ما (**الطماطم التي توضع في الفرن تجري خطر**). مهما تكون الاحتياطات التي يمكن أن يتخذها حذراً (تميمة، إصرار، سوء نية، سلبية، برودة، طلسمات، إلخ). كي ينجو من المصائب، إذن فالمرء يجري خطر فقدان شيء (ساقه، فضيلته، لغته، مولده، بشرته، إيمانه ـ هذا لا يحرجهم كثيراً ـ خلاياه، كبده، رئتيه وخصيتيه وغيرها). وهو، الأبله سيفقد بالتأكيد أكثر من الآخرين، ما عليك إلا أن ترى. إنه لا يفهم شيئاً ـ أرأيت كيف كان ينظر إلى الصورة فاغر الفم! الأبله إنه لا يفهم أننا هناك صرنا مجانين، وقد فضلوا العيش ـ رغم مواعظ الإمام بشأن الصبيات المغريات المحولات إلى بنات هوى في البيوت المغلقة، في غرف ضيقة قذرة، قصد تجنب الفنادق، التي لا تقل عنها قذارة غير أنها تخضع

لمراقبات الشرطة التي لا تنقطع، بمعاكسات، وشتائم وقمعات، بدل العيش في بيوت قصديرية بسقوفها المعدنية المتموجة المتشققة التي تقطر مطراً لا ينقطع كما لو كان بتعمد النزول غزارة أكبر وقوة أشد مما هو عليه بالأمكنة الأخرى، بالأحياء المترفة، مثلاً، أو حين الإقامة المحاصرة بالغاب والبحيرة، السراب يطفو غامضاً مرتجفاً، على ملصقات الإشهار (منزلكم الريفي ينتظركم، اذهبوا لتزوره بمجرد حلول نهاية هذا الأسبوع!)، بأكواخهم المغطاة بالورق المسفلتْ الذي يتحول إلى ورق تبغ بعد بضع ساعات من المطر الهاطل أو بضعة أيام من الرذاذ الذي لا ينتهي، سطوحها ما تنفك تنفصم مما يتطلب إرساءها بحجارة ضخمة حتى تدوم ليلة، زمن إنهاء الكوابيس واستئناف العمل، بأبوابها ونوافذها المربوطة بقطع خيوط أسلاك مساسيك غسيل، ورق لصوق، إلخ، بيوتهم مائلة كما لو كانت تقاوم، تعلن الحرب على الجميع غير أنها مفتوحة للريح، العواصف والزوابع، حبال غسيلهم البالي حتى النخاع الذي يجف للمخادعة بينما السماء تمطر وابلاً قطراته ضخمة مثل قطع مفككة لمعمل ما حيث ينحصر الحلم بلا هوادة لثلاث عشرة ساعة من الزمن، أطفالهم المصابون بالشلل الذين يتكركرون في الوحل الأسود، مجاري أوساخهم المخضرة العارية تتلوى عبر الأكواخ الصدئة الرطبة اللصوقة حيث يصطاد الصغار بواسطة علب السردين بعض فضلات التخمة التي تصل من

أحياء الآخرين، بتراكمهم، عددهم الفائض وحملهم الزائد حيث الأكواخ الضيقة تأوي في غرفة أو غرفتين عشرات الأشخاص وهم يئنون من الروماتزم شتاء، ويصلون ـ صيفاً ـ بنار الأشعة الشمسية التي تصل بأمواج حادة لا من السماء، وإنما من السقوف الأخرى المغطاة بالأوراق المرضوضة، الألواح المطاطية وقطع الميكا، إلخ، التي تذكي الحريق، بمجرد ازدياد شعاع شمسي معمية العيون، صانعة بثرات تحت الجفون التي أنهكتها الأشعة فوق الحمراء بينما في الخارج تخضع الأزقة الملتوية للصدمة المكهربة، للتموجات الرمادية، الذبذبات المعدنية والمطاردات المنحسة التي تجفف مناخير العجزة الملتصقين في تخاذل بمقاعدهم يعرضون للشمس نباتاتهم المزروعة خلسة في صفائح من الزنك (نعناع، حبق، قصبر، إلخ)، بحشود أشباحها مرعبين متذمرين نعسانين في الرابعة صباحاً، وهم يمضون في صفوف محتاطين كهنود «السيو» إلى تسجيل الحضور في المعمل والواقع في الطرف الآخر من العالم، سعالهم ينفجر في الأفواه القانية بأحمر الغوة البارز بسبب الالتواءات التي تحفر فوهات براكين في الرئات التي تقشطها كل عام ممرضات لامباليات بالاستغاثة الصارخة للأكواخ تقتلعها الذاكرة المنكسرة والجموحة في هذه الساعة، بروائحها كروائح الشاي المغشوش الجنجل لحامضي والوركية النتنة، وهي تختلط وسط مفترقات الطرق في ألواح صلبة ومؤلمة، بأطفالها المصابين بداء

الخنازير المغرقين خبثهم في متاهات الميثولوجيا التوفيقية بمشعوذيها ذوي الخصيات التي تتندى بمجرد أن يكون الجو أكثر فثوراً من العادة بساحبي الأوراق وأوراق التارو الذين يثقبون بحماقاتهم أذهان الجماهير التي تحن إلى ماضيها المتربصين ببعض الضحايا المغفلين قصد التخفيف عنهم من خيالاتهم ونقودهم التي جمعوها بصبر في الدخان الطاعوني للأفجار الباهتة، بمروضيها الجريئين الذين يروضون السلاحف، الحمام، اليعاسيب، البراغيث، إلخ، جاعلينها تقفز من فوق جدران الموت المشيدة، من الورق الشفاف بقضبانها العبثية المطلية بالمسك والحناء، ترضضها الطبوغرافيا المتوثبة وهي تبرز في جنون فضاءات لا يشك فيها تلتف حول قطع شعثاء مستقيمات هلالات، أقواس دوائر، أقطار، قوائم مقتحمة، بتجارها المختصين في بيع سيارات 404 القديمة ذات المحرك المزنجر وإن كان هيكلها براقاً، مبهراً وأملس في النوبات المعتدية حمراء كلون المجزرة أو صفراء متوحشة أو خضراء مفخمة، الأهلية القصوى ورمز الرخاء الأعلى في عيون أولئك الذين يستغلون عطلهم المدفوعة الأجر كي يصطادوا بفضل أشعة رادعات الصدمات الملمعة، بعض عذارى الجبل العمشات، بمزوريها المتكرشين الذين يصنعون بطاقات مزورة للهوية، جوازات سفر مزورة ورخصات إقامة مزورة لا تنفع لشيء إذ أن أي رئيس ورشة يتعرّف عليها حتى قبل أن تقدم له، بأثمتها المختفين وراء زجاجات الخمر الأحمر

قطعاً لدابر اللّه والبشر، غارقين في مناجاة مهادنة تطبخ أمعاءهم على نار التأنيب، بأنبيائها وهم يعلنون قيامات أخيرة، موالد مزيفة، وأقداراً مهلكة بكتبتها العموميين الذين يستنحون الفرص لكتابة روايات نهرية لأنهم يتقاضون حقهم بالسطر، بـ... وهم ما يزالون مستمرين في تحسين حيلهم في لعبة التمرير فإنهم يروحون يؤكدون بلغتهم المنحوتة الملفقة، على ضوء المصابيح البترولية التي تبصق دخاناً سميكاً: لن يتمكن أبداً من فهم شيء طوال حياته ولكنه لن يقوم بهذا السفر أبداً، آه! الأبله، إذا كان يعتقد أنه يستطيع الذهاب هكذا دون عقاب، دون خسائر، دون تعطيب، دون ثقب عظام، دون فقر دم، فإنه يخطىء خطأ فادحاً. كلا، ولكن! يا له من أبله إنه يعتقد أنه يلعب أفضل منا لعبة الدومينو أو الضامة إنه لا يعلم أننا نخسر عمداً حتى لا نهينه، حتى لا نترك له مجالاً للغيظ ومنعه من مقاطعة القبو، لأننا بحاجة إليه في هذه الفترة العصبية حيث ندر الزائرون فلو ذهب لن يكون لنا أتباع بهذا الوفاء في السعي بين حقل القمح والدكان، تاركاً زوجته التي لا تطاق وزمرة أطفاله الناهقين، البشعين المفترسين كي يجالسنا، يستفيد من معارفنا فوق العلمية ومن استراتيجيتنا التي لا مثيل لها في لعب الدومينو. ولكن ماذا يعتقد؟ إنه لم يسمع شيئاً أبداً عن المساكن القصديرية بالنسبة للأشخاص من صنفه، السذج مدى الحياة. كلا، ولكن! في الحقيقة، إنه ضعيف، إنه يأتي ليلتجىء إلينا غير أنه لا يتعلم شيئاً، يا له من

حمار مبردع! ونحن الآخرون نضيع وقتنا معه بدل أن نصطاد التارو الذي يحفر بعمق ألواح الشحم المنخور المسوس لأنها لم تحرك بوجهة الجنوب منذ أمد طويل. نضيع وقتنا بدل أن نعقد جلسات لشرح الإصلاح الزراعي لشعب الجبل. وهم في غمرة غيظهم سرعان ما يعودون لانشغالاتهم المفضلة: تجديد العالم وسط أريج التوابل فورة الببغاوات وغيرها من الحمائم اللواتي كانوا يحدثونها بلغة أخرى من ابتداعهم، ضرب من المورس مملوء بالفوارق، بالرقة وبربع النبرة، استقبال زوارهم علامة تجمعهم قصيدة منظومة ركبها جماعياً «العسكر» الثلاثة (أو الأربعة).

ـ لم يعلم أحد أبداً ما إذا كان بائع التوابل شريكاً متنكراً تحت أقنعة تجارية أو تاجراً يثق في الطرق الإشهارية الأكثر تقدماً فيستعملهم كجالبي زبائن ـ، الحذر من التفاؤل السائد بتلقين أتباعهم دروساً في النباهة القاطعة الخالية من كل تلفيق، ابتلاع حيرتهم المفتوحة على مستقبل الوطن مثل جرح حي يتعنت على عدم الاندمال، القيام بـ ... ـ وهو، يحدث نفسه، ثكلاً وأعمى، مسجوناً في مناجاة يائسة، ومع ذلك كان يمكنهم أن ينبهوني أن يكشفوا لي الحقيقة بدل أن يثنوا علي لاقراري الهجرة، بدل أن يشجعوني على الذهاب لكسب العيش وتعلم حرفة ـ أحد ابتداعاتهم أيضاً، حكاية الحرفة هذه ـ ذلك لأنهم يتحدثون في السياسة طوال اليوم، قابعين على بطانات، يحتسون

خمرهم في كؤوس شاي، لا يشعرون بالجفاف، التبرد، أمراض الزراعات، السماد، الري، البذور، أمراض القفر، عقم الديكة.. يتحدثون في السياسة، بدل أن يقولوا لي بصراحة ما الأمر. وقد راح يتقدم الآن عبر الأروقة التجارية (230 دكاناً) التي تقع في مفترقات الممرات عارضة أبواباً واجهات بتزيينات أكثر عنفاً هي الأخرى من تزيينات المحطات ذاتها مقدمة في فوضى، ملابس، فطائر، حلويات، أطعمة، خموراً، جرائد وكتباً (250 مكتبة).

ـ ملتقى الطرق، ككل يوم، يؤمه حشد من الناس يتظاهرون بشراء حاجتهم وبالبرهنة على أنهم يعيرون قليل اهتمام لما يجري داخل المتاهة المتنبأ به من خلال الرنات المتقطعة التي تحدثها كل كتلة تمر فوق رؤوس المشترين المزعومين، المختبئين وراء رفوف الملابس أو خلف جوع شديد مصطنع كي يمكنهم من الفتك بالكومات المعقدة للأطعمة، وبذلك ينسون أن الزحمة ستكون عما قريب غير محتملة والبعض قلقون بتفكيرهم بأنهم سيقتحمون عما قريب تلك الكتلة اللزجة التي لا شكل لها، إلى درجة أن المرء يرى فوق جباههم تظهر خطوط عميقة ومتوازية إن صح القول، مثل سكك داخلية تصدم المشترين المعرقلين في حساباتهم، كما لو كانوا غارقين في زلزال أحدثه انفجار خطوط أخرى، عمودية هذه المرة، والمسافر يخفض رأسه، يجره الحشد، رغم أن متاعه يحفظه كسد، سرعان ما يصدعه الهجمات المستمرة الزاحفة لغاشية غازية تنسج حوله نسيج المجهول اللامبالاة والسكوت. وهو يحدث

نفسه «ومع ذلك كان يجب عليهم! ومع ذلك كان يجب عليهم!» تائهاً ومعرقلاً لم يتوقف أبداً عن الهجرة خشية حيوات أخرى أكبر اتساعاً أمكنة أخرى حيث يحبطه الاختلاط وقد خضع الآن لحماقات الخصومة التي تنشله من أحلامه، عاقدة إياه للأبد، متعثراً شاحباً، الحسرة تملأ رأسه الذي تنبعث منه بوارق زرقاء وحمراء، الوشم في أقصى الحساسية، الروح مسحوقة، التنفس سميك والجسد يخترقه من جانب إلى آخر، الصمت المبطل للحشد الذي يحمل مكان العيون، قروحاً هائلة تصيبه هو، مثل لايزر (تضخيم النور بالإصدار المثير للأشعة) أشعته ستفرغه من جميع خلاياه، الواحدة تلو الأخرى، وقد أنهكت وتحطمت للأبد.

السكة 13

ملقى من لغز إلى لغز، يفاجئه العدد المتزايد للشباب الذين يرتدون الجلد الأسود اللامع، يعتمرون بخوذات حمراء ويضعون نظارات شمسية في دجى الليل وهم ينبجسون من كل صوب، أولئك ـ لإصابته بالدوران ـ الذين يبالغ بالتأكيد في عددهم، يضايقونه بينما هو يعود من نقمته فيفهم ـ من جديد ـ أنه ضل طريقه، فيروح يؤنب نفسه لارتمائه بين أيدي القتلة وعرضه قصاصته عليهم بعد أن فقد معنى الواقع في فورة ابتهاجه الذي يحز في أضلاعه، يغرقه، يفيض عليه كماء مشف، حجزه مدة طويلة، يتفصد في صدغيه وعلى طول شرايينه باعثاً فيه رغبة الصراخ فرحاً بعد هذا العبور اللامنتهي للمتاهات وهي تتوالى بتراكز الواحدة داخل الأخرى مخططها يؤدي إلى فكرة شديدة وواضحة. والعصابة تتقدم إليه، التنفس نتن تفوح منه رائحة البيرة الممتازة، الرؤية تعكرها المتعة السادية لمشاهدته يحاول التراجع دون أن يتخلى عن حقيبته المتزايدة اهتراء، الضحكة دهنية وهجينة تفجر صمت الليل

الذي يكاد ينتهي؛ الخنجر ذو الملزمة على شفا الخروج من الجيب، العيون غائرة باردة مبرقعة بالدم. كانوا يلوحون في مهارة لا تخطىء بسلاسلهم التي تخدر الفضاء وتصفعه في صفير معدني وبلوري، في نفس الوقت صداه الذي لا يكاد يسمع على الإطلاق يتردّد في الهواء، فإذا وصل أذنيه تضخم وانتفخ لينفجر في ألف ذبذبة تعطى لموته، حيث علم الآن أنه قريب، تلويناً قدرياً ومهزلياً في الوقت لأنه ما زال لم يسعده الزمن كي يتخلص من هيجانه، من ابتهاجه ومن هذا الاندفاع الحياتي الذي دفعه خارج المتاهة بانبجاس مذهل، بتره بحدة هذا الاعتداء حيث سرعان ما فهم معناه، إذ ليس بحاجة إلى أن يسمعهم يكررون أنه مضى زمن طويل منذ لم يسلقوا مهاجراً منمطاً كهذا، نموذجياً كهذا بحقيبته المملوءة سذاجات نتنة وجراثيم متوحشة، ومناشير ثائرة تهدد حضارتهم من أسسها. فرصة أن يروه يتقدم إليهم، الوجه يفيض بالفرح، عارضاً تحت أنوفهم قصاصة ورق أخرجها من بين عشرات القصاصات الأخرى منتظراً بهدوء أن يرشد إلى الشارع المذكور على الورقة، التي صارت ساعتها غير قابلة للقراءة تماماً، وقد تشطبت وتآكلت وطمسها العرق، بخار الماء والحرارة الدائمة للمصابيح والقناديل والأنابيب المضيئة، إلخ. وأمام هذه الطريقة في تعنيفه، إحاطته وبقلبة يد إخراج سلاسلهم وعصيهم وخناجرهم، أحس إحساساً قاتلاً، بالصخب الأصم يغرقه ويمنحه، بلا هوادة، للدود والصخر، اللذين

سيحفران ببطء، فوهات فضائية في تابوته المحروم لب الأرض الحامية للأجداد، وإن كانت تغزوه الآيات القرآنية التي يتلوها في عجلة إمام ما من المساكن القصديرية، يوقظ محرجاً في آخر لحظة من قيلولته المقدسة، هازئاً ومتبرماً حيث ستقتحم نبتة الجنطيانة الكثيفة ذات الأزهار الزرقاء المرة بشرته التي ماتت دون استغفار إلى أن ينفجر أو يتحذر في زحمة توليبها الجنوني الذي يدبّ فيه ألف لمعان ممعدن أمام طريقتهم في شمه والنظر إليه في ازدراء كان قد وعى بالحدس في فجوة مهولة من التجلي الحاسم المنبىء بالحشرجة التي تتفتح تحت خطواته المتعبة كجب بلا قاع في سقوط مجراه يملأه مرور قطارات ملتوية، أضواء غامزة، نواقيس حادة وملصقات إشهارية تكرر إلى ما لا نهاية الضحكة الجنونية لسلين (ألين؟) وهي تقوده بفتور عبر أنفاق صامتة، مصقولة وباردة ـ إنه وصل إلى نهاية كابوسه الذي سرعان ما انتهى ـ بضع ثوان وإن ظهرت له أطول من الساعات الاثنتي عشرة التي كان قد قضاها في أعماق المترو بحثاً عن مخرج كان مرهوناً على العموم وهم، يصفعون ذاكرته بضربات السلاسل، مزهقين روحه بطعنات خناجر يرفعونها ويهوون بها بسرعة مذهلة، بسعار يصقل أعصابهم نيئة، يغطونه بالجراح المنفرجة، الدغمات، الكدمات، الرضوض، ويروحون يمزحون بتقطيع بشرته حتى ينبجس العظم أبيض من الملح يقومون بإراقة الدم الغائر في صمت لا يشوبه سوى آهاتهم ببعض التقطعات الناشزة، كما

لو لم يكونوا القتلة (أيقظوا أحاسيسكم كجوليين! فالمرق هو). وإنما الضحايا الشعث الذين يثيرهم الدم، بينما هو، المسجون في صمت مرعب، يرى نفسه يموت بلا ألم، تتملكه تماماً فكرة أن عليه أن يبقى متصلباً أمام التخريب النهائي، أمام شفرة الخنجر اللامعة في الغبش، تلك التي لم يكن يرى منها سوى خط النزول كحباحب منفوخة، بالنور، جلية، وهلعة تخترق الفضاء المزرق المحمل فوق طاقته بالدوائر الملتوية لدخان سجائر الآخرين وتنفساتهم كجزارين يعيشون التاريخ القهقرى ويلعبون دور الفرسان الشجعان، المدافعين عن القيم البالية والأجناس السامية ـ بين الذراع المرفوعة عالياً جداً وبين الأرض حيث كان يرقد المنشق عن الجبل، وقد سبق له أن صار إسفنجياً ومخترقاً بألف انفراج تندفع عبره من خلال الحشرجة، كل الحسرة المتراكمة منذ أن ركب الباخرة، كانوا يتكالبون عليه كما كانوا قد تكالبوا على الآخرين، في كثير من النقاط بالقطر.

أحد عشر قتيلاً منذ 29 أوت

ـ نشرت ودادية الجزائريين بأوروبا قائمة بأسماء أحد عشر عاملاً مهاجراً اغتيلوا، حسب اعتقادها بعد «حوادث مرسيليا» وهم:

ـ السيد الحاج الوناس، 16 سنة، هوجم في 20 أوت، توفي في يوم 29 أوت (طلقات نارية سددت من سيارة).

ـ السيد عبد الوهاب دحمان، 21 عاماً، توفي في 29 أوت بمرسيليا متأثراً برضوض في جمجمته.

ـ السيد سعيد عون اللّه، 37 عاماً، قتل بالرصاص على أوتوروت الشمال لمرسيليا ليلة 25/ 26 أوت.

ـ السيد رشيد موقي، 26 عاماً، قتل بالرصاص في مرسيليا يوم 25 أوت.

ـ السيد حمو مباركي، 40 سنة، أب لخمسة أطفال، جرح في 26 أوت، توفي في 28 أوت بمستشفى لاكونسا بنسيون في مرسيليا.

ـ السيد سعيد غيلاس، 40 سنة، أب لسبعة أطفال،

هوجم في 29 أوت بسان أندريه (مرسيليا)، توفي غداة ذلك في مستشفى لاكونسيون.

- السيد بن صالة مكرناف، 39 سنة، أب لأربعة أطفال، عثر عليه مثخناً بالجراح الخطيرة، توفي في 2 سبتمبر بمرسيليا.
- السيد رابح موزالي، 30 سنة، قتل بالرصاص في 25 أوت في بيرو (فال دو مارن).
- السيد أحمد رزقي، 28 سنة، قتل ليلة 28/ 29 أوت برصاصة أصابت لب صدره أمام النادي الذي كان يقطنه في متز.
- السيد محمد بن براك، 43 سنة، أب لستة أطفال، عثر عليه مغرقاً في عمق نهر يوم 9 سبتمبر قرب موبوج.
- السيد سعيد زيار، 43 سنة، حبسته الشرطة يوم 15 سبتمبر بتور، عثر عليه ميتاً غداة ذلك اليوم، وقد استخلص طبيب استدعي لفحصه بعين المكان وفاة طبيعية.

- وهم من شدة افتتانهم بجبنهم ذاته وبالمشهد الفائض بألوان، وإيقاعات وأصوات، صحيح أنها خفية ومغمومة، غير أنها تضاعف استثارتهم المرضانية بشناعة الموت، فإنهم كانوا يبتهجون تحت تأثير الطعنات التي كانوا يوجهونها إلى أغض مكان في العنق، في ضجة الصدمة الباذخة التي كانت تفجر ألف تفجير غبن الغريب الذي ينهك عقله على شفا إصبع من الموت (وصلت - نقطة - سليماً - نقطة -

معافى ـ نقطة) لا سيما وأنه كان ـ لحظة شرعت أعضاؤه في التخاذل، لما لم يبق له شيء يخسره ـ معذباً بحكاية التوقيع تلك التي لم يتوصل إلى حسمها؛ هل يجب إضافته إلى النص أم لا؟ غير أنه لم يكن ليغفل «العسكر» وقد وعى فجأة معنى عباراتهم الغامضة، المنذرة أو الرمزية مباشرة، وندم لكونه يسبب تأنيباً سينتابهم ويطاردهم إلى آخر اللحظات. مرغماً إياهم على الغرق في هذيان لا ينتهي كي يحاولوا تجاوز شعورهم بالإثم الملتصق بجلدهم، ذلك الذي لن يتمكنوا أبداً من إغراقه، لا في الخمر ولا في الحشيش، ولا في خطبهم المعقدة ولا في تعاليقهم السياسية التهكمية أية صرخة تكفي لإيقاف التشنيع؟ كان عليهم أن يذهبوا حتى أقصى حقدهم وحركاتهم ـ ومضات مسجلة داخل قوس ينطلق من الجرح الأساسي إلى الجرح المفتوح في رائحة الغائط الذي يلوث آخر إحساس للضحية الذي لم يكن ميتاً تماماً وبدون حياة ولكنه كما لو كان متقززاً لشدة السادية والبشاعة وهي تطعن بهجته التي سرعان ما تقهقرت، ابتلعت، بالأسنان المكسورة، الدم المتدفق برشفات صغيرة في الفم والكيلوس وهو يصنع سواقي على شفا موته الثاني الذي وقع بعد الآخر، موته في المتاهة. هكذا تنفتح، مباشرة من ذاكرته المدمية، المتجمّدة في توتر أليم، فجوات شدها آخر الذكريات التي يذكر إيقاعها الشيطاني بأشرطة الأحداث وقد راح يعرضها الرفقاء الأربعة، ظهيرة كل يوم أحد حيث يضحك إسراعها

وصريرها وتقطعاتها وغيرها من التشطيبات الأطفال الذين يطردهم بلا رحمة منظمو تلك الملتقيات السينمائية العالية هم الذين ينفرون من كل شكل من أشكال الضجيج، الذكريات التي تفرز جوهرها الخاص المصبوغ بكل ألوان اللوحات الإشهارية وهي تدور حول المدلول المختفي قليلاً أو كثيراً لكل الصور وكل المواضيع معلنة عن البرتقال، رافعات النهود، الأطباق المطبوخة، المناظر الخلّابة، الياوورت، أحمر الشفاه، التخمور، المقلات، الألبسة اللصوقة، الطماطم، البيوت الريفية، الأجبان، الحاميات من الحيض، السباغيتي، الأوراق المطلية، الثلاجات، الأوراق المنظفة، مزيلات الروائح، المزينات، صبغات الأظافر، الطابخات، السمن النباتي، السيارات، إلخ. أما الشجعان، فقد استمروا في فعلهم الشنيع، العيون تحول متعة والأيدي ترتعد استثارة، كانوا يسبحون في الهذيان المهول الذي يفرز جنوناً خرافياً سياسياً، مناقشات مملة هاذرة، وقد أسعدتهم الفرصة الواقعة على رؤوسهم لحظة عادوا صفر الأيدي من جولة صيد الأجنبي، فقصدوا للنوم، فيلاتهم الفاخرة الأكثر جمالاً وراحة من تلك التي كان الميت قد رآها تتكرر حتى الجنون على آلاف الملصقات (**منزلكم الريفي ينتظركم. تعالوا لتزوروه بمجرد نهاية هذا الأسبوع!**) كابتين تثاؤباتهم مخفيين خيبتهم. وهو، فجأة، عند مخرج المترو المؤدي إلى شارع «بسيار» الخالي تماماً، السيء الإنارة، يجري نحوهم بابتهاج عميق عارضاً قصاصته

تحت أنوفهم، ملوحاً بيديه كي يفهم مثل أصحابكم انفلت من الليل مبتسماً لهم، ملحاً بود في إيماءات تمثيلية مركزة شرع يحسن تنظيمها بأقل ما يمكن من حركات.

كانوا يمددون الآن، التقديس الشيطاني في صحراء ضمائرهم، بلون الصدأ الدموي ويغرقون أيديهم في الجراح المفتوحة حيث كانت تغلي المصارين الملتهبة من شدة الحسرة المفجرة للموت المفاجيء منذ أن غادر «الجبل» تحت النظرات الشكاكة «للعسكر» الذين لم يكونوا يصدقون أرواحهم المقدسة، وقد عجزوا عن إصدار صوت نصيحة أو تذكير أخير، إذ أغرقهم الحزن، لعلمهم منذ البداية أنه لن ينصت إليهم أبداً، فخورين به في أعماقهم لأنه ملك الشجاعة كي يسافر ليعمل ويرسل النقود إلى عائلة كبيرة تتكوّن من الأجداد، الوالدين، الأطفال، الخالات، العمات، أبناء العم، الأخوات، إلخ. غير أنهم كانوا قلقين على مصيره، هم العالمون بكل الجرائم التي ترتكب هناك، لا سيما منذ بضعة أسابيع، وإن كانوا يضمرون ذلك حتى لا يروعوه ولا يخيفوا الآخرين الذين كان أبناؤهم وآباؤهم في نفس المكان من قبل، يذوون في أعماق المناجم، يحترقون أمام الأفران العليا ويكنسون براز الكلاب الألمانية القصيرة القوائم، وهم، يطاردونه وقد وعوا ما يحدث لهم بتأخير بضع ثوان، فاستولت عليهم سعادة غير منقطعة، التحقوا به، مزقوه ودخلوا حتى كوابيسه، وفي الوقت الذي أصابه في عرض الجبهة جرح على شكل نجمة دموية رجع

إلى اليقين وفهم تنبؤ أصدقائه لاعبي الدومينو المهرة، وإن كان يعلم، لأنه تجسس عليهم من ثقب القفل ذات مساء بينما كان الثلج يتساقط على الجبل؛ إنهم كانوا يمارسون لعبة أخرى خاصة بهم وحدهم فوق لوحة ضامة من خشب الإبنوس المصقول بملكات وملوك (الشيخ مات!) تلك اللعبة التي لم يكونوا يتحدثون عنها أبداً كما لو كانت سراً خطيراً جداً لم يكونوا يريدون إفشاءه كما لو أن حياة ملايين الناس كانت متصلة به، راحوا ينبجسون من كل صوب، يدفعونه لصق جدار، يفجرون رأسه على مسماته الموصدة (بزالت؟ خفان؟ كلس؟) ينظرون إلى انبجاس لطخات دم أحمر محبب على الجدار المطلي بالوسخ والرذاذ كفوهات ألقيت هناك صدفة في فوضى مظلمة لامرئية تذكر مرة أخرى بالتشابك الطبوغرافي لتصميم المترو الذي ينطلق عبر خطوط وتعرجات ودوائر ومستقيمات تتكسر في أي مكان، هنا، ثم هناك، في مرارة الأشكال وهي تصغر وتتمدد صوب عدم يتخيله المرء، إذن يفخمه بالأكاذيب، بالاستيهامات والفظاظة المنحرفة، نظراً لصلابة التسطير الغريب الذي يدور حول نفسه مثل (بوسوط الخيل) تعطل خياله، يطاردونه بلا هوادة، إلى أن وعى مصيبة الدم المسجلة قطعاً في قانونه الوراثي إن لم تكن مسجلة في قانون الآخرين الذين بقوا هناك، وقد أغشاهم عزمه، يحلمون بين كأس شاي (؟) وغليون، أنهم تلقوا برقية منه، بعد ساعات من مغادرته الجبل، يرافقه جميع السكان،

تتقدمهم راية الولي مخططة بالأخضر والأحمر، مع الأجداد المتذمرين المحتجين على مثل هذه المغامرة وهم يكركرون سيقانهم، في الخلف، متهمين «العسكر» بجميع المصائب المقبلة التي يمكن أن تصيب المسافر (وصلت سليماً معافى). وهو يدخل مأساة المنفى، فإنه يقتحم عالماً حيث كان بعض الناس المحتكين ببعض الأفكار السياسية النتنة يلعبون دور الجزارين بلا لوم كي يوضحوا أفضل توضيح الفارق بين بشرتهم وبشرته، وهم على شفا فقدان الوعي الغارق في الخمور المعقدة والموسيقى الصاخبة لبعض الجوقة المغطاة ببساط كاكي لتعويض فقدان صدمات الإمبراطوريات الخرافية للجمهورية الشيوعية المخضوضرة R.C.V والثقوب الخارقة للتاريخ المحجوز في مكان ما، لحد الساعة، التاريخ الذي استولى عليه بغتة مسار جدلي. بالطبع، فهم يحملون التقتيل من خلال عيونهم المحقونة بدم الأجنبي، سيلانه يصنع فجاجاً ويحضر بذلك خطوطاً غامضة غير أكيدة كما لو كانت القبيلة التي كان قد غادرها عند سفح الجبل، قد حدست حشرجته فراحت تحاول رغم التمزق أن تنساه لمعاقبته على تخليه عنها لأذى الانتجاع للإنطلاق بحثاً عنه في كل هذا التعقد من الأنفاق، الممرات، الأروقة، الآفاق، الأنهج، الشوارع، الأزقة، الزقاق والساحات التي تعطب الفضاء، تجزئه، تروضه، بخلق ضرب من الهندسة الخرقاء التي لم تعد تعرف سكر المساحات الشاسعة حيث تبحر أحلام رجال الجبال رغم

تكالب البرد وتكالب الجراد وتكالب الجراد هو الآخر الضرصار في جرة القيلولة (المقساة) بفعل الشمس الآن، وقد انتهى كل شيء، فإنهم ينطلقون، عندها تغمرهم البهجة، عبر المدينة الخالية، سلاسل الدراجات التي يحملونها تقطر فوق الإسفلت اللامع، لا يبالون بنظافة الشارع الذي كنسه منذ لحظات فريق زبالين يشبهون كل الشبه ذلك الذي فرغوا من قتله بعد مجزرة رهيبة، يبهرهم منحنى قطار الأحياء المعلق فوق رؤوسهم وقد أنير بوهج وراح يهدر عند كل مرور مندفع، وهم يحلمون بسباق خطير للسبب البسيط كون الطريق خالية تماماً.

كانت الأمانات تثقب ذاكرته ومع قطعه ممر ما، وهو لا يعلم لا أين كان ولا أين هو ذاهب، كان يشعر أنه مطارد حتى تحت أوردته المثلوجة المتثاقلة كما لو كان يسيل عبرها زيت بارد! فم مر، حزن طفولي ذاهلاً. مكفهراً. مجنوناً. لا يحس بومض المادة المبهرة التي تحفر ألواناً قرمزية في فورة سميكة من الإضاءة الاصطناعية مخمناً، متوجساً شراً، الكتف اليمنى دائماً أعلى من الكتف اليسرى، تقنبله ملايين الأمواج الإلكترومغناطيسية، تركز نارها على تلك الشبكة من الخطوط التي ينصبها في عرض الجبين تماماً، وهو في تيه مخرب كامل، فقد قرّر ألا يعود ليسأل عن شيء، إذ كان منذ ساعة، قد رتّب قصاصاته نهائياً وقد راوده الانتحار بلا وعي. ذاهلاً. منوماً. العينان مفتوحتان، هذه الطريقة في ادخار غضبه! معابر إلى ما

لانهاية تتلولب في الأثير السيء النقاوة. هياكل. غرابيل. هدير. جنون؟ من أعلى تبدو الحركات أكثر غرابة مثل خلاعة ـ تداخل الحشد. في جميع النواحي. الباعة يعرضون أكوام رابطات العنق، المناديل، القمصان، المآزر الهندية العيون على طرفي الممر تترصد بعض مراقبي الضرائب إذ قد يأتي يعرج حول هذه الكنوز الشاذة ثم سرعان ما يدرك فائدة قدميه لينقض عليهم، هم الذين يكونوا قد انطلقوا، صاعدين المدرجات، علبة ضخمة من الورق المقوى تحت الذراع وقد وجدوا متسعاً من الوقت للصراخ: «إلى المرة المقبلة!» تاركين الموظف في أتم الحرج، فلا يسعه إلا أن يأمر: «امشوا» محدقاً فيه، هو، ناظراً، بملامح مرتابة إلى حقيبته، دائراً حوله، متردداً قليلاً، قائلاً بالتأكيد لا شك أنه يحمل الحشيش أو صفائح بترول وبذلك يقوم بالانتقال بين الصحراء وممرات مترو المدينة، معيداً بيع خامه بثمن بخس باعثاً بذلك الفوضى في سياسة الطاقة للدولة فيستوقفه، يأخذه من الذراع، لا يقدم أية علامة هوية يلصقه بالجدار، ينتر له حقيبته من يديه، يضعها على الأرض، ينحني ليفتحها، يغرق في بوتقات الفلفل الأحمر، يشم البرنوس الضخم المنسوج من الصوف، المحلوجة سترة الجوخ... يرمي كل المحتوى، شيئاً فشيئاً، على الأرض، ينتقم منه لهروب البزاز المتجول، يهينه أمام عشرات المارة الفضوليين بل حتى لمروعين بالمهاجر الذي يحدقون فيه من بعيد باحتقار،

والتفتيش لا يدوم سوى مدة انفجار مروع، عند مرور قطار باتجاه المحطة القادمة (أوروبا، أو لياج أو ترينيتي أو هافر كومرتين أو مدلين) حسب الاتجاه الذي يأخذه (بون دو لوفلوا أو بلايال، أو بورت دو لاشابيل أو بوردي ليلا أو ميري ديسيه) إنه متعجب فلا يفهم بالأخص الأنظار المريبة للناس المارين أمامه الذين يلقون نظرة مراء على الموظف الغارق في انشغاله، يضجره الجلوس على قابعيه بسبب كرشه الضخمة، العرق يتصبب منه بقطرات كبيرة وهو يحتج مرمرماً، متقززاً من شم عصيات القرفة، مسامير القرنفل، عيدان الياسمين، الكمون، الجاوي، قريصات الفلفل الأسود، حبيبات سبحات جزيرة العرب، إلخ.

كانت الإهانات تثقب ذاكرته فلا يريد العودة إلى السؤال عن شيء منذ أن شتمه شخصان أو ثلاثة أشخاص نهروه واحتقروه، بينما كان يحاول أن يسألهم عن طريقه، والآن، إنه يلوم الأخرى، وقد صمم أن يمشي باستمرار إلى أن تتخاذل قواه، متسائلاً لماذا ـ وهي بتلك اللطافة ـ لم ترافقه حتى آخر محطة ينزل بها ثم تخيّل على حين غرة تأنيبات «العسكر» فسرعان ما تراجع، شاطباً لومه، كابتّ اتهاماته، لأن الآخرين كانوا سيقولون بالتأكيد: «وماذ أيضاً! إنك لا تريد مع ذلك أن تصبح جاريتك، ثم ليست هي وحدها التي تخلت عنك، هناك أيضاً لاعب الفليبر. ابن وطنك وبعض الآخرين الذين حاولوا أن».

لكن ذاكرته لم تكن تحتفظ بهذا فقط، صورة رضيع

سمين يجلس على قاعدة وهو يلعب بشريط من ورق الاستنجاء يفككه على كل طول الغرفة التي يجلس فيها، المفروشة هي ذاتها بزربية نقوشها ضئيلة الظهور، ألوانها زرقاء ورمادية ـ الرضيع المنتفخ الخدين يملك بشرة كما لو كانت مطلية بالوردي، شعره أشقر مفلفل، عيناه زرقاوان زرقة (باستال) ابتسامته متأدبة ويداه الصغيرتان مظهرتان. يرتدي صداراً أبيض مسطراً بالأزرق، يتوقف عند مستوى الإليتين السمينتين، الممتلئتين الغليظتين. القاعدة التي يجلس عليها لها أشكال ذات قوة هوائية وألوان (أبيض، كريم ووردي باهت) وديعة بالأحرى ـ كبة الورق التي يلعب بها ويفككها على طول الغرفة وردية وتذكر قسراً بلون بشرته كما لو كان لا ينبىء بوداعة الورق فحسب وإنما ينبىء، أيضاً بقوته ومتانته. في أقصى الغرفة الغارقة قليلاً في الظل، يكتشف المرء باباً نصف مفتوح على شيء لا نراه وإنما نتنبأ بأنه ممر، غير أن اللون الرمادي للباب والظل الذي يغرقه لا طائل وراءهما، اللهمَّ إلاّ تدعيم التوافق مع المشهد (الرضيع، القاعدة، الزربية وكبة الورق) الذي يغزوه ومض الأنوار الكاشفة، صحيح أنها لامرئية على الصورة ولكن المرء لا يسعه إلا أن يتخيلها لشدة عنف الضوء، لا سيما وأنه لا يوجد أي منبع إنارة (مصباح سقفي، قنديل قراءة، شمعدان، إلخ) ظاهر، إلا إذا كان ذلك الباب الموارب ينبىء ببساطة بأن أم الرضيع ليست بعيدة وأنها واثقة تمام الثقة في ذلك الورق إلى درجة أنها

قادرة على ترك رضيعها وحده تماماً، على قاعدته، يلعب بالكبة، يرميها عبر الغرفة، على شاكلة نثار وردي كثير ينتشر على الزربية ويقطعه إن صح القول بندبة سميكة لكنها متوبرة كما لو كانت مغطاة برغوة خفيفة ووردية تستر اصطناعياً صفحة الورق كما لو كانت قد وضعت عليها بعد الصناعة بمدة، بواسطة جهاز دقيق (مسدس، راش، إلخ). الكل مغطى بنقطة مكبرة بالعدسة تفرقها يخلق نوعاً من علم التشكل الغامض فيحاول إبرازه بربط كل بذرة بأخرى بواسطة قلم لبد، وبذلك يبدع رسم ملموس ودقيق مثل شفيفة وردية بلورية تتناغم مع النقوش الهوائية للزربية المصوفة ذات الألوان المحتشمة الزرقاء والرمادية. ولكن أساساً، كل المشهد يسبح في جو وديع، لطيف بل واثق كما لو كان ذلك ليخفف جانبه البرازي الملوث الذي يمكن أن يصدم الأذهان السيئة النيئة ـ كل شيء معد لإنساء التغوط، الروائح الكريهة، الأصيص ذا الأطراف المنتفخة، فظاظة الشيء ولتركيز الانتباه على ورق الاستنجاء الذي ينتشر عبر الغرفة كلها ويوشمها باللون الوردي المتوبر والمنفوش أولاً، الرضيع ذاته، رائع، مظهر، ضاحك ومبتهج، فسرعان ما يمتص الحرج الذي يمكن أن يعانيه المارة وهم يرون سريرتهم الأكثر بغضاً وخزياً تعرض هكذا على مسمع ومرأى الجميع ثم أن شكل الأصيص ولونه يسمحان بجعل هذا الوعاء الذي قد تؤدي مجرد رؤيته إلى الشعور بالقيء، أداة فنية بفضل لعبة الأضواء وصنعه

المحدث قطعاً ولونه الرائع السمات التي تنسى استعماله وما يؤول إليه، ويمكن أن تذكر ببعض اللوحات التكعيبية (شمعدان، أصيص وغلاية مملطة، مثلاً) المعلقة في متاحف العالم بأسره بالظلال تكسر الأشياء وتعطي للمنحنيات صلابة مزاواة تماماً أو سداسية الأضلاع أو مربعة أو مستطيلة. ثم أن الزربية المصوفة، بطرزها وألوانها، تطبع في أذهان الناس فكرة الوداعة، الحرارة والهدوء الرعوي (الصوف) أو الغروبي (اللون الأزرق) ثم، أيضاً، فالباب الموارب والمرشوش بالظل يفتح في ذاكرة المشاهدين ثغرة تدخل منها كثير من السعادات العائلية، ثقة الأمومة، البيوت الهادئة، إلخ. وأخيراً، فإن الورق مصور حسب تقنيات متقدمة إلى درجة أنه يفقد موضوعيته الباردة البرازية كي يتحوّل إلى شكل مائل ومتوتر ورغوي يثير الهدوء والشبق والرخاء، سيما وأنه لم يعد ورقاً منظفاً ما مع ما يضمر ذلك من وسخ، وفضلات شرجية وعقدة برازية وبواسير مؤلمة وعسرة هضم محرج، إلخ. وإنما يصبح لعبة يحركها الطفل بكثير من الرشاقة والحذق وهو يبتسم سعيداً، ناسياً تماماً شغله الكريه غير اللطيف، ملوياً كبة الورق (اللوتس لطيف كبشرة الرضيع) عبر الغرفة صانعاً بذلك رفوفاً تعلو الأخرى (الزربية، الأصيص، الباب) مهيكلاً الغرفة، مزرداً إياها بشريط عرضي موردقان بسبب مناطق الظل ومناطق الضوء التي تتتابع، تتقاطع، تتقابل وتشكل فوق اللون الوردي المتوبر المحبحب المتروغ للورق

لطخات متوسعة أو منكمشة تذكي فرحة الرضيع وتضيف للشاعرية الهندسية أشكالاً خفيفة العبء هنا، ليست أبداً مذهلة بالدوران أو محسرة مثل أشكال تصميم المترو سواء أكان بيانياً أو ضوئياً وإن كانت تترامى في كلتا الحالتين، تدب وتفيض وتغرق الفراغ ـ أي صفحة الورق المطلي المصقول اللون ـ في تشابك أشكال وخطوط يكسي كل أفق، يحطم كل إمكانية خارجة عنها، يرسم العلامات على طريقة مشكال جشع متعطش للألوان المتجعدة التي تتشنج كهربائياً والأيونات المحطمة الهزلية في تلطيخ تخاله ينبجس من الأداة ذاتها (الورق المدعوم والمطلي بمادة غير ملونة ومزججة في فوران مشؤوم يصيبه بآلام الرأس لا سيما لأنه لا يفهم شيئاً من الكتابة (**اللوتس: تفصيل من حسن اللياقة**) التي ترصع الصورة (**اللوتس لطيف كبشرة الرضيع**) غير أنه يتعرف بسهولة على زهرة اللوتس المنمطة التي حلت مكان الواو في كلمة لوتس لا سيما وأن الفاكهة الصفراء بلون الزعفران تشتهر في الجبل على أنها تمتلك خصائص سحرية بل ناعوظية قدم اللوتسيون اللوتس لرفاق يوليس الذين نسوا وطنهم بسببها ـ هوميروس ـ الأوديسة، جربت «في الجبل». الشيء الذي يزيد حيرته إذ لم يفهم العلاقة الموجودة بين النبات الذي لا ينبت إلا في منطقته هو، من ناحية البحر، وبين الطفل، ذلك الأصيص، ذلك الورق الذي يتفكك كشريط فوق الزربية، فيذهب للبحث عن تأويلات معقدة، قائلاً ربما كان الطفل ضحية فعل سحري

أساسه أوراق وفواكه اللوتس (لوطو بلغته) والكافور وزيت اللوز اللطيف والشب، جرع له فجعله منتعشاً مغتبطاً، غير أنه لم يعِ على الاطلاق ما جاء بالورق في هذا الحفل المقدس. إن الرسم المنمنم لورقة اللوتس التي تعوض حرف الواو يدعم الهجوم الشاعري الذي يرمي سحره إلى أن يمحو من أذهان الناس كل رد فعل هزلي أو عكر فأليتا الرضيع الجميلتان يمكن أن يثير تهكماً ساخراً شيطانياً، على شاكلة «العسكر» الذين بقوا هناك، مستمرين في الحرص على النهوض المتأخر والقيلولة وبعض نوبات النوم القصيرة جداً خلال النهار حتى يقضوا الليل يقظين وساخرين للاستفادة، من ولائم لا تنسى، وقد عجزوا عن مشاطرة فلاحي الجبل حيلتهم، أولئك الذين ينهضون مع الأفجار ويروحون يحرثون كي يخرجوا من الأرض الصخرية الفقيرة بالسماد والتربة الخصبة بعض سنابل القمح أو العلف أو الشعير، ثم يعودون عندما يخيم الليل، مرهقين خائبين، وقت يبدؤون هم يتحركون، ينتفضون، يعيشون حقاً...) لأن كلمة «لوتس» أصبحت أسطورية منذ أن زار يوليس أكلة اللوتس الذين قدموا له أوراق «اللوطو» ذات التأثيرات المنعظة التي يمكن أن نخلطها بكلمة نينوفر (عرائس النيل) التي يذكر شكلها ووقارها الآسيوي تماماً، الخيال بأحواض أصباح هادئة يسبح فيها مثل تلك الأزهار وتصور معابد صمت وتأمل ومواقف زهدية، وأشكال حياة رهبانية متوجهة نحو الجمال، السلم والصفاء، وكذلك من

الناحية الصوتية لأن اللام الأولى والسين النهائي كلاهما حرف سنني هادىء سائل، حتى وإن كان اللام مذبذباً ـ جهورياً والسين احتكاكياً ـ جهورياً، الشيء الذي لا يمنع كون هذين الحرفين من نفس الخانة الصوتية (سننية) مع فرق صغير يحدد كل منهما بالمقارنة ـ مع الآخر ـ ومع ذلك فلم يكتف معدو الإشهار بالتلاعب بنفسية الجماهير، واقتحام لاوعيهم الضبابي والملتف حول نفسه، وإنما تدخلوا في سلسلة متعددة الأشكال فيها يعتبر كل شيء: الصورة، الصوت والتأويل الذي يخلق حول كلمة «الوتس» غابة شاعرية ومتسقة بكاملها للهدف الوحيد هو تغطية التقزز الذي ستحدثه لا محالة مثل هذه الصورة لدى أي كان، وهي معلاة بفضل جميع هذه الإشاعات، المسمو بها إلى درجة أن الورق المنظف سيتجاوز وظيفته البرازية الفورية كي يتحرك الساذج حالماً إذ وهو يفكر في اللوتس، يفكر في أكلة اللوتس ومن هنا، هوذا يبحر نحو جزيرة خارقة تفتخر ملصقات أخرى بإغرائها (**زمن السفر لا غير، وتنسون كل شيء، الحشد همومكم... ستكتشفون من جديد، لا زرقة السماء ولطافة الرمال فحسب وإنما كذلك الفضاء، الحرية، اللامبالاة، تصرفوا مثل يوليس! انزلوا في جزيرة أكلة اللوتس**) والضيافة التي تغنى بها هوميروس. (قدم اللوتسيون نبات اللوتس لرفاق يوليس الذين نسوا بسببه) الشيء الذي يثبت أنهم هم ـ معدو الإشهار ـ يعرفون أعمالهم المعتادة تمام المعرفة ويحسنون بالمناسبة

استخدامها لقنص جماهير مترو المدينة، المعصورين، المسحوقين في فضاء (اكتشفوا الفضاء!) محدود ندي وخانق، يدحضون فيه مثل حيوانات فزعة، يطاردهم هذا الرجم من الصور التي تحفر عمق مادتهم السنجابية، فتطبعها خلسة وتنتفخ فيما بعد، متحولة إلى حلم غامض أو إلى كابوس مذبذب، أو إلى رغبة جامحة أو إلى مشروع أسطوري (يوليس، جزيرة أكلة اللوتس، الهروب، الفرار إلى الأمام، السفر، إلخ) أو قابل للتحقيق أو محقق مفرغاً من محتواه المحرج، فاقداً قيمته السامية، منطفئاً مصمماً دوماً على السير حتى موته، دون فهم كلمة، وقد بدأ، هو الآخر، بحمل ذلك القناع المتصلب الذي رآه على وجوه الآخرين، تهاجمه اللوحات الإشهارية وتلك الصورة التي تلكزه مثل سن مريضة تكون قد نبتت، على حين غرة، في حساسيته، مطاردة ودافعة إياه ربما لهذا السير الذي لا يتوانى، دون مخطط معد مسبقاً، دون طريق مسطر بالخيال، دون هدف ينشده، بما أنه لا يقوم سوى بالدوران في حلقة مفرغة، مجرداً ذاكرته من كل شيء، مفرغاً إياها، كي لا يحتفظ في نفسه سوى بالإهانات وبصورة ذلك الطفل الجالس على أصيصه، يلعب برمي الورق المنظف جاعلاً المرء يفكر (في النور الأحمر للأضواء الكاشفة وهي تنير المشهد، بينما في الخلف، ولكن خارج الميدان، أم لنموذج تشجعه بصوتها قائلة له أنها هنا، أن عليه ألا يخاف وأنه يجب الابتسام للسيد، لا لذلك الذي يمسك

الكاميرا، ولكن للآخر، إلى اليمين، الخارج عن الإطار هو الآخر، الذي يقلد بهلواناً كي يجعل الصغير يضحك وقد اطمأن شيئاً فشيئاً فانتهى إلى الابتسام، مع رئيس الخشبة المسير لكل شيء والمنتظر لإيماءة من المخرج كي يضرب «كلاب» للمرة العاشرة، خائفاً من أن ينتهي الطفل إلى الغضب وأنه بدل أن يبتسم أو يضحك لخزعبلات الآخر الغارق في ابتداع أدوار جديدة سيجهش بالبكاء ثم يغرق في الصراخ مقلقاً الأم المتهيئة للتأثر، الغضب لمثل هذه البشاعة مهددة بأن تأخذ ابنها من جديد إذا...) في تلك الأكوام من ورق الاستنجاء التي يجمعها كناسو الشوارع، غداة الحفلات الوطنية أو الدينية أو المجونية أو اللهوية، بعربات مملوءة، بمجرد بزوغ الفجر، بعد مرور المطوفين أو الكرنفالات أو «الزرناجية» أو الركب الرئاسي أو العروض العسكرية أو عودة فرق كرة القدم المنتصرة أو مع الملابس البهلوانية، الثياب الرثة، الأهداب مآزر التدخين والبدلات الرياضية التي يفرضها الأمر، كذلك مع أقنعة الناس المصنعة حسب الظروف والتي يظهرونها مع هذا الخليط من اللامبالاة، الافتراس والجنون التي يتطلبها كل موقف مصطنع كما لو كانت البدلات الشاذة والمستأجرة من خياط مستقبلي ومخبول نوعاً ما، هي ذات البدلات التي يرتديها الركاب الذين يسعون في الهواء الساخن واللزج حيث يبدون يبالغون بالسباحة في الطبقة السميكة من الجو الملوث، مثل أسماك ذات رؤوس ضخمة محرشفة

منبطحة، الفم مفتوح بلا هوادة كي يبتلع غضباً، بعض نسمات الهواء النقي التي تحتاجها رئاتها أيما احتياج. وهو، الذي صار يشبههم أكثر فأكثر، المشتت بين الشتائم التي تلقاها وصورة الرضيع، يروح بدوره، يتلوى ويتحرك بصفة ما فتئت تزداد هزلاً، إذ لم يعد له شيء يخسره، الكتف اليمنى منخفضة أكثر مما كانت عليه أبداً، حزمة الأوراق مرتبة بدقة وإن كانت غير مفيدة وعاجزة عن امتصاص اليأس الذي ما فتىء يغشاه كلما نقع تقطير الزمن الغاشم الثقيل في أعماقه سائلاً حامضاً يثقب أعضاءه الأكثر حيوية ويجعل رأسه ضخماً مثل ناقوس طنان تشوبه حدة ذات تموجات مدغدغة ومضجرة هو المحكوم عليه بقياس الممرات حظوا بمشاهدة الصور الجدارية ونقل رأسه الفارغ من كل شيء عدا بعض الإهانات الملتقطة هنا وهناك (رح تلعب ـ أبله، يا لها من جرأة، أعط الريح لرجليك ـ وسخ ـ أنت نتن ـ ارجع للدوار ـ ماذا أيضاً ـ لم يبق إلا هذا ـ ها هي مائة فلس وانطلق ـ وأختك، إلخ، إلخ) أمام أناس يحبون بالتأكيد الأزهار، الكلاب الأصيلة، سباق الخيل، النساء الهيفاوات والمجاملة فوق كل شيء!

ثم الآخرون يتخيلون أو يحلمون أنه أرسل إليهم برقية، لا ليطمئنهم وإنما ليتحرش بهم، يعاكسهم، (وصلت)، يهينهم (سالماً معافى) يثير أعصابهم بـ (نقطة) التي وضعها خبط عشواء فأغرقت السمك وبالأحرى، معنى النص الذي يتوجب عليهم فك رموزه هم الذين اعتادوا ترميز كل ما

يقع تحت أيديهم! مقالات الصحف، مناجاة السكارى، أسرار مذبذبة، ثرثرة النسوة الطيبات، هذيان الأئمة، الحلول الخاصة لمسائل الشطرنج، إلخ متبادلين بينهم البرقية الخيالية فاحصينها من جميع الجوانب، يساعدهم في ذلك دخان الذكاء الذي يجعل المرء أكثر بصيرة وإن كان أكثر تأثراً بالبرد أيضاً، محدثين أنفسهم وهم يلعبون الضامة أو الدومينو أو الشطرنج أو هم يصلحون الجهاز القديم للعرض أو وهم يلصقون ويفكون لوحات شحم الغنم نصف المسوسة لأنهم ينسون تبديلها جانباً، محدثين أنفسهم إذن: «ولكن ماذا أصابه؟ لقد صار مجنوناً كي يغامر لا حتى بلد الآخرين فحسب، وإنما يصل به الأمر أيضاً إلى السخر منا بمثل هذه البرقية بينما هو يعلم أننا نستطيع أن ننشر الأذى ماوراء البحر، كلا، ولكنه مجنون، بالتأكيد! إنه لا يعرف ما ينتظره، إذ صحيح أنه إن كانت المتاهة امتحاناً في حد ذاتها، فإنها ليست الشيء الوحيد، فهناك أيضاً الورشات، الأفران العالية، كيلومترات الشارع التي يجب كنسها، أطنان الثلج التي يجب إزالتها، المناجم وغيرها من الأنفاق التي ستقضي عليه، كل هذا، في حالة الافتراض المتفائل كون الشرطة لا تتحرش به، أصحاب الفنادق لا يطردونه، الأطفال لا يجذبون لسانه، البق لا يلتهم بشرته، السحر لا يدير رأسه، الشجعان لا يغتالونه في زاوية شارع مظلمة لأنه ـ إذ يكون وقتها قد تعلم اللغة ـ يتحدث بنبرة سيئة، الإناث لا يكن قد رمينه بقدر... كلا ولكن ماذا يحسب

نفسه! إنه يظن نفسه قد نجا لأنه عبر النفق لا دون مشقة، بالتأكيد. الأبله! إنه لم يتعلم شيئاً، لم يتمسك بشيء، كل هذا كي يخلق لنا مشاكل، كي يعزلنا، وقد سبق للعلاقات أن صارت سيئة مع المشايخ! كي يحرمنا من أتباعنا النادرين الذين يفدون إلينا لأسباب أخرى غير تلك التي نريد أن نعتقدها فعلاً. أوه! إنه لم ير شيئاً! لم ير البيوت القصديرية، لم ير مصالح الجنازات، لم ير محافظات الشرطة، لم ير غرف الفنادق بالأسرّة المكدس بعضها فوق بعض والمفصولة بحوالى ثلاثين سنتيمتراً تمثل كل الفراغ الحيوي الذي يمكن للمستأجرين أن يتمتعوا به لا حين ينامون فحسب ولكن أيضاً حين يرتاحون أو حين يحلمون، أو حين يفكرون منبطحين فوق حشياتهم الرطبة المسوسة والمنبعجة، بهلبها المسود المبعثر في جميع النواحي، وهم يدخنون السيجارة تلو السيجارة كي يقتلوا الهم، يحرقوا البق وغيرها من الحشرات الدموية والإقلاع من الواقع الدنيء الذي يرفعهم، هكذا، بين سقف خرب ذي لطخات خضراء واسعة، بلونه الأزرق الداكن المضاء بمصباح كسيح يتراوح تحت دفع الحشرات التي تقضم بلا هوادة الخيط الكهربائي، وبين أرض ثلجية، بالإسمنت، مبرقعة بعشرات الحفر التي تدمي أقدامهم السيئة الحماية في نعال مطاطية ـ صعب هو النوم في الأزر التي غادرها للتو الآخرون تاركين عليها روائحهم، أنفاسهم، سلسهم الليلي وسعارهم وكوابيسهم وأحلامهم وهلعهم وعرقهم، تاركين في بنية

الإزار الذي لم يغسل أبداً منذ أن اشترى، آثار حياة، وقد تكدسوا عشرين أو ثلاثين في أقبية مشغولة على الدوام، لا يدخلها الهواء أبداً، حيث يسعلون بكثرة عند كل يقظة مذبذبة (بكسر الدال) ومخيبة (بكسر الياء)، يسخنون قهوة الأمس في غلايات منبعجة، خفية عن المتصرف، الرجل القادم مثلهم من البلد، حيث سبق له أن تعثر في المتاهات، ثم أثرى بالعزيمة فسرعان ما نسي «أيام زمان» حيث كان يشبههم مثل قطرتين من القهوة السوداء التي يعيدون إذن تسخينها خفية والتي يشربون منها غلايات كاملة مملوءة عصيراً لا يلهب ويكشط معداتهم وأمعاءهم فحسب وإنما يكشط أيضاً المصيبة المعقودة في بطونهم السفلى المنتفخة بالحرمان، الإسراف في تجرع البيرة الرديئة وحموضة الأصباح الباكرة المضجرة الرمادية والتي تراهم يذهبون، الخطو ثقيل وكحة السعال تحشرج، يتعثر بعضهم ببعض في الفراغات بين الأسرة، غاسلين وجوههم في الخارج، حالقين ذقونهم خبط عشواء بواسطة مرآة عمياء مهترئة فيها ينعكسون بقبح، أنوفهم مقطوعة إلى نصفين، عيونهم تحول يمنة ويسرة، أفواههم ساقطة الأسنان، إلخ. مما يحرمهم من اتخاذ حلول جيدة لبقية النهار. وفي السقف، علقت بدلاتهم الرثة وإن كانوا يكشطونها كل يوم أحد قبل ارتدائها كما لو كانت بدلات جديدة مترفة، وقد غطيت بورق الجرائد وهي تتأرجح، على صورتهم قليلاً: مشنوقون يتأرجحون لأن البرد يلسع أقدامهم، وهي هزيلة

ومفخمة كما لو كانت بزات مطرزة بالذهب والفضة، تقطع ـ البدلات ـ الفضاء في عدة أماكن. والتقطيع الأفقي الذي يصنعه كل سرير في الفضاء لا يكفي لتجزئته، تقسيمه بدقة وجعله أكثر صغراً، أكثر خراباً وأكثر بلى! تنهدات أعقاب سجائر متوهجة تمتص في الظلمة كي يعثر فيها على مهدىء للعثات التي تتربص بصلعة الرأس ـ أرق. خلط. صدع. الإرهاق ينزلق على مشاعر مهانة يائسة، والمدينة، في الخارج، تستمر الهدير، وإن كان سكانها قد أخلوها، بكل الأضواء الصهباء للمصابيح أو الأضواء الملونة، اللوحات الإشهارية أو الأنوار البراقة لآلاف النوافذ التي تثقب العمارات بحويصلات منفجرة وبتمزيقات تتكرّر فتصنع ما يشبه التشويهات السميكة في الليل حيث ينتشر الضباب في نوحات صلبة فوق العمارات، الشوارع، الطرق الكبرى، الورشات التي يعرفونها هم أفضل معرفة حيث تتلوى أكداس خيالية من الحبال المعدنية والقطع الحديدية التي تنبجس في الهواء الطلق بين الرافعات الغافية، ذرات الأعناق المتكركرة أرضاً وكأنها ديناصورات غريبة وبين الصقالات المخلعة ذات الدرجات المكدس بعضها فوق بعض مثل سلم صوب العمق السحيق أو صوب السماء حسب ما يكون المرء معلقاً أعلاه أو كامناً أسفله بما يشبه قليلاً طريقة تلك الأسرة المكدس بعضها فوق بعض، المشغولة أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة، في روائح غازات مهلكة تخمرات مصارين متعفنة، هبات

نتانة مسخنة، روائح عفونة، تسوس، وسخ وعطر رخيص لم ير لا النظرات المعتدية ولا النساء الشرسات ولا العيون الذابلة للإناث ولا حزن المحطات، وقد راحوا يكررون آه! الأبله ويعتقد أنه رشيق مرن ولكن كان يحسن به أن يعود بأول باخرة، كان ذلك سيعفيه من جمهرة المقهقهين الألسنة البذيئة وغيرهم من الأصدقاء السيئي النية، ولكن هذا إذن! لقد جن وهو يتحرش بنا كما لو كان ذلك سيغضبنا (لا تحاول الغش ـ لم نعد نلعب الدومينو. الشيخ مات!) بينما بذلنا كل تلك المجهودات كي لا نحرجه بتصرفاتنا الطيبة وقراءاتنا العالمة وولعنا بالشطرنج... ومهما يكن، فإنه يجب إعداد سكر ضخم لنسيان العاق الذي ذهب يتجول، متجاهلاً مكائد السحر، الأقدار، نظرات الشؤم والمتاهات التي لا تنتهي، كلا، ولكن».

كلا، ولكن هذا ليس ممكناً، كان يقول لاعب «الفليبر»، لقد رأيته فعلاً بل حتى أنني رافقته إلى غاية رصيف محطة «جار دوسترليتز» باتجاه «اغليز دو بانتين» بما أنه وهو يتجه إلى «بورت دو كليشي»، يجب عليه أن يذهب حتى «باستي» وهناك، يغير ويأخذ اتجاه «بون دو نويي»، أي السكة رقم 1 التي تنطلق من «شاتو دو فانسان» إلى «بون دو نويي» إلخ. تقولون إني أعرف كل هذا عن ظهر قلب. لقد كنت دائماً أحب الطرق وقد سافرت لا لمتعة المناظر وإنما لمتعة الطريق، طريق جلة. طريق قطار. كلا، ولكن ليس ممكناً أن يكون قد استغرق كل هذا الوقت. لو عرفت لكنت قد

رافقته. هذا طويل بالطبع. حوالى سبع عشرة محطة وأربعة تغييرات أنا غالط؟ إني أستطيع حتى أن أسردها لكم. عجباً! عجباً! كان يجب علي. لم-يكن يفهم كلمة لكنه كان يضحك حين كنت أحدثه عن لعبة «الفليبر». كيف تريدون أن أعرف؟ إنكم لا تنشرون صورهم في الجرائد، هم! ليسوا ملائمين للتصوير. يجب الاعتقاد بأنه من الصعب أن يكون المرء ملائماً للتصوير حين يمر فوقه عشرة أوباش لا أحب هذا، الذهاب إلى مصلحة الجنائز ولكن إذا كان ذلك يمكن أن يساعد على كشف... بالطبع إني مستعد للشهادة. كان سالماً معافى حوالى الساعة 10 ـ 11 صباحاً. بل أنه كان يملك حتى حقيبة، وإن كانت في حالة يرثى لها، وكان يلح على فتحها كي يهدي لي شيئاً ما ـ إني أؤكد لكم: بشوش جداً ـ ولكن ولا كلمة! كان أبكم؟ أوه! إني أتساءل لا غير. سأذكر هذا. والآن، لقد مات. لو كنتم قد نشرتم صورته في الجرائد، لكنت قد فهمت. ولكن كيف تريدون أن. آوه! يا لها من غلطة... كان يمكنني أن أنقذ حياته. هذا سيعلمني. كان لي موعد هام. أوه! ليس ما تعتقدون. لقد قلته له علاوة على ذلك. ولكن لنا. لقد تكلمت عن لعبة «الفليبر». كان يبدو أن ذلك يهمه. ولا كلمة! حركات، حركات... في الواقع لم يكن تفاهمنا سيئاً. لقد كنا نضحك على مضيفات محتملات يكن يحسن لغتهم ويساعدنهم على إيجاد طرقهم في هذه الشبكة التي لا تصدق. ليس من حظ الجميع تذوق الطرق، ثم،

فهم ينزلون. ضعوا فرنسياً متوسطاً في مترو طوكيو وسترون النتيجة! بالطبع رأيته بل أنني رسمت له حتى تخطيطاً بالسكك، المحطات، الاتجاهات والباقي ولكن كان يبدو عليه أنه لم يفهم جيداً، الآن، لقد مات! لقد تعذب؟ ولكني أسأل نفسي فقط هذا سيعلمني! لم يكن يجدر بي أن أتخلى عنه. نظراً لحكاياتي عن لعبة الفليبر، الأكيد أنه اعتقد أني معتوه. كان يجدر بي أن أحذره: كل هذه الاغتيالات اليومية... نصحه بالرجوع إلى بلده. كان سيشعر بالإهانة غير أنه سيكون حياً في هذه الساعة ـ ما جدوى كل هذه البكائيات؟ للكثير من الأشياء، تخيلوا ذلك. ولكن هكذا، فنشر صورته في الجرائد، يسيء إليكم. إن آخر صاحب مضخة، يسرقه مراهقون يبحثون عن بعض النقود، يجد صورته تنشر بثلاث نسخ في جميع أوراق الكرنب. ولكن، هم، ليسوا جميلين. إنكم تخشون إفزاع الناس الطيبين. أوباش أليس كذلك! ومع ذلك لم يكن قبيحاً، ولكن في هذه الساعة، الأكيد أنه ليس جميل المنظر... إني متأكد أنكم لن تقوموا بشيء للعثور على مغتاليه. تزويرات. ترتيبات ـ ملفات مفقودة ـ لقد سبق وأن كان ذلك! لماذا أغلق فمي؟ أنتم تريدون الحقيقة، كلا! هذا ما قلتموه لي، قبل ساعة. لقد سبق وأن كان ذلك! مهما يكن، حوالى الحادية عشرة والنصف، كان سالماً معافى. هذا أكيد. بل حتى أنه كان مسروراً. كان يضحك عن تفاهاتي. الأكيد أنه كان يحب هذا، لعبة

الفليبر. على الساعة الحادية عشرة والنصف، كان ينطلق من «جار دوسترليتز» نحو «باستي».

كان إذن قد صمم على أن يترك نفسه يزاحم وتسحق قدماه دون أي احتجاج (كيف يحتج في لغتهم)، دون أي رد بالمثل. كان مستمراً في خطوه عبر الممرات والأرصفة دون اللجوء لأحد، أعصابه تكاد تتخاذل، تنفسه يكاد ينقطع، البطن جائع والرأس فارغ وقد لم يعد يحس بالحقيبة في طرف ذراعه المفلوج، الذي اعتاد الآن هذا العبء غير القابل للتصديق، إذ لم يعد يفكر فيه أبداً. كان وهو يتقدم آلياً يقطع المسافات، تحميه تلك الطبقة السميكة من الجو الذي يسلبه كاملاً ويطمئنه في عمق ذاته، سحرياً، بنفس الطريقة حتى أنه لم يكن ييأس من أن يلاقي، من جديد، أحداً يتقدم إليه، مثل سلين (ألين؟) ـ التي تتحلى بخصال خارقة، ضرب من «الأمازون» الصاخبة تشعره بالإثم والشفقة على مصيره ـ ويساعده على أن يجد نفسه في هذه الكبة من الصوف التي تلفه وتفكه على شاكلة الدوائر المتراكزة الموجودة على التصميم الذي ما زال يحدق فيه من حين لآخر، وقد انثنى نصفين ووقع بين الانبهار والغثيان، فلا يعرف كيف يحدثه وبالأخص كيف يفك هذه الكتابة، التي كان يعرف عن حدس، أنها أساسية. كانت المتاهة تدوخه فضرب التوجيه عرض الحائط واستمر يجول غارقاً في مناجاة داخلية صماء وهو لا يعاتب سوى نفسه و«العسكر» نادماً على ترك ذاته لسراب ماوراء

البحر المتلاطم الحيوي، ذلك الذي بهره طوال ليالٍ، معتقداً أن الأمر لن يتطلب سوى العمل كي يجمع قليلاً من المال ويعود بسرعة إلى «الجبل» حيث يشتري بقرة حلوباً سخية تحل محل بقرته التي ذهبت ضحية العين المشؤومة أو شعوذة «العسكر»، العيش من مدخراته، بما يشبههم قليلاً هم الثلاثة (أو الأربعة؟) الذين لا يقومون بشيء سوى التكاسل، لعب الشطرنج ورمي أعدائهم بالأقدار ـ كانت الساعة التي يؤم فيها باعة الزهور الذاوية الممرات حيث كانوا يحتلونها بسلالهم المملوءة بورود قديمة، توالب حزينة، مناقير عصافير عابسة دهلية، بهتت ألوانها، قرنفل متعب، إلخ. ونساؤهم يرفعن عقيرتهن بالصباح بمزايا المادة كما لو كن يشرفن على بعض معارض الورود الخرافية، وقد رحن يتحركن حول الرف الهزيل، متعثرات به هو وبحمله وعيونهن منصبة على الثغرات المحيطة، مستعدة لإعطاء الإشارة للبعول المدبوغين، المعتمرين قبعات، المرتدين بدلات، المحرمة موضوعة بغنج والجويب الأحمر يمثل علامة تجمع أو لواء صغير أو بائعات «بالحوشة» زهوراً تافهة لا يساعد الجو السائد على تفتحها، تلك التي يجب تنقيلها عبر القطارات والممرات حتى المساكن الرخيصة الإيجار المكفهرة حيث توضع في زهريات جنب أصص أخرى، حيث تركد بلا ماء، أزهار بلاستيكية رائعة مكتفية! وهو ما يزال مستمراً في مشيه الكابوسي دائراً حول نفسه متعثراً بالناس، حتى أنه لم يعد

يقوم يأتي حركات كي يعبر عن تأففه يغزوه الأضواء الباهتة، البزازون المتجولون الراعدون، لصوص الجيوب المتظاهرون باللطف، السكارى، المتمايلون يكادون يسقطون الباعة الزنوج وهم يعرضون تماثيل فولكلورية قبيحة، الباعة الملتحون الفوارون للقلائد والخواتم، الفتيات مرتديات الصاري اللواتي يفتخرن بعطور الهند وروائحها، مزورو الحسرة العابرون بعذوبة الخمر، عازفو القيثار الذين يستفيدون، بلا ذمة من صدى الأقبية، المكفوفون الذين يبيعون أوراق اليانصيب، باعة تذاكر المترو، الشباب الذين يستجدون قطعة نقدية، المشعوذون من كل نوع الذين يعلنون عن القيامة أو عن ميلاد مذهب جديد، إلخ. إنه يلف دائراً حول نفسه يتعثر بالخلائق، الأدوات والرموز الفاصلة بينه وبين الأشياء كآخر جسر لم يتمكن من اجتيازه رغم الوسوسة التي تجفف فمه، إذ لم يعد له شيء يتشبث به متخشباً فارغاً. صامتاً. كان يروح ويجيء عبر الحشد، الزحمة، الشريان، الغضب والبكم، وقد كان يحسن الحفاظ على ذلك الصلف الأصلي والمنقذ، حيث لم يعد هناك شيء يستطيع جعله ينحرف عنه، ولا حتى مصلحته الحياتية ولا حتى توجيهات أصدقائه المنغلقين، كعادتهم، في رواية متشعبة لا يرون خطرها لأنهم كانوا يحسبونه واقعياً ووديعاً في نفس الوقت، هم الذين كانوا متأكدين أنه سرعان ما سيعود إليهم بمجرد دخوله، أول مدينة ـ عند سفح الجبل التي تكون قد أفزعته بسياراتها، واجهاتها

وحميرها التي تحمل تحت أذيالها ألواح ترقيم حسابية لامعة كي تعجب بالفعل رجال الشرطة العاقدين حواجبهم والمتوجسين وإن كانوا سرعان ما تطمئنهم تصفيراتهم ذاتها: الرمز الموسيقي للسلطة العليا ـ وقد وثقوا في تواضعه الأسطوري وفي جذوره العميقة الضاربة إلى الأبد في تربة الجبل المرمي بعشوائية بين السيل والسماء، وهم مسرورون لكونه ذهب يقوم بجولة بضعة أيام كي يتأكد بأن العالم موجود بالفعل رغم الشعوذات الغبية لبعض المتعصبين الذين ينشرون عمداً الدعاية التي مفادها أن الحياة لم تعد توجد سوى في الجبل الذي حفظ من التقدم التقني ومن غضب الإلّه، تسرهم كل هذه الملهاة التي قد يبالغ فيها إلى أقصى حد بما أنهم رأوه يكدس في الحقيبة التي جاء يقترضها منهم ملابس نادرة وطروداً عديدة يرسلها بعض سكان الجبل إلى أقاربهم، أصدقائهم ومعارفهم الواهية، وقد راحوا يضحكون خفية من مشروعه الأسطوري في عبور البحر، رغم أنهم كانوا قلقين نوعاً ما منذ أن رأوا الصبية تجتهد في تسطير عنوان أحد أبناء عمه (الذي ذهب معهم في نفس الوقت، لكنه لم يعد أبداً، هو الذي كان قد تشبث بحجر عجوز مقرورة ما وراء البحر لم تكن قد تزوجت به سوى لتفرغه من شمسه، تلك التي أولدها ثلة أطفال بعد أن وقعت سنداً قبلت بموجبه أن تعيد رفات زوجها في تابوت مرصص إلى الجبل، يوم وفاته ذاتها) الذراع متصلبة، اليد ندية فتلطخ الورقة التي كانت تكتب

عليها، تسحقها مهمتها، وقد اغترت بأهميتها، سيما وأن القبيلة كانت تحيط بها كما لو كانت تقصد حمايتها من لعنة ممكنة أبداً حين يقلب المرء مثل تلك الحروف الغامضة الهمجية، ما عدا إذا لم تكن هذه محاولة لسد الطريق أمامهم هم كي لا يأتوا يحومون حول التلميذة النجيبة التي تنقل من جديد على ورقة أخرى ـ أخذت الآن مظهر لوح ممحى لشدة ما تهرأت وأعيد إلصاقها ألف مرة وألف مرة ومزقت فلم تعد تحتمل، أسوأ أيضاً من الحقيبة التي ينقلها من رصيف إلى رصيف ومن ممر إلى ممر ـ عنوان ابن العم، الذي سقط في الفخ وغرق في ملذات المجتمع الصناعي حتى منخريه. وقد راحت تنقل ـ الصبية ـ بحذق، مع تغنج مفتن بينما كانوا هم تعساء فعلاً يوم ذهابه، وإن كانوا لا يولون ذلك كبير اهتمام، قائلين أنه إذا نجا من الغرق، ستكون هناك المتاهة التي ستجننه وإن نجا منها بأعجوبة، فإنه لن يقدر على تحمل بطاقات الإنزال، البيوت القصديرية، غرف الفنادق، المقاهي، التفتيشات، الفحوص الطبية، الورشات، العاهرات المشاكسات، مراقبات الهوية، الرؤساء الكورسيين أو الإيطاليين أو البولونيين، الزاملين المتربصين، الأفران العالية، الرذاذ، الفتيات الشبقات والمتملكات، الجليد، الطقس، الصقيع، الأكل المحضر على عجل في غلايات منبعجة، المطرقات الآلية الضخمة، الزجاج اللين، الزهور البلاستيكية، تصميمات المترو، غاز الكربون، المساكن الرخيصة الإيجار (م. ر. ا)، إلخ.

ولكن هو الفارع، المتخشب والصامت مصمم أكثر من أي وقت مضى على ألا يطلب شيئاً، على ألا يعرض نفسه للشتم أبداً، يستمر يقيس المتاهة بالخطو، يعد الدرجات، يزن المسافات، يعتقد قليلاً جداً أنه سينتهي إلى لقاء معرفة، أحد أصدقاء «العسكر» مثلاً (لم لا؟ لقد كان لهم أصدقاء!) أو معشوقة ملمومة تفوح منها رائحة الحليب، مثلها مثل سلين (ألين؟)، ستساعده على الوصول إلى النقطة النهائية، أو أحد لاعبي الفليبر لا يكون له موعد مستعجل وسري جداً حيث يمكن أن يقوده إلى الرصيف المناسب تماماً. ولكن في انتظار ذلك، إنه يجول في جميع الاتجاهات: «بون دو لوفالوا بيكون»، «بلايال»، «بورت دو لاشابيل»، «ميري ديسي»، «ميري دي ليلا»، يتردد. يقول في نفسه إنه يمكنه أن يذهب إلى أي مكان، يركب أي قطار، وأنه سيرى ما يحدث فعلاً، ثم، دون أن يدري وقلبه يدق، المرارة تقطعه والتعب يغرق جفونه، ينتهي بالتوصل إلى الاتجاه الصحيح، صدفة، بقليل من الحدس، وقد كان على شفا الغرق في الجنون أو الموت. ثلاث محطات يجب قطعها على السكة 13 (3,865 كلم):

سان ـ لازار ـ لياج
لياج ـ بلاص دو فيشي
بلاص دو فيشي ـ لافورش

وهو أبداً يرمرم، متطيراً دائماً كما لو كان ذلك يمثل جزءاً من خصال المحقق الكامل قائلاً: «إذن هكذا صدفة،

يصل إلى لافورش دون معونة أحد، بعد أن قضى ساعتين أو ثلاث ساعات يتجول في ممرات صالازار 32552421 شخصاً يمرون كل سنة بهذه المحطة، نعم يا سيدي! بينما كانت له خمس إمكانيات أي خمسة اتجاهات يختار بينها، هكذا إذن أجرى القرعة بصواب حسبكم أو قامر بالحظ أليس كذلك! كلا ولكن ماذا تريدون أن تجعلوني أبتلع هنا أوه! إني أراكم تفصحون، ربما كنتم تريدون أن تبينوا لي أنه لحد الآن تصنع كل شيء وأنه كان يحسن الكلام والقراءة والكتابة دائماً، لكنه تغابى كي يتحرش بالناس بقصاصاته العديدة التي كان يقحمها تحت أنوفهم، نوع من المتحرشين أليس كذلك، معرقل ومشوش أيضاً، ولهذا اغتالته عند الخروج مجموعة من الشباب سخر منهم مدة دقائق عديدة وأنه في نهاية الحساب انتهوا إلى القلق فأراد أحدهم تخويفه فأطلق عليه رصاصة أصابت لب قلبه فقط هذا ما كان لم يقتل برصاصة وإنما قتل بأدوات قاطعة حاسمة، ذخيرة كاملة أليس كذلك! تقرير الطبيب الشرعي قاطع لن يبلغ بكم الأمر اتهامه بالرأفة على هؤلاء الناس الذين يأتون لإحراجنا بدل أن يبقوا يتصدؤون تحت شمس دوارهم كلا! كلا! كلا! كل هذه أسطورة. الأكيد أن هناك أحداً قاده، ملتح ما أعتقد أنه سيسلبه بعض الفرنكات مقابل الخدمة التي يقدمها له أو أحد مواطنيه فهم نسيج فريد في هذا الجانب أو فتاة تكون قد وجدته جذاباً وربما مغرياً مع كل أولئك المخبولات الجنسيات اللواتي يملأن

المترو أو غير ذلك من يدري، ولكن لا تأتوا لتقولوا لي إنه لم يحدث أحداً في صالازار بما أننا نعلم أن مفتشاً من مفتشي المواد المهربة فحص حقيبته وأن شخصين أو ثلاثة أشخاص انتهروه، يجب أن تستقصوا الأمر لدى الغجر الذين يبيعون الزهور ابتداء من الساعة الخامسة مساء أو الزنوج الذين يبيعون توافه من خشب الإبنوس؛ اعثروا على أحد عازفي القيثار يكون يتذكره أو أحد باعة مجلات الشلل أو أحد تجار العطور الصينية أو أحد الزاملين فقد يدهشني ألا يكون قد استوقفه هؤلاء إذ ما فتئوا يتربصون بالأجانب حيث يفضلونهم على أبناء البلد، من يدري لماذا. إنكم لا تؤدون عملكم جيداً يا عزيزي! ثرثرتم كثيراً غير أنكم ما زلتم تجرون أذيال الخيبة في القطاع ولم تحصلوا على أية نتيجة هذا لا يهمكم بالطبع أنا الذي أعطيكم الأفكار ولكن هذا لا يعنيكم كما تقولون واحد زائد، واحد ناقص، إنهم ولو دون غير أن هذا ليس مشكلي أنا، أريد أدلة وطرقاً حيث لا شيء يثبت أن الأمر قد يكون اغتيالاً عنصرياً إذ ليس لأنه عثر على وثائقه وبعض أوراق مائة فرنك في حافظته وأن حقيبته سالمة، يجب استخراج استخلامات مستعجلة ولكن يجب عليكم أن تتحركوا أكثر قليلاً يا عزيزي ولا تنسوا أن من المنطقي أنه لم يكن بإمكانه أن يكتشف وحده الاتجاه الصحيح بعد أن قضى هو وحقيبته جزءاً من النهار في الممرات ولا تأتوا لتخلطوا علي الأمور بخزعبلاتكم فيما يخص. إذ هنا أنا هو المعلم إلى أن يصدر أمر جديد، ألا يمكنكم أن تتعطروا أقل من هذا».

والمسافر الذي جره تيار الآخرين يجد نفسه مرمياً في الخارج وقد كان ينطرح بكامل طوله، حقيبته تنفلت من يده وتنزلق على حوالى عشرة أمتار قبل أن تتوقف مصطدمة بقاعدة مقعد، فتنفتح تحت الصدمة، مبعثرة الرزم، الأصص، الملابس، التمائم، والطرود التي يسارع إلى جمعها تحت النظرات غير الراضية أو اللامبالية أو الشزراء أو المتأسفة للركاب المتعجلين الذين لا يفهمون كيف يعرقل المرور بالرصيف على الساعة الثامنة مساء ـ مرمياً حقيبته تسقط في ضجة رهيبة رغم الهسيس العنيد، الأصوات المغمومة للأقدام وهي تمشي على البلاط ورغم الاندفاع الصاخب للقطارات التي تمر الآن الواحد تلو الآخر يفصل بعضها عن بعض حوالى دقيقة ونصف الدقيقة. يفقد جأشه بينما هو يرتب كل رزمه المطبوعة برائحة «الجبل»، المرفوسة بأقدام المارة، المسحوقة تحت أحذيتهم، سيما وأن البوق الآلي الذي يعلن أن أجل توقف القطار فات، لا يني يدق كما لو استولى عليه التعجل هو الآخر، بينما لا يسير إلا نادراً، بقية النهار. ثم بعد أن يجمع كل شيء يعيد قفل الحقيبة وربطها بالخيط، يقوم من جديد كي يجد نفسه وجهاً لوجه أمام الملصقة التي رآها في محطة أخرى، مع جهله أنه في الطريق الصحيح وأنه ـ بأعجوبة ـ وصل إلى محطة لافورش، ولكن بسبب الملصقة الإشهارية، اعتقد أنه ضل وهلع من جديد، يائساً خائباً لكونه عاد إلى نقطة انطلاقه. وكي يتأكد فعلاً، بحث عن

الإشهار الآخر، ذلك الذي يعرض رضيعاً يجلس فوق أصيص، فيكتشفه فوراً يكسو جدران الرصيف المقابل ويتكرر إلى ما لانهاية (**اللوتس: تفصيل هام في آداب السلوك**) فيحفر في دماغه فوهات زلزالية، خاصة والإعلان الآخر يعرض صورة فلاحة عجوز تجلس قابعة وهي ترتدي سروالاً فضفاضاً أخضر وصداراً قطنياً أصفر كماه طويلان وإزاراً زعفرانياً يغطي كتفيها وظهرها، وقد اعتمرت بقبعة تبنية عريضة الحوافي مطرزة بنقوش سوداء مثمنة الزوايا، يعلوه مخروط مجلد الحوافي بثلاثة خيوط سوداء ثخينة، هي الأخرى، مضفورة بنفس مادة القبعة ذاتها. تحيط بالمرأة العجوز قفف وسلال ودلاء تحوي إما تيناً وإما طماطم وإما بصلاً وإما ثمار الصبار ألوانها (حمراء، بنية وخضراء صفراء) تتزاوج بألوان ملابس البائعة ـ الصورة تكون قد أخذت في سوق أسبوعية إذ، وراء الفلاحة يرى فلاحون آخرون يعتمرون بنفس القبعة التبنية ذات الحوافي العريضة، كما تشاهد أهداف خيمة وأكوام ثمار وخضر؛ كل المشهد غارق في شمس تلمع بوهج فتضاعف النقاط الضوئية التي تتلاءم مع بقع الظل (الوجه المخفي للمرأة العجوز، السلة بجانبها يغطيها ظلها، إلخ) ومع بقع غامضة ـ لكن ما يدهش، هو ازدحام المكان الذي تقبع فيه (**من الآن الصيف يجذبكم/يدور بخلدكم**) والإحساس بالوفرة والازدهار تبدي أن كل شيء رخيص في بلاد الشمس (**مجرد زمن السفر وتنسون كل شيء...**) وأن

السفر (الذهاب والإياب بالطائرة محسوبان) تمنحه لكم مجاناً الوكالة السياحية التي تريد لكم الخير والتي ستأخذكم لا لتذوق الثمار الغريبة مثل التين وثمار الصبار، ولكن كذلك متعات أخرى (.. زرقة البحر، لطافة البحر، ولكن كذلك..) يبقى المرء أمامها مستغرقاً تلك التي اكتسبت بذلك هالة سرية ومثيرة بالنسبة للعقول الساذجة المستعدة لأكبر التضحيات لنسيان الاختناق، الصداع، عسر الهضم التي تذكرهم بها بما لا يمكن نسيانه الملصقة الأخرى، قبالة تلك التي تفتخر بجزيرة اللوتسيين أو بوضوح أكثر بجزيرة أكلة اللوتس (اللوتس لطيف. كبشرة الرضيع) التي ينطرح عليها شريط الورق المنظف مثل جرح غائطي يطارد المستعملين المحتملين حتى في المترو. وقد وقعوا في الفخ نفس وقوعه هو، لكن، لأسباب تختلف، يتعثرون، هم الآخرون، في الواقع الأحمق، ذلك الذي يجعله خيال المصممين لا يطاق بشكل أكثر فإن كان المسافر يململه لغز الملصقة ذاك، فيحس أنه يدور إلى الأبد في نفس الأمكنة بسبب هذا التطابق في الإشهار، فإن الآخرين، أولئك الذين يزاحمونه، يشتمونه أو ينتهرونه، لا يعلمون أيضاً أين يتجهون، لحيرتهم وترددهم بين لطافة الرمال (.. الحشد، همومكم.. ستكتشفون من جديد لطافة الرمال..) ولطافة الورق المنظف (اللوتس لطيف كـ..) وبين اللوتس وأكلة اللوتس، هم الذين يعرفون أنه توجد علاقة ما، غير أنهم لم يتوصلوا إلى تحديدها بصفة دقيقة، نهائية (إذا كان

الصيف ينقصكم/يسكنكم، تصرفوا مثل يوليس: أنزلوا في جزيرة أكلة اللوتس! مجرد زمن السفر؟ وتنسون كل شيء، الحشد..).

... الحشد يحرج تخمينه ويوقف وظائف تفكيره وكما لآخرين، يفطن إلى أن الحد الفاصل بين الواقع والخيال مفتعل: فقد أقلقته هذه الصور التي يعتقد أنها مزينة، والتي ما زال لم يفهم معناها مما يثيره بشكل لا يطاق ويضلله لأن الفضاء ينزلق ـ إنه يحس أنه كلما تقدم في اتجاه، عاد أدراجه بأسرع من ذلك، بما يشبه في قليل السجادة المتحركة التي حدث وأن ركبها بالمقلوب فقادته رغم جميع جهوده إلى نقطة الانطلاق، بلا توان. وهكذا، تحتم عليه أن يعيد كل شيء وقرار ركوب قطار ما، بعشوائية، لم يسو شيئاً! بالعكس.. فالملصقات مثلها مثل المدرجات الميكانيكية، مثل الممرات اللامنتهية، مثل السجادات المتحركة، مثل المسافرين المعاندين، مثل الأشخاص الشاتمين، مثل الفتيات الرؤوفات، مثل الشباب المولعين بلعبة «الفليبر» وسكك مترو المدينة، مثل أبناء البلد غير المهرة هم جزء من مؤامرة واسعة دبرتها إحدى القوى السرية التي لا يكون «العسكر» غرباء عنها بما أنهم كانوا قد احتفظوا بشبكة كاملة من الروابط والعلاقات في البلد الذي قضوا فيه ثلاثين سنة من حياتهم، محافظين عليها بالاتصال التراسلي السري، هم الذين يموتون في هذه الساعة، غيرة وهم يرونه يذهب دون رضاهم، وقد حرمهم

من بهجة كتابتهم له العنوان على قصاصة الورق مستهزئاً بجميع الجهود التي بذلوها كي يبدوا أمامه بشوشين، فقبلوا أن يلعبوا الدومينو والضامة بينما هم يحتقرون مثل هاتين اللعبتين إذ ليسوا مولعين سوى بالشطرنج (الشيخ مات!) كفوا عن التفوّه بالكفريات في حضوره، بعد أن اعتنوا لمدة سنوات ببقرته العجوز حيث ذهب بهم الجنون إلى درجة السماح لهذه بأن تنام في القبو بين لوحات الشحم المملح المجفف وروائح العشب التي منحتها سعادة خارقة وخففت معاناتها الأخيرة، تجنبوا معاكسته بالمصادقة على قانون يسمح، كذا، بعدم جرح حساسيته وهي على شفا. قرأوا له الجرائد، كتبوا له رسائله، ترجموا له كتب علم النبات الصينية الآتية مباشرة من «الجمهورية الشيوعية المخضوضرة»، وصفوا له أدوية حتى لا تنجب امرأته أولاداً كثيرين. وهو تهزه الصور، تقرعه الأضواء، تصرعه الأجراس الحادة، منبوذاً، يغزوه الغليان الداخلي، لا يعاتب سوى نفسه، سكان الجبل، أصحاب الختم، وغيرهم من المسؤولين على مأساته، ينتهي إلى التخاذل، وها هو ينطلق من جديد، العضلات تشنجها رغبة البقاء، رغبة عدم الموت بالاختناق، بالإرهاق، بالجوع، بالدوران ـ ينطلق من جديد تجاه الآخرين الأكثر هدوءاً والأكثر تأدباً منذ أن مرت ساعات الازدحام، فيخرج قصاصاته من جديد ويهاجم الأقنعة المتصلبة، محاولاً ـ بالحركات ـ أن يجذب انتباههم إلى حالته اليائسة، ضارباً عرض الحائط

ملصقات صورة المرأة العجوز وهي تبيع تينها، طماطمها، خيارها، بطيخها، دلاعها، ثمارها الصبارية، إلخ. كذلك ضارباً عرض الحائط الصورة الأخرى، صورة الرضيع التي لم يتوصل إلى فكها، متخلياً عن ملمس يد سلين (ألين) الذي ما زال يحرق بشرته، فيندفع، وقد استولى عليه سعار، يداهم القراء من وراء جرائدهم، يرغم على التلعثم سادة جد نبلاء يخل بتوازنهم انقلابه المفاجىء، يحاول أن ينبجس مثل غريق استولى عليه الأمل، يقتحم بالهجوم المباشر، يجبر الناس على قراءة ما يوريهم، وهم، الذين تتجاوزهم الأحداث الفزعين في مفاجأتهم، يعطون تفسيرات، يورونه بإصبع متحفظ أو ضجر أو متضامن اتجاهاً، رصيفاً، ممراً، يقتحمه بلا هوادة.

كانوا قد بذلوا ما في وسعهم لمعالجة بقرته الوحيدة التي أصابها السل بينما كان هو يتمسك بأنها ذهبت ضحية العين المشؤومة ـ وبالفعل فقد كانت تعطي حليباً غنياً، سمنياً ومضرجاً يدير رؤوس نساء الجبل وقد شك في بعض الأزواج الغيورين في تسميمها غير أنهم هم كانت لهم تجربة كبيرة في العناية بالبقر، لعملهم في مزارع هناك، وقد اعتادوا بذلك الخوار الأليف للحيوانات التي كانت تستقبلهم بأرجحة أضرعتها الحلوبة في كل الاتجاهات، وقد استعدت لإفراغها بأسرع ما يمكن وأخذها إلى المراعي المكسوة بالندى حيث تغور حتى العنق، حين يجلب الربيع ذوبان الثلج وحين يسيل الماء شلالات عبر الحقول، تحت

أقدام المجترات الضخمة الوردية في ضباب الأصباح الرمادية وهم، بمجرد طلوع النهار، يقبعون، كل تحت بقرته، يناجونها بلهجتهم الجبلية قصد استئناسها وجعلها تتبعهم في الوقت المناسب كي يبيعوها في سوق الحيوانات ويختفوا في الطبيعة، وقد احتموا من الحاجة لشهور طويلة، بعد أن يكونوا قد كونوا احتياطاً من الزجاجات والغليونات، يعلمونها بمجرد طلوع الفجر، الأساس ـ بعض الكلمات ـ حتى تتبعهم دون صعوبة، حتى لا تلعب لعبة الحرنات، في آخر دقيقة، فتشل محاولتهم قسمة النقود، آخذين الحلمات التي تتفجر وتلوث أيديهم بسائل لا شيء يربطه بالحليب وإن كان يأتي مع أول رشة صباحية عندها، فطنوا، فوراً، إلى أنها كانت مسلولة، بقرته السمينة التي كانت تثير الكثير من حساد «الجبل»! لقد عالجوها، دللوها، بل حتى أنهم اقتسموا معها القبو المحول إلى حظيرة، مكتشفين في ذواتهم نفوس أطباء بيطريين، قارئين كتب علم الحيوانات، علم النباتات والبيطرة، حاقنينها حقناً وافرة من المقويات، محدثينها كما تعلموا هناك، وعبثاً فعلوا علاوة على ذلك، لأن الآخر ما فتىء يعتقد أن السبب هو العين المشؤومة وأنهم لا يستطيعون إنقاذها. عندها انتهوا إلى تقبل رؤيتها وهي تموت، شاهدين هم الأربعة (أو الثلاثة)، رفقته، على حشرجتها التي دامت مثلما دامت حشرجة زوجته الأولى التي، اختطفها هي، مرض التيفوس. ولكن، كانوا قد علموه أيضاً لعب

الدومينو، مدربينه على اللعب بعلمية، وليس بعاطفة، لقنوه طرق منع الحمل الناجعة كي يتجنب وفاة زوجته في النفاس، سمحوا له بأن يتعلم رمزاً مصطنعاً وجد سهل الاكتشاف كي يمتعوه، وقد احتفظوا لأنفسهم، من جانب آخر، برمز أكثر تعقداً وأكثر تدقيقاً. لكن هذا لم يمنعه من أن يؤكد لنفسه: حسبي أن أنجو لا لشيء سوى لكي أرسل إليهم برقية ستحرمهم النوم لمدة ثلاثة أيام على الأقل، الشيء الذي سيمنعهم في نفس الوقت من الشراب ليلاً، لأنهم عاجزون عن السهر ما لم يناموا 12 ساعة، بحيث يجعلون الآخرين يعتقدون أنّهم قضوا ربيعهم في المعامل والورشات كي يستحقوا الراحة. لا لشيء سوى لإرسال برقية إليهم:

وصلت. نقطة. سالماً. نقطة. معافى. نقطة.

السكة 13 مكرر

فيما مضى، كان «العسكر» الثلاثة (الرابع، صاحب الدكان لم يغادر «الجبل» أبداً)، وهم يسوقون في أثرهم معشوقة ملمومة ومعطرة بمسحوق الرضع، يتوقفون في المقاهي ـ الفنادق ـ المطاعم. فيما بين «برباس»، «روشوارت» و«باب لاشبيل»، حيث لا يهمهم عرض كسبهم الجديد بقدر ما يهمهم العودة للغوص في القاعات المكتظة أبداً بأبناء بلدهم المتربصين إما بالأخبار الجديدة الطازجة التي تصل من البلد بفضل مسافر أرعن لا يمكن تجنبه كان يستغرق ساعات كاملة للتغلب على الشبكة المتاهية للنفق. وإما بأخبار «يد أولى» تتعلق بورشة حيث يتم إدخال العمال إليها سرياً، دون ضرورة تقديم كدس من الأوراق التي تنقصهم، غالب الوقت. كانوا بلباسهم الصيني الأزرق المكرمش المبتذل جداً، يخفون زرادمهم الناشزة تحت مناديل حريرية جد مترفة لماعة الألوان ويلقون على أحذية أوباش مدهونة بحذاقة لبقة، طيات سميكة لسراويل من صوف خالصة، متخلين، بذلك، بواسطة نفقات

ضخمة، عن أصلهم الفلاحي، الذي كانوا يحتفظون منه، زيادة على الشوارب الغزيرة الشرسة، برائحة أرض مزروعة ومشمش جاف (مجفف على سطوح قرميد قديم من آلاف السنين مثلم شقوقه تجذب كلما جاء الصيف، جيشاً من حشرات زاحفة ورشيقة، ذات خراطيم مفتوحة أبداً باتجاه الشمس كما لو كانت تريد ابتلاعها لتدفئة بطونها البيضاء الملساء بحيث تجزع النسوة الصاعدات، هناك في الأعالي، في ضباب من الأقمشة، وهن يصففن الفواكه المقصوصة نصفين، مفرقة من نواتها التي سرعان ما تتجعد عند ملمس الطوفان الشمسي الذي يمطرها بلطخات احمرار وبكالوريات تستهلك خلال الشتاء القاسي الذي يدوم ثلاثة أشهر في قمة الجبل...) تلك الرائحة التي لم يتمكنوا من القضاء عليها رغم لترات العطر الرجولي النفاذ التي يصبونها على الرأس وعلى الجسد مما كان يجعل مرورهم العنيف جداً من (الفلاحية) الفقيرة إلى (عمالية) هشة وغير مستقرة تميل للوصولية يوم الأحد، مروراً مثيراً للشفقة رغم البزات النيلية التي كانت تمثل بالنسبة إليهم، علامة تجمع المستغَلين (بفتح الغين). تلك التي لم يكونوا يريدون التخلص منها، مقابل لا شيء في العالم، رغم النظرات الناقدة القليلة اللطافة لأصحاب المقاهي الذين كانوا يتهمونهم بأنهم يحاولون أن يخلقوا وسط زبائنهم إضراب حمية أو إضراب إيجارات غير أنهم لم يكونوا يستطيعون طردهم خشية إحداث فوضى لشدة شعبيتهم وواقعية الإبهار

الذي كانوا يؤثرون به على الوافدين الجدد، لأنهم كانوا يحسنون الوصاية عليهم، بمنحهم أولى السجائر «غولواز» ذات المذاق التترات، أولى جرعات شرابهم المخلوط الذي يخونون به العهد، أولى مآويهم، أولى الوظائف وبنشاطهم الدائم كانوا يسوقون في أثرهم أبداً مهرة مزينة ـ سليمة الجسد والأسنان ـ ذات نهود نافرة سخية وداعتها تسحر زبائن المقاهي حيث كانوا يتوقفون مساء السبت ونهار الأحد، حسب المقتضيات الثابتة لدورة التفتيش كما لو كانوا يريدون الاطلاع على الحالة النفسية والمادية لما لا يحصى من الفريق الذي يتدبر أمره بأسوأ ما يكون في شتات الصعوبات اليومية التي تسقط على رؤوسهم بمجرد يقظتهم المبكرة رغم تأثر تلك اليقظة برأفة قسرية تبدو من خلال الأصوات المرهقة عند النهوض من النوم، رغم الساعات المعصمية التي يشتريها المهاجرون بمجرد أسبوع عملهم الأول والتي لا يتخلون عنها أبداً مثل عين كبيرة حولاء تزودها آلية سريعة مضيئة تلهب أحلامهم الحمضية المقسمة إلى 12 قسماً يكسر الميناء اللامع ـ الجديد ـ من خلال علامات ورموز وأرقام تشكل طبوغرافيا، تشبه في مجملها طبوغرافيا مترو المدينة المزدحمة بالخطوط المضيئة التي تتلوى كثيفة وتتجمع فجأة، فتكون ـ على كل حال ـ انحرافات فوضوية، عوض أن تتجه للبحث في أشكال أخرى (مربعات، مستطيلات، معينات) عن الإنطواءات الضرورية لبقائها وتوالدها الأبدي، تكتفي بتكديس الدوائر

المتراكزة بجمعها في غليان داخلي لا يفقد بالضرورة مرونته وإن كان يجعل صعبة كل إمكانية للاهتداء في مثل هذا الانتشار السخي الذي لا يعبر سوى عن درجة التقعر الضرورية لتوازنه ذاته ومنطقه نفسه مقتحماً شبكة الخطوط المتداخل بعضها في بعض، حيث تتوقف باعتباطية أو فوضوية حسب المنحنيات الشريرة في مكان لم ينتظر أن تتوقف فيه إلا قليلاً، تتقاطع ضاربة عرض الحائط بجميع القواعد الهندسية، تتسابق، تتفرع، تتجاوز، تتقلص قليلاً بما يشبه الأحلام الحامضة المنقوشة في تعاريج الزمن، تفزع، تتعرقل، تتغلب، حتى من خلال تلعثم صباحي وثلجي للمطر النازل قطرة قطرة في دلو بول وضع هنا كي يجنب المستأجرين الخروج، ليلاً، لقضاء حاجتهم، عبر السقف الخرب الذي يترك الماء يسيل، بينما يفوح داخل الغرفة هواء كبريتي قاس مثل البلاستيك المجزأ إلى لوحات جليدية تودع داخل الرئات فضالة حادة مؤلمة تهدأ بجرعات الكنين التي تذوب في غرفيات قهوة جد قوية ومحرقة تنبعث منها رائحة المنفى والاحتراق، في القاعات المملوءة دخاناً ذات البلاط المذري بالنشارة التي تمتص اللزوجيات المدماة للمصابين بداء الصدر جرت العادة بأن يصفق لهم وأن تفسح لهم مع مخطيتهم ذات الرغى المفتعل وإن كان لذيذاً حلواً بآذان الماكرين، الأمكنة الأكثر قرباً من المدفأة، وتدفع لهم دوريات الاعتراف بالجميل إلى يوم أن أصبحوا قساة فتركوا محارمهم القانية وسراويلهم آخر صرخة

وراحوا يحملون في جيوبهم قنابل ومناشير، منذرين بمنع الخمر وكذا الحشيش والأغاني الشرقية التي عوضت ـ علامة أخرى للتجمع ـ بالنشيد الوطني الذي يهتف به رغم أصحاب المحلات المهاجرين المنقسمين بين التعاون مع الشرطة وبين دعم الحركة الفتية. في تلك الآونة، لم يكن أحد يتعرف عليهم. وعلاوة على ذلك، فإنهم لم يعودوا يسوقون في أثرهم أية معشوقة ملمومة مغبرة بالمساحيق، لم يعودوا يلعبون لا الدومينو ولا الضامة، لم يعودوا يهذرون بشأن روائح المشمش المجفف، لم يعودوا يتبارون مع المقامرين ـ في الغرف الخلفية المحولة إلى بيوت قمار. لم يعودوا يهاجمون الأئمة، بل عقدوا معهم هدنة مؤقتة تماماً كانوا متأكدين أنهم سينقضونها ذات يوم، لم يعودوا يضحكون أياً كان... لكنهم دأبوا على لعب الشطرنج لتهدئة أعصابهم وتعلم الفن العسكري للتكتيك والاستراتيجية، قبيل الزلازل الكبرى التي كانوا يحضرونها بدقة، مخددين المدينة الكبيرة بالدراجات النارية، الأولان في المقدمة والثالث وراءهما للتغطية، مبعثرين رزماتهم المحزومة جيداً هناك حيث يجب. كانوا قد تنظموا لجمع الاشتراكات والقيام بدورات في غرف الفنادق، الشقق المفروشة، المطاعم والمقاهي المظلمة الواقعة في أزقة موصودة في وجه الأمل، فيسبقون الشرطة أبداً كي يأخذوا النقود الأوامر والمسدسات الرشاشة؛ كانوا قد توصلوا لإرشاء قادة الشرطة الكورسيين ومحافظي الشرطة

الاحتياليين وهكذا استمروا في نشاطهم الدائم فلم يعودوا يوقعون بالبنات إلا لحاجة القضية، يغيرون المأوى كل ليلة، قائمين برحلات في القطار حتى «موريبات»، مطاردين المتربصين، الفاترين والأنذال، يفاجئهم كل صباح انتباههم إلى أنهم ما زال لهم وجه ولحية يحلقونها، ممسوخين، مفرغين من بلاغتهم الأسطورية في جميع المقاهي بين «باريس» «روششوار» و«باب لاشبيل» صموتين، حقيقيين، مكتفين غير أنهم ما يفتؤون يعيشون على اليقظة! وقتها، حفظوا، عن ظهر قلب، كل سكك المترو وقد كانوا يعرفون جميع الزوايا، جميع المخارج، جميع الخطوط، جميع المحطات، جميع المدرجات الميكانيكية، جميع البويبات، جميع التعاريج وجميع المنحنيات بما أنهم كانوا يعدون فيها مواعيدهم السرية فيضعون في سلات الورق، أسلحة ومناشير يأتي آخرون، خفية، يستلمونها، ويروحون يأخذون صوراً «شكلية» أمام إحدى الفوهات تنويماً لتوجس العسس الذين كانوا يحرسون الملتقيات الاستراتيجية.

هم الذين كانوا يعلنون أينما مروا عقمهم وحقدهم على كل إنجاب كي يهربوا من طلبات الزواج، تناديه إذن، تتوسل إليه، وهو يتنفس راحة إذ يكون قد اكتشف الأسماء العائلية «للعسكر» في ذلك الشلال من الكلمات المرهقة، يخرج قصاصته واعداً إياها أنه سيدفع لها ثمن كسكسي من الشعير حيث «يفتله» ابن العم الذي سينزل عنده، أو أحد سكان عش العقاب المضغوط بين السهل والصحراء، شرق

البلد، الذي بلغ ازدهاراً مريباً وإن كان سيتمكن من العثور عليه من خلال ركام الملابس المكدسة فوق جسده، حركاته المتصنعة وقبعته التي تخفي جلخاً سابقاً لأوانه، وهي تسقط فوق عينه، ذلك الذي سيتمكن من إعادة تشكيل شبحه الأصلي المثقل بضباب ماوراء البحر، سرعان ما تعد له الذكرى إذ تعيد الأشياء إلى أماكنها، الوجه المدبوغ بالشمس والمبرقع ببطالة لا تنتهي وتحت الجلد هرش داخلي موروث عن قوافل الزمن الغابر التي تطيل الرحلة وتدفعها إلى بقاع الجنة حيث يتوجب عليها الدهن بالزيت الحامض للمنفى، والتغطية بأردية رثة لا تصدق والاكتفاء بوهم اجتماعي، بأعمال موسخة وبروائح أقدام لا وقت لها لمغادرة أحذيتها لمدة أشهر لأن الماء بارد فتكتسب مذاق منظف بنترات الفضة، إلى اليوم الذي يشتري فيه، بقطعة خبز، مقهى ـ فندق ـ مطعم ويشرع بدوره في عصر العرق القديم لعبيد الموضة الجديدة ويتقنع بركام من. أو كانس زنجي كان قد رآه صباحاً على المدرج الميكانيكي، الوجه مدسوس في الشعثة الكثة لمكنسته، ذلك الذي يحسن أفضل من أي كان ترتيل السور القرآنية التي حفظها في أحد الكتاتيب المبنية على عرسات في بعض مناطق كزامانس الأسطورية هي الأخرى، أو أحد اللاعبين المولعين بالفليبر، أو أحد أبناء البلد الشفوقين، أو إحدى الأمازونيات الجريئات أو أحد العمال المتحررين من الأحكام المسبقة، أو أحد عازفي القيثار ذي العيون

الرطبة، أو إحدى رئيسات المحطات بمحياها الجميل تكون قد وجدته مغرياً فتأمر بعض الوندال، وهم يركلون حقيبته، أمراً وجيزاً صارماً: «امشوا!».

إشارات، علامات تصميمات رسوم وما لا أعرف أيضاً ولكن التفصيلات الملموسة لا شيء كيف كانوا؟ كم كان عددهم؟ ماذا كانوا يرتدون، أي سن كانوا يبلغون؟ ماذا كانت انشغالاتهم؟ أعمالهم؟ والزواوي الآخر ماذا فعل فيما بين الساعة الثامنة ليلاً ومنتصف الليل في محطة لافورش، أربع ساعات! كي يقطع محطتين على السكة الفرعية رقم 13 مكرر (2,665 كلم).

لافورش ـ بروشان

بروشان ـ بورت دو كليشي

أعرف أعرف أن هناك احتمال الخطأ الذي يكون قد ارتكبه بالضرورة: في لافورش يكون قد ركب قطاراً يتجه نحو «لابورت دو سان أوان» على السكة «صالازار ـ كاروفور بلايال» أي السكة رقم 13 إذ أن قطاراً من بين قطارين يتجه إلى «بلايال»، وإذن فقطار من بين قطارين يتجه إلى «لابورت دو كليشي» على السكة «لافورش بورت دو كليشي» أي السكة رقم 13 مكرر، ولكن حين يصل إلى مفترق «بلايال» وإن افترضنا أنه ارتكب هذا الخطأ فإنه لم يكن له سوى أن يعود أدراجه ويركب القطار التالي الذي يكون قد أوصله بالضرورة إلى «لابورت دو كليشي» إذ هذا مذكور داخل المقطورات بلون مخالف بالنسبة لكل اتجاه

أزرق بالنسبة «لابورت دو كليشي»، برتقالي بالنسبة لمفترق «بلايال» أو العكس ولكن مع ذلك تحققوا لي من هذا، أي في نهاية السكة رقم 13 مكرر، ولكن ماذا استطاع أن يفعل حقاً خلال أربع ساعات ونصف من الزمن؟ صحيح أن عندنا شهادة تاجر، أحد مواطنيه المستقر منذ عشر سنوات الذي يسير مطعماً في الحي اللاتيني، رجل من دواره إذن يتحدث بلهجته والذي تعرّف عليه رغم سنوات من الفراق فقاده على الرصيف المتجه إلى «لابورت دو سانت أوان» أو «لابورت دو كليشي» حسب القطارات (واحد من بين اثنين) زاعماً بأنه دعاه للعشاء عنده ولكن الآخر يكون قد رفض رفضاً قاطعاً محتجاً بكون ابن عمه ينتظره وأنه مكلف بتسليم العديد من الرزم لأبناء بلده الذين يعيشون كلهم مثل التاجر في مدار ابن العم المتزوج بفرنسية. إني لا أعرف ماذا تجدون فيهم من خاص! ذلك الذي يكون قد غادره إذن حوالى الساعة العاشرة ليلاً بعد أن ثرثر معه فوق مقعد في انتظار وصول الكتلة؛ إذا كانت القطارات في هذه الساعة نادرة، تحققوا لي من الفاصل بين كل واحد ابتداء من الساعة العاشرة ليلاً. ولما رأى التاجر أن المترو تأخر غادره متذرعاً هل صحيح؟ بمشوار مستعجل أو بإمرأة غضوب أو ما لا أعرف من الأكذوبات الأخرى ولكن الشاهد لا يبدو عليه أنه واثق من نفسه ماذا استطاع أن يفعل خلال أربع ساعات ونصف من الزمن هذا تفصيل غاب عنكم! ولنعد حوالى الساعة العاشرة ليلاً ما زال في

محطة «لافورش» لكنني أتساءل لماذا نزل في هذه المحطة؟ ربما رأى أن القطار يتجه نحو «كاروفور بلايال» وأنه يجب عليه النزول هنا لانتظار القطار المتوجه إلى «بورت دو كليشي» إلا أن الأمر ها هنا يبقى بدون أي شاهد! لأن مقصورة رئيس المحطة توجد في الطرف القصي للرصيف عند الخروج من النفق وهذا ما يفسر أنه لم يلاحظ شيئاً أليس كذلك؟ ومع ذلك فهنا لم تعد تقف أمامنا تلك المشاكل التي لاقيناها في «باستي» أو في «صالازار» أو في «كونكورد» الأمر أبسط بكثير لا يوجد سوى رصيف واحد إذن حوالى الساعة العاشرة ليلاً يركب كتلة مترو ويتوجه نحو «بروشان» و«بورت دو كليشي» التوقع الأكثر سعادة أي نحو «غي موكي» «لابورت سان أوان» و«كاروفور بلايال» وهنا أيضاً لم يره أحد ورئيس محطة نهاية «بلايال» لم يلاحظ شيئاً وهنا تنقصني العناصر ألا يمكنكم أن تغيروا عطركم وهنا تبدأ عدم كفاءتكم تحرجني بدل أن تلوكوا حكاياتكم الخاصة بقطع الخطوط المستقيمة والمنحنيات، ولنفرض أنه غلط وأن ابن بلده الأبله لجهله القراءة لم يستطع فهم الإشارة المضيئة الزرقاء أو البرتقالية التي تشير حسب الحالة إلى اتجاه القطار في «لافورش» مثلما يحدث ذلك حين يكون هناك سكة مكررة مفترق «بلايال» (الضوء الأزرق) «بورت دي كليشي» (الضوء البرتقالي)، لقد تمّ التحقق من ذلك هذه المرة والسكك المشابهة لهذا لا تعد بالمئات، هناك ثلاث سكك بالتدقيق: السكة 13 مكرر

التي تصل «لافورش» «بلابورت دو كليشي»، السكة 3 مكرر التي تصل «شاطو لاندو» بـ «لابورت دو لافيلات» بما أن السكة 3 تتجه من «شاطو لاندو» إلى «بري سان جرفي» والسكة 7 مكرر التي تربط السكة 3 (بون لوفالوا ـ بكون ـ غالييني) بالسكة 11 (شاتولي ـ ميري دي ليلا) والتي تتجه من «غامبيطا» على السكة إلى «بورت دي ليلا» على السكة 11 يبدو أن هذا يدهشكم آه! ولكنني أكدت لكم في أغلب الأحيان أنني أنا الذي يقوم بالعمل دائماً، خذوا هذا المثل، فالطفل لاعب الفليبر يعرف المترو مثلما يعرف جيبه ولكنكم رغم تحقيقكم فيه منذ عدة أسابيع ما زال لغزاً بالنسبة إليكم ولا تقولوا لي بأنكم لا تحبون رائحته إذ ستنتهون إلى إغضابي. لنعد إلى موضوعنا إذن على أقصى تحديد يكون قد قطع مسافة الذهاب والإياب «لافورش» ـ مفترق «بلايال» أي 4 (محطات) × 2 مما يساوي ثماني محطات زائد مسافة «لافورش» «بورت دو كليشي» أي محطتين مما يساوي عشر محطات في المجموع على وتيرة دقيقة وثلاثين ثانية في كل محطة لأن الزحام قليل والقطارات تسير بسرعة أكبر نظراً لأن الشبكة تكون شاغرة تماماً أي خمس عشرة دقيقة؛ كل هذا يؤدي بنا إلى العاشرة وثلاثين دقيقة كأقصى توقيت تنقصنا ساعتان وليس في حوزتكم شاهد سيعطينا معلومات بهذا الصدد كلا ولكن أنسيتم أن هنا.

التصميم المزدان بالخطوط، الأرقام والإشارات بشكل

دوائر متراكزة مركزها الهندسي يكون يقع في «بالي روايال»، في تقاطع القطرين: الأول يربط «بون دو نويي» (الشمال الشرقي) بـ «ميري دي إيفري» (الجنوب الشرقي) والثاني يربط «اغليز دو بانتين» (الشمال الشرقي) بـ «بون دو سافر» (الجنوب الغربي) أو، بنفس النتيجة، عند التقاء عمودين، الأول ينطلق ـ أفقياً ـ من «ميري دو مونتروي» (الوسط الشرقي) «المويات» (الوسط الغربي) والثاني يتجه ـ عمودياً ـ من مفترق «بلايال» (الوسط الشمالي) إلى «بورت دورليون» (الوسط الجنوبي) إنه يشمل خمسة تشعبات منها ثلاث مفتوحات على شكل شوكة ذات سنين ومكونة من جهة بالسكتين 13 و13 مكرر ومن الأخرى بالسكتين 7 و7 مكرر وفي الأسفل قليلاً بالسكتين 3 و3 مكرر بينما الأخريان مغلقتان وتشكلان، الأولى، مربعاً لونه أصفر حين تلتف السكة 7 مكرر حول نفسها وترسم مربعاً كل ضلع من أضلاعه يصنع قطعة تقع بين محطتين تتوضح على هذا المنوال:

«ـ بوتزاري ـ بلاس دي فات.

ـ بلاس دي فات ـ بري سان جرفي

ـ بري سان جرفي ـ دانوب

ـ دانوب ـ بوتزاري».

والثانية، رسم لونه أسود يأخذ مظهر زجاجة مربعة عنقها موضح فوق الرسم بالشغرات «جافيل» «اغليز دو تاي» و«جافيل ميرابو» على السكة 10 التي تربط «أوتاي» «بجار

دو لسترليتز» (حيث نزل الآخر ذات 26 سبتمبر 1973 حار صباحاً غير ملهم، غير حليق، يرفرف في بزة وقاد أطرافها تضرب جنبيه، يرتدي سروال نسيج محبك منقط نقاطاً رمادية وحمراء، لقبته «فكيراً» بعض العجائز المتقاعدات اللواتي يزردن الصوف على رصيف المحطة حيث تأتين تتسلين بمشاهدة ذهاب ووصول قطارات ضخمة في ضجة أصوات مختلطة لا تكاد تسمع، تقطعها مكبرات صوت ذات نبرة منخفضة جداً، تتجاوزها ألغاز اللغة المتداخلة؛ كان ذلك في أحد أيام الأسبوع حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً وبداية التيه الذي لا يمكن وصفه لساذج يحدد الخطر، في قوة حديدية، ذراعه اليسرى دائمة الدفع إلى الأمام قليلاً، تسبق الجسد ذاته، وفي طرف اليد، الحقيبة المخددة بألف جرح والمزروعة بألف حدبة وقصاصة ورق مضغوطة بين سبابة وإبهام اليد اليمنى وتذكرة مترو، موضوعة هي الأخرى في جيب قميص كاكي، لصق القلب تماماً، مفتاح اللغز وفي نفس الوقت وصية ثقيلة من «العسكر» الذين منحوها له ـ خلسة ـ لحظة لم يكن هناك أحد ينتبه إليهم في غوغاء الفراق! فرحاً لنجاته من الغرق، بعد عبور مهول قضاه متشبثاً بعرسة من عرسات الجسر لا يتجرأ أبداً على النظر إلى اللجة المزبدة البيضاء الزرقاء للبحر، سعيداً لعدم إصابته بضرر في جسمه المقاوم) التي يكون طرفها الغربي وهو على شكل زجاجة بجوانب مربعة أكثر منها مدورة، يكون القطع التالية:

ـ اغليز دو تاي ـ ميشال أونج أوتاي.

ـ ميشال أونج أوتاي ـ أوتاي.

ثم،

ـ ميشال أونج ـ موليتور ـ شاردون ـ لاغاش.

ـ شاردون ـ لاغاش ـ ميرابو.

أقصاها مجسد بمقطع أوتاي ـ ميشال أونج ـ موليتور بقدر ما تشكل التفرعات المفتوحة (13 ـ 13 مكرر، 5 ـ 5 مكرر، 3 ـ 3 مكرر) منحنى ممتلئاً ومحرراً يتجه ليصطدم بالأصفر المنقط قليلاً بالأحمر ذاك الذي يمثل الضاحية على البيان، بقدر ما تبدو التشعبات المغلقة (7) + (10) فظة متجهمة ومتقوقعة كما لو كانت كل واحدة من أبازيمها التي يمكن ربطها بسهولة بقطر يمر «باستراسبورغ» ـ «سان دونيس»، «بالي رواينال» و«لاموت» ـ «بيكي» ـ «غرنال»، كانت تحرس بيقظة متذبذبة قليلاً، المخرجين الشرقي والغربي للمدينة على طريقة عشي لقلاق منسوجين في قمة خطين (الأصفر والأسود) ويبدو أن لا علاقة بينهما وإن كانا متضامنين بشكل رهيب حيث يأتي ـ من أعلى ومن أسفل ـ ينفجر عليهما العديد من الخطوط الأخرى باستثناء تلك التي تحمل الأرقام 13، 13 مكرر، 7، 7 مكرر، و3، 3 مكرر، ليست لا مفتوحة ولا مغلقة وإنما هي مختفية، تندس فجأة كما لو كان ذلك ضرباً من السحر ذاهبة إلى حيث لا يدري المرء، ربما نحو بعض الواقع الجغرافي يتنبأ به بغموض، ماوراء التصميم، مثل منحنى

النهر قليلاً. صحيح أن هذا الأخير أزرق غير أنه ينتهي على حين غرة دون أن يعلن شيء عن مصب أو بحر، أو نهر آخر سيصب فيه... بما يشبه قليلاً أيضاً الطريقة التي جسدت بها قناة «سان مارتين» شمال شرقي الخريطة، بخط أزرق بنفس لون النهر في انحنائه التام صراحة، لكن مع هذا الاختلاف كون الخط هنا أكثر رقة بحيث يعبر بذلك عن ضيق القناة، الشيء الذي يشكل تدقيقاً مهماً وإن كان لا يشير إلى المكان الذي ينطلق منه هذا التعرج المزرورق المنطلق من الشمال الشرقي (اغليز دو بانتين) والمتوجه ليصطدم بقسوة بمجموعة خطوط ترد كلها إلى «روبيليك» بواسطة نوع من التشعب القائم الآتي من الشمال ويقع إلى الغرب قليلاً من قوس الدائرة ذاته الذي ينطلق من «أوبرفيليي» ويأتي ليموت لصق المنحنى بعذوبة بما يشبه قليلاً طريقة قطار يدخل المحطة ويتوقف بليونة على مبعدة سنتيمترات من المقطع الضخم. غير أن الفروع الأبازيم، منحنيات النهر والخطان اللذان يجسدان قناة سان مارتين رغم أنهما في الضواحي أي هامشيان، لا تنفلت من قانون التشابك الذي يكدس كل شيء، يخلط كل شيء وإن كان بجزيء أيضاً ويكسر كل شيء من خلال نسيج خطوط يأتيها ليونتها الوحيدة ولطافتها الوحيدة من هذا التقعر المنطوي بلا توان على ذاته الذي يخفف قساوة التكاسر الأبدي الذي يضيق المنحنيات والمستقيمات والنقط، ملتوياً باستعجال مدهش كما لو كان يبحث عن بعض الراحة، بما

أن الأفق، في نقطة الاستراتيجية، صار مسدوداً بسبب تلك الالتفافات المعقودة أو المتفرعة كعلامات اليأس والضيق الذي سينقض على المسافر المطارد بالشمس التي لم يكن ينتظرها، هو الذي كان يتصور أن الثلج يسقط هنا بغزارة طوال العام، بادئاً رحلته بشكل سيء، مبخّراً عرقه، يستنشق من المحيط هواء هلامياً ورطباً لم يكن قد ارتاب ـ في القطار الجاري بسرعة 150 كلم/س بهدوء أمن حيوان تأسلي يعرف أين يتجه ـ في النداوة التي تبلل عبر الهيكلة المسمتة للمدينة، خليط الشوارع، الحدائق، السيارات، العمارات التي رآها من مسافة جدّ بعيدة، تنعكس على جناحي القافلة المأخوذة برغبة آلية لا تقاوم في الانحراف عن سكتها كي تتجه لتحطم مجموعة البنايات المعمارية القريبة من الشارع أو المتكدسة بتواز على مختلف المستويات فوق رؤوس المسافرين الذين يعزوهم، هم الآخرون، دافع ميكانيكي بمجرد التخلي عنهم على أرصفة المترو حيث تستقبلهم امرأة مبتسمة تمسك من اليد طفلاً مقهقهاً وصورتاهما تتكرران على ملصقات واسعة كما لو كانا يرحبان بهم، بدل أن يعلنا إشهار منتوج يبقى تحديده مطروحاً.

إن الصورة المعروضة توقظ على الفور دفعة تعاطف ليست منعدمة العلاقة بالحنين الذي يحسه في استحضاره بأنه نزل فعلاً في بلد الآخرين وأنه ليست هناك أية إمكانية للرجوع إلى الوراء، بالتأكيد نتيجة غبطة الحياة التي لا

تقاوم المنبعثة من الشخصين: الأم وابنها. المرأة ترتدي فستاناً بنياً من القطن تخدده أشرطة عرضية صفراء، كماه الطويلان المشمران حتى المرفقين يكشفان عن رسغين جد لطيفين تزينهما أساور رخيصة خمرية اللون. إن الفستان العادي النحر الذي يظهر قلادة تحيط بالعنق، طويل جداً ويكاد يغطي الكعبين، الشيء الذي يوصم المرأة بنوع تجاوزته الموضة وبالمقابل يبعث على الثقة والتصديق. تحت إبطها الأيسر، تمسك شنطة يدوية من الجلد البني، أي تزاوج فستانها وكذا الحذاء العالي الكعب الذي تلتف سيوره حول العرقوب بلونه البني عند مستهل القدم والصوفي على الجوانب التامة مشدودة بحزام أسود رقيق جداً. شعرها القصطلي القليل الطول ذو المفرق على الجانب الأيسر لين يبعثره قليلاً ـ قدر المطلوب تماماً ـ صبا نتنبأ بخفته وفتوره بسبب ألوان الفستان الزاهية، الذراعين العاريين وأعلى الصدر المكشوف وأخيراً الحذاء الخفيف الربيعي ـ إنها تسير في شارع نعتقد أنه مغطى بأقبية ريفية نوعاً ما وتبتسم ببساطة كبيرة للعدسة، دون أية مبالغة أو عطف. خلفها، أشباح مارة يكادون يكونون مضببين غامضين وإن كانوا يرتدون معاطف كما لو كانوا ينبئون بأن الشتاء كان قاسياً وأنه رغم الربيع، فإن بعض الناس ما زالوا متحذرين ويفضلون الاحتراس من تغيير مفاجيء أو من مطر غزير، صحيح أنه قليل التوقع، لكنه غير مستحيل، وكذا واجهة صورت بالتلاحق ربما كانت

واجهة صيدلي، بسبب الألواح التي تعرض أقراصاً مضادة للسعال أو تعرض «البليدين» والمعلقة على الجدران بين ثلاثة أبواب. الرصيف الذي تسير عليه مغطى ببلاط بني وتحت قدميها وقدمي طفلها مباشرة تظهر حوالى عشرة صفوف من المربعات البلورية الملصقة بالأرض وتبرز لطخات ضوئية في المادة التي تغطيها. الطفل الذي تمسكه من اليد يرتدي سروال قطيفة أسود، صداراً أبيض مشطباً بالأحمر والأزرق عند الخصر والرسغين وعند الياقة ذات الشكل «7»، قميصاً من القطن الأبيض ذي مربعات حمراء وسوداء ياقته مفتوحة وتحت شعار أبيض ـ الحذاء الذي يلبسه أصفر، نتخيله ليناً جداً. الأم وابنها يتقدمان بخطوات متعجلة ويبتسمان باتجاه نفس النقطة الشيء الذي ينبىء بأنهما رأيا أحداً يحبانه فعلاً أو يحبانه أو يهيمان به أحد المعارف، قريباً، أو زوجاً، أباً، إلخ. حركة السير لا تشير إليها وضعية القدمين فحسب الواحدة تلو الأخرى، فيما يخص المرأة، مع رفع القدم الخلفية قليلاً، وقدما الطفل المحركتان حقاً وإن كانتا تكادان تكونان في نفس العلو الشيء الذي يجعل المرء يفتكر أنه يسير ببطء أكبر من أمه المجبرة على مساعدته كي يمشي بنفس السرعة بجره من اليد التي تضمها بقوة وإنما يشير إليها (الحركة) أيضاً التموج الذي يسري في الفستان القطني للمرأة الشابة ذلك التموج المنطلق من الأسفل خالقاً نوعاً من التململ البالغ أعلى الخصر الذي يحوط القماش امتشاقه ويبالغ نوعاً ما

في تداوره، وكذا الذراع اليمنى للطفل المبعدة قليلاً عن الجسد، كما لو كانت لتساعده على المشي بسرعة أكبر قليلاً (على غرار المتسابقين في المشي وإن كانوا هم يقومون بحركات أسرع وأكثر تواتراً، سواعدهم مثنية، في نوع من الهزلية، كما لو كانوا يحركون آلياً غير أنهم ينبجسون من الطرق المتلألئة التي ينسحب إسفلتها بذرة بذرة تحت خطواتهم كمتسابقين يبهرهم العياء، على شفا نفاذ الفضاء والصبر، تبتلعهم حركاتهم ذاتها والضوء الذي يثقبهم بلطخات يتراكم بعضها فوق بعض على مستويين. مخلعي المشية. مفككي المفاصل. في حالة يرثى لها) وهو يبدو في مظهر غير متوازن، الأكيد أن ذلك ناتج عن ذراعه الأخرى الأفقية الوضع، تدعمها يد الأم التي تضم بقوة يده، المظهر الذي يزيد في شدته السروال المنتفخ فوق الحذاء والجيب البارز على الركبة اليمنى حيث يصنع تحديداً هزلياً وسخيفاً في نفس الوقت.

هو، المصاب في لب القلب، يستغرق في تأمل الصورة ولما لم يكن يستطيع القراءة، فإنه يغفل الشعار المطبوع بحروف زرقاء على عمق أبيض (**أميرة، لزازة اللطافة**) قائلاً في نفسه أنه كان يجب على «العسكر» أن ينبئوه أن الاستقبال في محطات المترو لطيف وأن الأمر قد يصل حتى درجة إنفاق المال لإنجاز هذه الصور العملاقة التي تمثل أماً سعيدة وطفلها الذي لا يقل عنها سعادة كي يرحبا بجميع خلق الأرض، وهو من شدة تأثره تحمله الذكرى

إلى أطفاله الذين كان يهملهم، حين كان في الجبل، وينصرف لأصدقائه العاملين انطلاقاً من القبو الذي يفوح برائحة الوذح والقرفة، فيشعر أنه يخترق بتأنيب الضمير الذي سرعان ما ينمحي أمام احتواء جيب قميصه الكاكي لصق بشرته تماماً ولصق قلبه تماماً، تذكرة المترو، مفتاح الحصن الذي يجب فتحه وآخر ذكرى صداقة من أحسن رفقائه الذين كان يعتقد أنهم يكونون جذلين، في هذه الساعة، لعلمهم أنه وصل فعلاً، كما لو كانوا ـ في ذهنه ـ يقتفون تقدمه بمساعدة نوع من الردار الحادس من اختراعهم لشدة ما يعرف عن مهارتهم وغرقهم في الكيمياء العبثية للمواصلات التخاطرية. وهم، هناك يجمعون حولهم بعض الأتباع الثانويين ويبينون لهم على خارطة معلقة بالجدار، بمساعدة قضيب طويل من خشب الزيتون، تفاصيل المسار الذي كانوا يبالغون ـ بتهكم، بما يشبه قليلاً طريقة العراف ـ في تعقيده، كما لو كانوا يريدون أن يبينوا انطلاقاً من هذا، أنهم رأوا مسارات أخرى ولكن هو لم يكن له أي حظ في الخروج من المأزق وأنهم كانوا ـ مع استمرارهم في برهنتهم الجغرافية ـ على موعد مع وصول ساعي البريد، المعبر كما لو كان مكسوباً، وهو يحمل برقية تعلن موته غرقاً في البحر الكبير، أو اختناقاً في المتاهة الشاسعة، شارحين السكك، الاتجاهات، المنحنيات، التشعبات العقد والتعاريج، مرتكزين في قاعدة انطلاقهم على محطة ليون وجاعلينه يسلك أولاً السكة 1 (شاتو دو فنسان ـ بون دو

نوبي) بينما هو كان قد سلك السكة 5 (بلاص دي إيطاليا ـ اغليز دو بانتين) إذ لم يكن يعلم أبداً أن القطار كان قد حول عن محطته المعتادة في آخر دقيقة، وقد بوغتوا فيما بعد حين أخبروا بالتفاصيل الصحيحة للرحلة، فلم يتجرؤا على نشر توضيح لأنهم كانوا حزينين كثيراً ومتعبين كثيراً ولم يكونوا يريدون فقدان الأتباع النادرين الذين ما زالت لهم بعض الثقة فيهم، منذ أن راح موت المهاجر يحرض ضدهم معظم سكان «الجبل»، باستثناء بعض المسوسين، المتعنتين في إخلاصهم ذي الاستفادة الواضحة. بينما هو، تبهره الشمس وتحيره ابتسامة (إن وجه المرأة، المتأخر قليلاً بالمقارنة مع وجه الطفل، أكثر دكانة وأكثر تضبباً، الشيء الذي يجعل الملامح الرقيقة حقاً للمرأة الشابة تبدو ممحاة نوعاً ما، (على غرار تلك التماثيل القديمة قدم البشرية التي تآكلت أنوفها ورموشها بفعل الزمن وفقدت أسلوبها التمثيلي في صالح لامرئية لم يقصدها الفنان وإن كانت تمنح الشيء القديم الفن مظهراً غير مكتمل يدعم جماله) بينما تحت العينين، تحفر الهالتان البشرة بعمق، تكرمشانها وتزرقانها من خلال خط أفقي ينطلق من زاوية العين ويتوقف فوق الخد المنتفخ (الاختصاصي هو الإنسان الوحيد الذي يمكنه أن يعد لزازة مثل لزازة أميره: تقنيتها في التمدد التدريجي والجانبي، مادتها الملساء والنخاعية، حجمها الصغير الذي يتلاءم تدريجياً مع جسد المرأة، كل ذلك يمنح أماناً مطلقاً وراحة تامة) والمنقبض بفعل

الابتسامة الخجولة للمرأة، يتوافق مع الانبهار الفطري للطفل الشيء الذي يؤكد فكرة أن المرأة وإن كانت متعبة، ما زالت غير مشرفة على الموت، وأنها قادرة، أيضاً، على السعي عبر الشوارع، تحت أقواس مدينة خرقاء نوعاً ما ماسكة من اليد بقوة صبيها المشوش الحيوي، ربما لأنها تطعمه...) الصورة، يعد نفسه للغرق في المتاهة التحت أرضية غير واع بالخطر الذي يترصده، يبعث فيه الأمان، هذا الاستقبال التصويري، ناسياً نبوءة «العسكر» الذين لم يصلوا إلى اطلاعه سر مناقشاتهم الرمزية.

ثم الدهاليز تتلو الدهاليز، يتداخل بعضها في بعض وتدور في الواقع حول نفسها، تلتف حسب دائرية قطعية شيدها صرحاً بناؤوها الهاذرون والشاعريون الذين لا يثقون البتة في استقامة الخطوط، مفضلين المنحنيات التامة والشبقية على القطع المستقيمة الجافة الباردة، لا سيما وأنه بهذا الشكل نعود دوماً إلى نفس النقطة مثل بخار يدور حول العالم ويعود بلا توان إلى نقطة انطلاقه، الشيء الذي يحدد المغامرة ويجعل كل رحلة تسويفية نظراً لأن الطرفين يتلامسان وأن الانطلاق يختلط بالوصول، بينما الغريق ما زال يتشبث دوماً بحقيبته، يتعثر بشباب شعث يطلبون منه فرنكاً كي يذهبوا يشترون لأنفسهم شفرة حلاقة فيحصلون على وجه جديد أبيض مدهون كقناع كرنفال، لا سيما وأن الموسيقيين العديدين يعرقلون سيره نحو الأرصفة ذات المشاكل المتعددة الحضور الجهنمي حيث تتقابل، متشابهة

في جميع النقاط، بنفس الملصقات، نفس اللوحات، نفس الألوان الخزفية التي تغلف الجدران، نفس الأقفاص المزججة حيث تنطلق أجراس حادة تقطعها بغتة كلمات غريبة كما لو كانت تعدل بتمطط وتتردد في ذاكرته، بينما فوق المقاعد، يعاقر رجال ونساء عيونهم مملوءة بؤساً، كل من جهته، ألمهم وخمرهم في اللامبالاة التامة التي تفاجئه في الوقت الذي يجتر فيه بكل طرف رصيف، مسلوخون أحياء، اجترارات حيرى ويتقابل صداهم دون اعتبار منطق تداخل مناجاة هذا وذاك، بما يشبه قليلاً تلك الخطوط التي تتولى عبر خريطة البلور الأبيض فتلونه بالأصفر، الأزرق، الأخضر، الأصفر ثم الأزرق، من جديد، غير أنه مرقون بالأحمر، ثم بالأخضر، لكنه مرقون بالأبيض، ثم تلتف كي تنتهي إلى انحراف عبثي، حيث لم تعد تعرف أين تتجه، بما يشبه قليلاً، تلك المناجاة التي تصدر عن الرجلين المغلق كل منهما في أفكاره الثابتة وتهويماته، حيث تتداخل دون أي نظام ظاهر، وإن كان خطها الموجه، هو سأم الحياة، العزلة وحقد الآخرين. إذن فالدهاليز تتلو الدهاليز إذ ما زالت هي هي، ما زالت قاطعة بلا أي اختلاف مكفهرة تحمل ألواحها الوردية والحمراء كضمادات جرحى في خطر، فتشوّه أديمها الباهت والشاغر مما يزيد في قبحها، حيث تشتته صورها، تحرجه وتسئمه كسن مريض مغروس بين عينيه، وقد راح يقسم في أعماق نفسه أنه لن ينظر إليها، غير أنه سرعان ما ينهزم أمام إصرارها وتلونها

وأشكالها التي تبرقع بقسوة الخزف المكفهر والمبيض وتعود لتنبجس على رؤيته الخاصة المشوشة في هذا الضوء الشاحب للقيامة، الذي يسقط من مصابيح لامرئية منقوشة في الطيات العالية جداً للجدران، ذلك الذي لا تتغير رداءته كما لو لم يكن هناك لا جو جميل ولا جو مكتئب، ولا أمطار ولا برد ولا طوفان ولا صقيع ولا رياح ولا انتحاءات، بحيث يغمره من الرأس إلى أخمص القدمين ويطبع ملابسه بلون لا يمكن تحديده كما لو أن البزة النيلية غطيت برماد، وكما لو أن سروال الجوخ غطس في ماء جافيل... الآن، عرف أنه ليس أسير خطوط التصميم التي تطبع دماغه فحسب، وإنما هو أيضاً أسير هذه الطبقة من النور الباهت والحزين إلى درجة أنه لم يعد يفكر حتى في الخروج من المأزق، إذ ليس له أن يختار إلا بين رصيفين، ذلك الذي يوجد فوقه وذلك الذي يقابله، هو الذي لم يعد له الاختيار، وقد تخلى عنه رفيقه المستعجل لقضية مريبة والمتذرع بامرأة لا يمكن قهرها، مضبوطة على الساعة الإلكترونية لإذاعة قريبة كانت تستمع إليها صباح مساء، حتى حين يكون جهاز التلفزة موقداً، وإلا فإنه يتعثر بثبوت العيون الباهتة الخالية من كل جاذبية لأولئك الذين يمرون أمامه، مستعجلين، حتى لا يتجاوزهم القطار، كما لو كانت ثقتهم بالمكان الموجودين فيه وعلمهم أين يذهبون، يجعلانهم أكثر اعتداء وإساءة وانعزالاً أيضاً. وبقبضة حقيبته تنغرز في بشرة يده الميتة، يهاجمه في مفترقات الطرق

أناس متعبون، يمتصون ظلالهم بخزي في مساعٍ مائلة كما لو كانوا هم ـ بخلاف القلقين ـ يتجهون لعذاب غرف ضيقة وحزينة وباردة حيث سيطرحون أحلاماً وهمية عليلة، وربما راح المسافر الذي شحب محياه، الآن، وعصره الضوء والمعدن، يشبه مهرجاً مضجراً وحائراً بعينيه اللتين اقتربتا من أذنيه، مثل ثغرة ناتجة عن التعب، إلا إذا كان أصله الفلاحي هو الذي يطفو ويجعل مشيه أكثر قلقاً وأكثر تعكراً في مستقبل الممرات المسدودة والمحكمة الإغلاق، بينما الإرهاق يمتص منه كل طاقة ويوصمه بتورمات تجعله يبدو في حالة مغالطة لشدة ما قطع من مسافات، بعكس التيار ورغماً عنه، دون أن تكون له إمكانية التمييز بين الحقيقي والخيالي، وهو يعاتب نفسه على اتخاذه الابتسامة المصورة للمرأة الشابة ذات الصبي المقهقه، علامة ضيافة كما يعاتب نفسه على عدم فهمه التنبؤات الشيطانية «للعسكر» الذين تجادلوا لليالٍ طويلة في موضوع بحجم خطورة تعقد شبكة مترو المدينة حتى أنهم انتهوا إلى أن علقوا خريطة تمثل تلك الشبكة بالجدار، كي يشرحوا للمتواطئين معهم موته الذي لا محالة منه وقد حكم عليه بالغرق أو الاختناق، إنه يسير، مرتعداً من الحنق والتعب تحت الجزيئات المنملة، في ضيق النور، قاطعاً بالخطو تاريخه ذاته المبلط بالجثث والصلوات، يقرع ذهنه في شكل فتيلة قطنية، هيكل مقصلة مرسومة في تأمل لوني وخنجر يقتص لحمه المتورم، يوشم بشرته كفلاح فقير تحت رحمة القتلة.

بما يشبه قليلاً الآخر، المحبوس منذ عدة أيام وهو يكرر في زنزانته: «ولكن لماذا أكون قد قتلته؟ لم يكن يعرف القراءة وكنت أقرأ مكانه بعينيه. لم يكن يعرف الكتابة وكنت أكتب مكانه، بيده ذاتها. لم يكن يعرف يوجه نفسه وقد دللته على الطريق ببصيرته ذاتها. لم أساعده! لقد امتزجت به وتضاعفت في شخصه لماذا أكون قد قتلته بمثل تلك البشاعة؟ على الصور التي تورونها لي كل يوم، حتى أعترف اعترافاً كاملاً، لم أتمكن حتى من التعرف عليه، لشدة تفسخ حالته وهو مرضرض، مكسر، مفجر. بطريقه المكتوبة على مجرد قصاصة كان يريد أن يفرضها علي بتنويمي بنظراته في صمت كان يجهل الخداع الذي كنت أنطوي عليه، إذ بينه وبين أنثى ناعسة، كنت قد اخترت ألا أفوت فرصتها هي، سيما وأنهن هنا أشد تحملاً مما يعتقد كما أنه من شدة ندرة سعادتنا نتردد في حمل عبء أخ عندما تكون الأخرى تنتظر بحرارتها التي تذيب «الصر» وبريقها الذي يبعد التخوفات كلما وجدت نفسي أمام النعيم الذي يفوح بالخطيئة والحرام. بطريقه المسجلة في ورقة، كان يجمد عليها السبابة والإبهام، تلك التي كان يريد بالتأكيد أن يفرضها علي باسم تضامن كان يشعر بضرورته في غموض كما لو كنت أرضاً صلبة، عثر عليها، فجأة، في غمرة الغرق المشكل بالملتقيات، بالمفترقات وبالاتجاهات العديدة والمتشابكة حسب خريطة تجنن وافتراق الخطوط، على ضوء العوائق التي تجر معها

الانحدار وعدم التناسق. ثم موت، بقلب مفتوح، على أيدي رعاع نعرفهم، رغم أننا لا نقوم سوى بالمرور بمعاملهم، لمجرد زمن تمييع حلمنا في الفولاذ لجعله أكثر صلابة، وإلى اللقاء! لم يعد الأمر يتعلق بالعمل! حطام! ينقل من قطار الوسق إلى شاحنة جمع القمامة، إنهم يشرعون في استجداء مهول ويدعمون جأشهم بقوة قوية مرة يعدونها بأنفسهم ليوفروا استعمال مرهم الأسنان وليكون تنفسهم معطراً حين يورون أسنانهم إلى الرؤساء المنتفخين الذين تشتم منهم الحموضة؛ هو لم يكن له علم بكل هذه المأساة المعاشة كل يوم دون صدور صراخ يكسر هدير الآلات الجهنمي. فنظراً لأنه كان يمسك ورقة مكتوبة، كان يعتقد أن مستقبله ومستقبل القبيلة التي بقيت متشبثة بالجبل أصبحا مضمونين لقرون، إذ أنه كان مقتنعاً بحتمية الرمز المرسوم بالحبر، سيما وأنه لا يفهم ما ينطوي عليه من حماقات وورطات ـ لم أتمكن حتى من التعرف عليه لشدة تفسخه. مشوهاً موصماً. ممحياً ـ إلا إذا كان الأمر يتعلق بآخر... هناك العديد من أولئك الذين ينزلون بعمى ويقتحمون ممرات المترو ـ غير أني لم أقم سوى بمرافقته حتى محطة «كونكورد» بعد ذلك، تخليت عنه لأذهب إلى ملاقاة أنثى كانت تزوي ما بين حاجبيها بشأن التوقيت العاطفي. إذن فأنا أملك تبريراً. غير أن هذا لا يمنع من أني خدعته. إن حكاية أثر القدم التي تثيرونها لا أساس لها. إنكم تقولون هذا لتخويفي إلا أنني أملك قدمين

نظيفين بدل أن أملك يدين مضرجتين: إن هذا صعب مع كل الشحم الأسود الذي آكله في غمرة الحنين إلى إيجاد التراث. إني أعرف أيضاً أنه كلما تعلق الأمر بنا، وقع 'لتزوير، ومهما اشتدت ثرثرتكم ومهما وبختم نائبكم، إنكم تشبهونه، ما عدا كونكم أكثر صلفاً بينما هو أكثر بدائية. لماذا أكون قد قتلته إذن؟ كي أسلبه ماله؟ لو كان له مال، ما كان ليأتي يضيع في ورطة العاصمة وأنا لم أكن عاملاً أجيراً منخرطاً في النقابة بشرعية وإن كنت بالشرعية ذاتها مستغلاً، مهاناً ومحتقراً مهما أفعل، سأبقى أنا أنا في نظركم، الآن تحاولون تخويفي؛ هو كان قد حسبني من المتميزين لأنني كنت أعرف قراءة ورقته. الغالب أنه يكون قد رأى في صفة خائن، الأكيد! لم يكن مخطئاً تماماً ـ بذريعة أني أملك ترقيماً في صندوق الضمان الاجتماعي وأحمل بطاقة أجرة في جيبي، وقعت في التساهل، فتخليت عنه هناك في محطة «كونكورد» ـ كان يحق له أن يحذر مني كان لا يريد حتى الجلوس ـ ولم أكن أستطيع حتى النظر إليه. غير أن حكاية أثر القدم التي تحتجون بها، أصبحت حكاية قديمة. إننا متعودون على ذلك!».

من شدة تلعثمه وابتلاعه كلماته، انتهى إلى أنه لم يعد يفهم بنفسه ما يقول، ومن شدة فقدانه خيط أفكاره وهو يقول حسناً! أين كنا قد وصلنا؟ مهما قلتم أن لا دخل له في القضية، سأحتفظ به مع ذلك، يبدو لي أكثر يقظة بالنسبة لـ. إنه يتحدث كثيراً ويحسن التحدث بجودة أكثر،

من ذا الذي علمه أن يتحدث مثلي ومثلكم؟ بل أني أذهب إلى القول أنه وقح، إنه نقابي بالتأكيد، لكن بمجرد ترتيب الملف سأراقبه وعندها، الطرد! وعلاوة على ذلك يجب ألا يرتب الملف قبل أن تقام الدنيا للعثور على هؤلاء المازحين الصغار، الأكيد أنهم لم يكونوا قد أنذروا بأن هذا قطاعي وإلا لعبوا لعبتهم بعيداً قليلاً، وهو ماذا جاء يفعل ألم يكن يستطيع البقاء في موطنه؟ متى كان التاريخ الدقيق لإيقاف الهجرة كما أقره وزيرهم الكبير، يوم 14 أم 25 سبتمبر؟

البيان الرسمي

ـ من مراسلنا ـ

الجزائر ـ صدرت جريدة «المجاهد» هذا الصباح 20 سبتمبر بعنوان بارز يمتد إلى خمسة أسطر ومؤطر بالأحمر: «ـ العنصرية: التوقيف الفوري للهجرة إلى فرنسا، يقرر مجلس الثورة ومجلس الوزراء .ـ عدم الانحياز: فحص آفاق العمل خلال السنوات الثلاث القادمة» .ـ بعد أن استعرض البيان الرسمي نتائج «القمة» الأخيرة لبلدان عدم الانحياز، صرح: «وعلاوة على ذلك، درس مجلس الثورة ومجلس الوزراء وضعية الجالية الجزائرية بفرنسا وقد صارت مأساوية سيما إثر موجة العنصرية التي عصفت بعمالنا قبيل انعقاد المؤتمر الرابع لقمة البلدان غير المنحازة.

ـ إن مجلس الثورة ومجلس الوزراء، درسا هذه المشكلة العويصة بجميع متطلباتها ومع خشوعهما أمام ذكرى هؤلاء الشهداء الجدد، أصرا على التنويه سواء بالنضج السياسي للجالية الجزائرية، التي عرفت كيف تتغلب على كل التحرشات أو بالأصوات الفرنسية التي نددت بجميع مظاهر العنصرية التي انتهت، اليوم، إلى الاغتيالات الإجرامية.

ـ إن مجلس الثورة ومجلس الوزراء ينددان بشدة بالقوى السرية التي تعمل على تقويض تطوير العلاقات بين الجزائر وفرنسا، بل بين العالم الثالث وفرنسا. لقد اتخذت إجراءات تحفظية وتقرر على الخصوص التوقيف الفوري للهجرة الجزائرية إلى فرنسا في انتظار أن تضمن السلطات الفرنسية ظروف الأمن والكرامة للجالية الجزائرية».

ـ وهذا الأحمق الذي قدم يوم 26! كان الأجدر به أن يحجم، لم يقم بهذا إلا لتقف في وجهي كل التعقيدات إذ يجب عدم الاعتقاد بأن الأمور تجري هكذا ببساطة، ملف مودع مرتب، واحد زائد، واحد ناقص! كنت سأوافق، لكن يكفي أن يقع الملف في يدي قاضي بحث حرون وإنساني كي ألاقي مشاكل وهذا ما لا أقبله أبداً! لي تقدير في الساحة وسأحافظ عليه، بالطبع إنكم تحسبونني معيباً مهووساً بالإثبات لكن هذا يبقى ينتظر البرهنة، كلا ويلكم ماذا تعتقدون؟ إنكم ستحكمون هنا، إني أنذركم: إن زملاءكم لا يحبونكم، أوه! إن الأمر لا يتعلق بهذه القضية! فهذه يوافقونكم فيها، بل تأكدوا فالأمر لا يتعلق حتى

بعطركم إذ ليست حاستهم الشامة في مستوى حاستي! لكن حركاتكم، سلوككم اليومي، حذاءكم، رباط عنقكم، إنهم لا يحبون هذا إنكم تجسدون عهد التحريم أو ماذا، علاقاتكم الدموية بصقلية؟ لكن يجب ألا نفقد الخيط ولنعد لقضيتنا فهذا الأثر حتى إن كان يطابق أثر حذاء هذا العامل الأجير المخبول المثقف الأحمق هو أثر تافه منذ أن... كيف أقول عثر... نعم عثر على الأصل! لا يمكن أن نستعمله ضده وعلاوة على ذلك، لا أريد مثل هذه الخزعبلات في قطاعي، طال الزمن أو قصر سيسقط الشيء على رأسي وكواك! لا أحد... ولا حتى أنتم رغم كراهيتكم لهم، أنتم تعرفون، يكفي أن تتغير السياسة، يكفي أن يأتي «زواوي» منهم يوقع عقداً لبيع بعض صفائح البنزين و«افلان»! إنها الفوضى، الهروب لمن استطاع، «البوس بوس» و«الكيف كيف» سيأخذان صدارة الحديث، وفي هذا الوقت تتضاعف الانتهارات، التهديدات قرعات الهاتف الوزارية وسأغرق في المياه إلى هنا؟ أنتم؟ لستم في عداد حساباتهم، أنا هو رئيس العبارية ولا تنسوا هذا! لنعد إذن أين كنت قد وصلت، آه! أجل إذن فهو يسافر من «لافورش» إلى «كاروفور بلايال» بالسكة رقم 13 في آخر محطاتها ثم ينطلق من جديد من «كاروفور بلايال» إلى «لافورش» ويعود إذن أدراجه، لم يكن عليه حتى أن يتنبأ بذلك الأبله! ينتظر أن يصل القطار التالي ذلك الذي يجب عليه أن يتجه منطقياً نحو «بورت دو كليشي» أي السكة 13

مكرر، إلا إذا ـ وهذا محتمل فعلاً ـ كان قد فاته مرة أخرى القطار المتجه إلى «لابورت دو كليشي» الذي يكون قد مرّ بينما هو تائه بالسكة 13 وأنه في هذا الوقت يكون قد كرّر نفس المشوار عدة مرات فضيع إذن ساعتين ونصف الساعة إلى أن يكون قد ركب بالصدفة قطاراً يتجه إلى «لابورت دو كليشي» إذ هنا وصل فعلاً، بما أنه اغتيل في المكان ذاته، وها هو إذن يذهب ويؤوب على نفس السكة دون أن يتوصل إلى مبتغاه أبداً، مستمراً في عرض قصاصاته تحت أنوف أناس مرهقين متعبين يجهدون أنفسهم أحياناً ـ العالم مملوء بالنيات الحسنة ـ في إرشاده إلى الرصيف الآخر الذي سيحول به مرة أخرى في انتظار أن... ثم أننا لا نعلم شيئاً! لا أحد رآه في «كاروفور بلايال» وليست هناك زحمة كبيرة في تلك الساعة بالذات. إن رئيس المحطة حاسم في تأكيده، لكن عندها ماذا! يا له من نحس! كيف نلقي القبض على المازحين الصغار إذا لم نكن نعرف ما هو الطريق الذي قطعه بصفة مفصلة، إذ أن كل سر البحث البوليسي يوجد هنا، ويمكن لي أن أكرره لكم: التفصيل! التفصيل ذاك هو ما نتعلمه في مدارس الشرطة المحترمة.

ـ ذاهباً، آيباً، مرهقاً، ناعساً، محبوساً في القبو اللاغط الصاخب بأحلام الآخرين التي تمتزج بأحلامه وتتصادم داخل الجماجم الصلبة وقد فرغت من كل سطحية النهار واكتظت في تلك الساعة (11 مساء) بهشاشة غريبة في

مجملها وبينما كان هؤلاء الركاب، طوال النهار، الضحايا البريئة للآلات، المكاتب، الساعات الجدارية، رؤساء المصالح، الزبناء والمشاكل المختلفة، فإنهم يفرغون في الخدر والتحمية، كل مآخذهم على الإيقاع المتقطع للقطار المنطلق في جنون سكره، مخدداً ليل النفق الأبدي ومفجراً ليونة الفضاء وهو، ما يفتأ يصر على حمل حقيبته بيده اليسرى، على ترك كتفه أعلى من الأخرى وعلى ضم مجموعة قصاصات منها تنبجس الوحيدة التي يكون لها شأن ما بخط الصبية (التي أخرجت «العسكر» من اقتناعهم ومن تسلطهم على العصابة، وقد بوغتوا بالانقلاب المفاجىء للقبيلة التي كانت إلى تلك الساعة ثابتة في وداعتها المضجرة حيث شرعت تطرح أمامهم مشاكل إلى درجة أنها جعلتهم حساسين ثرثارين فوقعوا في التساهل وألفوا الارتياب بينما كانوا قد لقنوا الآخرين اليقظة النهائية؛ إذن لقد فاجأهم الانقلاب المباغت وغير القابل للردع لناس الجبل الفقراء، الذين سبق لهم لحد الساعة أن أنفقوا عليهم من دريهماتهم ومن جدالهم الممل، إذ لم يكونوا يمدونهم بالأكل فحسب وإنما كانوا يمدونهم بمادة التفكير والتأمل، بحيث أن ذلك الانقلاب حرمهم هذه المرة، من صلاحيتهم العليا: كتابة الرسائل وغيرها من النصوص المختلفة الأنواع، تاركاً إياهم ينتقعون في غمرات الضغينة والمناجاة المؤرقة، حتى أنهم فقدوا، دفعة واحدة رغبة الشراب، رغبة التدخين ورغبة الصدح، وراحوا يلعبون الشطرنج بلا

توان، ثم قاموا بتصفية نهائية، فأبعدوا جميع المشوشين الذين كانوا ينشرون ـ عمداً ـ دعايات مفادها أن «العسكر» لم يكونوا غاضبين تماماً لإعفائهم من الكتابة العمومية وإنما هم حانقون ومتذمرون، لسفر الآخر الذي أقرضوه حقيبتهم الجماعية ذلك الذي حلموا بموته، جميعهم الثلاثة أو الأربعة، حسب اعتبار صاحب الدكان شريكاً أو حسب عدم اعتباره كذلك، في نفس الليلة وبذات الصور التي أسرعوا يروونها لبعضهم البعض صباحاً، ثم قرروا منع نشرها على بقية القبيلة حتى لا توصمهم بالطيور المشؤومة وحتى لا تقوم، إثر الإعلان عن موته عند مخرج المترو، بمعاقبتهم معاقبة شنيعة بتهمة السحر الأكبر...) الخط الذي يكاد يصبح ممحياً ساعتها، بحيث يضطر الناس إلى إخراج نظاراتهم من أغمدتها للتمكن من فك الحروف ويدفع إلى أذهان الآخرين فكرة أن يسحبوا من جيوبهم عدسات صغيرة كانوا يلصقونها بالقصاصة المهترئة التي كانت تمزقاتها المختلفة تظهر لحظتها كفوهات براكين مفتوحة في المادة الورقية ذاتها. إنه يروح ويجيء بين «لافورش» و«كاروفور بلايال» للمرة السادسة، عاثراً على طريقه، في المحطة الأولى، بفضل اللوحة الإشهارية للمرأة الشابة برفقة طفلها، الملصقة على مستوى ما من الرصيف، مباشرة قرب جهاز صغير أصفر مثبت في منتصف ارتفاع الجدار ذاك الذي يرى فيه من خلال واجهة صغيرة، كويرات حمراء، صفراء، وزرقاء (حلويات؟ علك؟) فيخالها هو ـ بسبب الابتسام

بالتأكيد ـ تعبيراً عن الترحيب، مما يضاعف بلبلته إذ لا أحد حاول لحد الآن استقباله، ربما ما عدا لاعب «الفليبر» الذي لم يكن يتوقف عن تكرار: متى توضع مضيفات جميلات ترتدين ألواناً زاهية لاستقبال أمثالك؟ ولكن أنت تعرف، أن «الفليبر» هي ابن البلد المتعلم جداً، سلين (ألين؟) التي بهرته، الرجل الذي كان بالمدرج الميكانيكي، ذاك الذي لم يتجرأ على النظر إليه، صاحب المطعم الذي كان قد غادره لتوه، إلخ... تلك ـ الملصقة ـ التي تمكنه دائماً من النزول بنفس المحطة (**حرية الحركة والفكر، الأمان، السرية، دون نسيان اللطافة، هذا ما يحق لامرأة أن تنتظره اليوم من حماية أنثوية**). عوض أن يستمر إلى ماوراء محطة «لافورش» باتجاه ساحة «كليشي»، «لياج» (**حذار! حذار! محطة «لياج» مغلقة أمام الجمهور. حذا**) «سان لازار» إلخ. وأن يعثر على طريقه في «كاروفور بلايال» بفضل الصوت الذي يرن في سماعة «النهاية!» «كاروفور بلايال» النهاية «كار...» يروح ويجيء، عيناه تجحظان من التعب، لم يعد يفهم شيئاً طائعاً تعليمات أولئك الذين يجهدون أنفسهم لإرشاده بحركات ذاهبين إلى درجة إخراج نظارات وعدسات وأقلام متعثراً، مع ذلك، باللوحة من جهة وبالصوت المضخم في مكبر الصوت الأخن المنقبض من الجهة الأخرى، مذعوراً وسط الضجيج الجهنمي، منذراً نفسه لطقطقات واندفاعات الآلة التي تنطلق بعنف، مضغوطاً باللهاث المسعور. وحيداً! مترنحاً

منهكاً! لم تعد الحقيبة تلتصق في يده سوى برزة في اندفاع أخير من الكرامة يرفعها أكثر من اللازم، كما لو كان ذلك لإعفائه من البلبلة النهائية.

ـ والابتسامات تتدحرج فوق رأسه، ابتسامة الطفل الأكثر زيفاً من ابتسامة الأم، إذ أنه يضاعفها فوق الحد إلى درجة أن عينيه تنغمضان فيبدو هجيناً أوروبياً آسيوياً، بينما عينا أمه مفتوحتان نجلاوان حيث تظهر فعلاً من الجنس الأوروبي، الشيء الذي يترك مجالاً للافتراض بأن الأب قد يكون آسيوياً لكن لا شيء يسمح بمثل هذا الاستخلاص إلا إذا أخضع الأمر للاستقراء بسبب هذا الإغماض للعينين خضوعاً لرغبة المخرج لا غير، حيث أنه وجد في ذلك إضافة نقطة تغريب للكل، مما ينسي الشيء فلا يرى منه، أسفل اللوحة، سوى العلبة التي تحويه، يجعله شاعرياً نوعاً ما رغم النص الطويل فوق العادة، بما يشبه قليلاً نصاً علمياً مزعوماً مضجراً، مسئماً ومدمياً (**إن مزيجه من القطن السليلوز يمتص الدم دون سيلانه، سواء كنت واقفة، جالسة أو ممددة**) ويحرم المرأة لا من إمكانية المشي فحسب، وإنما من الإسراع، الجري (لم لا؟)، سحب طفلها من يده، دون أن تسقط أبداً أو يغمى عليها أو تترك نفسها تفرغ من دمعها المندفع خيطاً من الفرج حيث يغمر اللزازة ويدفعها إلى الخارج رغم صناعتها العلمية ورغم المواد المقاومة والماصة التي تشكلها. غير أن هذا ليس إلا أثر خيال عقيم للرائي الذي لا يمكنه أن يمتنع عن تعرية

الصفحة المخفية من الديكور، عن نبش قبح ما يحاول آخرون أن يجعلوه شاعرياً بنفقات كبيرة وباستعمال واسع للتقنيات الدقيقة، المعارف العلمية، الأدبية، اللغوية والنفسية إذ أن الأمر يتعلق في الأصل بتمثيل مسرحي بسيط ولا سبب يدعو للاعتقاد بأن النموذج كان يعاني حقاً من حيضه يومها إذ أن هالة العينين لا تنبئان بشيء: فالعديد من النساء تكون وجوههن مرتاحة وضيئة خلال دورتهن الحيضية، لا سيما وأن هالتي عيني المرأة الشابة الموجودة في الصورة، ناتجتان، بالتأكيد، عن لمسات مرود مزين ماهر، خاصة وأن مخرج الصورة يعرف نفسية المرأة بحيث أنه لا يلح على الهالتين سوى لإشعار المستهلكات بالإثم ودفعهن لشراء هذا الطراز دون غيره، كما لو كان يريد أن يعبر بهاتين الهالتين، عن فكرة مفادها أن المرأة لا تكون سعيدة بلزازة «أميرة» فحسب، وإنما تفقد آلياً تلك الآثار البشعة بمجرد وضعها لزازة من هذا النوع، معتمداً بصراحة وبخبث على الزينة الأنثوية إذن، فالأمر لا يتعلق سوى بتمثيل مشهد تشتم منه، علاوة على ذلك، رائحة الكليشيه والنموذج الشيء الذي لا ينجم فقط عن تفاهة الصورة، الباعثة على الثقة حقاً ـ لأسباب بديهية بالنسبة للسلوك الجاري ـ إلى درجة أن هو خدع بها، بابتهاجه وغبطته بالشمس الحارة (تسع ساعات من الشمس) يوم ذلك السادس والعشرين سبتمبر 1973، أمام محطة «أوسترليتز ـ جار ـ دورليون» ـ ولكنها تخلو من أية أصالة، بسبب

النص اللاعب على نوع من الموضوعية العلمية لمختص (إن مختصاً وحده يمكنه أن يدرس لزازة لطيفة فوق العادة، إن لزازة أميرة بطرفها المدور تسمح بوضع سهل ومباشر كله لطافة) الطويل أكثر من اللازم وغير الماهر حقاً، بحيث أن لا أحد يرغب في قراءته. صحيح أن الصورة ناجحة تمكن من إبراز مسمات بشرة المرأة الشابة، ضحكات الطفل، الهالتين تحت العينين، انكماشات الفستان المسطر المصنوع من قطن أو ساتان أو حرير ممزوج بألياف اصطناعية (نيلون، أكريليين أو...)، الأوردة البارزة على مستوى شظية الأم، إلخ. غير أنها (الصورة) لا تدفع بالخصوص إلى شراء مثل هذا الطراز، لذلك كان اللجوء إلى التخويف الذي يستعمله المخرج دون أن يكون متأكداً من أثره بل حتى أنه يخاطر مخاطرة كبيرة إذ يمكن أن يحصل على نتيجة تعاكس رغباته نظراً لأن النساء، بفضل حدسهن الأسطوري، قد تربطن هالات العيون، الشيء المنفر، بالطراز الثابت في لاوعيهن الناقد، بجميع المآسي التي يمكن أن تقع على رأس امرأة حلوة (التجاعيد، هالات العيون، الشعر الأبيض، التهاب النسيج الخلوي، تعاظم الوزن، إلخ). وترفضن قطعاً شراءه، منظمات لجاناً لمقاطعة الطراز، مدبرات ـ ربما ـ مشادات للتخلص من الرجال وعداوتهم التي تؤدي بهم إلى عدم تصور امرأة دون هالات خلال حيضها، أو امرأة دون تنفس كريه إذا لم تستعمل ذلك الطراز من معجون الأسنان أو امرأة دون

رائحة كريهة إذا لم تكن تعرف ذلك المزيل للروائح، كما لو أن الرجل، هو، لم تكن له رائحة كريهة أبداً، لم يكن يعرق أبداً، بدعوى أنه ليست له دورة فيزيولوجية مثلما للمرأة! ولكن كذلك النص الذي تفوح منه لغة المبالغة (**إن لزازة أميرة تتمدد جانبياً محافظة بذلك على المنطقة الحساسة من الفرج**)، الفاجر، قليلاً، في تدفقه مستعملاً كلمات لا تخلو من التعبير ـ رغم انضوائها في المفردات العلمية ـ عن عضو قادر على إثارة غريزة الرجال المتروكين في المترو إذ يمكنهم أن يهاجموا النساء فجأة... ولكن ليس هو، على كل حال! حائراً ومذعوراً لا يفهم شيئاً من هذا الطوفان من الكلمات التي تبقى رموزاً أكثر من سحرية خداعة غدارة لكنها خالية من كل معنى، مجنونة في تحرك خطها، شاقة اللوحة بخطوط بيانية زرقاء أو برتقالية ومنظمة في خبث لا معاني مثل رطانات شتى حمقاء ومنافقة تخلق ما يشبه شبقاً دموياً وعفناً، بما يماثل، قليلاً، جو المواخير التي يختلف إليها المهاجرون ناحية زقاق «الاشاربونيار»، تلك التي لم يتجرأ «العسكر» على ذكرها له، لا لحياء ما، غير لائق، وإنما لأنهم لم يقرروا أبداً أن يكشفوا له خساسة تلك المواخير الضيقة المختصة في التمريرة الفوق سريعة، الرخيصة، نسبياً، لتمكين العمال الأجانب المحبوسين داخل دوائر مصفحة، على هامش الحياة الحقيقية، والمطرودين خارج كل وجدانية، دون أية ذمة، وإن كانوا لا يخلون من بعض الثقة، لتمكينهم من إفراغ

فائضهم من الحيرة والتهيج في نساء شرسات من البلد يضحى بهن طلباً للمردودية... حائراً ومذعوراً تبهره الصورة المقلوبة للقطار على جدار النفق الضعيف الإضاءة كحيوان حلقي يسرع في هزل نحو لانهاية غامضة، تقطعها بلا توان كتابات مجزأة ومتكررة (دو ـ دوبون ـ دو ـ دوب) كما لو كانت مقذوفة، يتقيؤها الجدار الباهت، تنضح باللون ذاته، ثمالة خمر، بشعة ومتجهمة. إنه يتقدم وبخلده يدور هذا المزيج من الانطباعات، الأشياء، الصور والرموز التي تنفصل بلا توان عن كويرة لامرئية وتحصره في شبكة مهولة، صوتها، المردود أبداً، المبتلع في أسحق أعماق الحنجرة، قد يكون الكتابة الوحيدة الأصيلة القادرة على التعبير عن هذا التخوف الغامض من الواقع المتذبذب في الصوت الداخلي الذي يعجن الصراخ المكبوت، ذاك الذي يمثل امتداده داخل رأسه ناقوساً بلورياً مطولاً ودائرياً يقص الأوردة والشرايين من خلال ألم صلب ككتلة حديد تسد الأفق للمرة الأخيرة، دون أي أمل احتياطي بالفسخ الإجباري!

ـ... يضحي بهن طلباً للمردودية وهن يعلمن ذلك حيث يخرجن، بتفاخر، من صدرياتهن، أثداء ضخمة ودبقة، أو جدعات مكرمشة لم تعد تطيق ـ كان «العسكر» يقولون في رمزيتهم الفوق سرية التي ابتدعوها لتوهم منذ أن توصل الآخر إلى فك الرموز الأولى ـ احتواء كل الخوف السائل عبر الأصابع المشوهة بالعمل الضخم والمرتعدة

حنيناً وفزعاً أمام البشرة المشجية للعجائز المقهقهات واللامباليات بسعارهم وحزنهم الذي يحتسونه في احتداد قلوي تماماً، تشتم منهم المواد الكيماوية للخمريات، الروائح النتنة لمطاعم المعامل والعفونة المقززة للمغاسل الضخمة، وهم يتشبثون بتلك الحرارة الشبيهة بالحرارة الإنسانية، يأخذون بخزي بشرة رخامية مبفسجة ببرودة الغرف غير المدفأة أو بأمراض متسترة أو مخزية، منثورة بدمل مزرورقة كحلمات مظلمة وقاسية تطبع الأجساد الفاحشة في سمنتها أو نحولتها، نفايات الميجتمعات التي لا ترحم ينحدرون إلى الموت المتثائب بين سيقانهن المزغبة والدسمة، من خلال بشرة متورمة حتى احمرار فرج جموح ولزج في نفس الوقت، مستعد رغم هذا التورم الحوضي، لامتصاص أكبر الحشود وهي تتلمس طريقها باكفهرار، بحثاً عن كوارث دم وبارود وهزات زلزالية تطوح بلامبالاة العالم وتعيده إلى منبعه الخاص. صحيح أن هذا الأخير هش، بل مهجور، غير أنه يشكل رغم كل شيء المنفذ الوحيد الباعث لأسس السعادة ذاتها المداسة بتفاهة، بدل أن تبتلع بحماس ولهفة في نوبة حمى وهذيان، تضرب عرض الحائط بالنسغ المجفف منذ أمد بعيد وبالحدة التي يكبتها تراكم الصمت ويكبلها الخزي الجماعي لأولئك الذين يصطفون في طابور أمام أبواب الفنادق، منتظرين دورهم، كابتين إجهاشهم بالبكاء ومنطوين، يتجاذبهم الفرار والتشبث الجنون والزفر. صحيح أن هذا الأخير حقير غير أنه قادر

على إخراج كل ذلك الوسواس وكل تلك العزلة التي تنتاب الإنسان المختل بالاحتقار الذي يقرأه يومياً في عيون جيرانه أو بما يقرأ في المجلات الباكرة جداً التي تورد ـ عند فطور الصباح ـ أدبها السافل. وخوفاً من البشرة المرعبة المزرورقة، مثل كوكبة ذباب أخضر تتجمع حول الموت، وهي تنبجس كثيفة ومجدورة في فوهة تكتظ بالكوابيس والوساويس، مبسوطة عمودياً في صلابة درنية تماماً مثل دناءة مثلومة من طرف إلى طرف، فيها يتوجب الغوص إجبارياً تحت طائلة الموت اختناقاً بشراسة الأشكال التي تشاهد في رمشة خاطفة، طوال النهار، كلما مرت عن كثب معشوقة متزينة ومتعطرة، وخوفاً أيضاً من الثلمة الفتاكة يهاجمها الهذيان بفضل اضطراب خرافي يختطف الأفخاذ اللحيمة لقبيح منبوذ من أمكنة المتعة صوب تلك الزنازن الخاصة بالنحس والمصيبة اليومية. ومهما يكن، لم يكن هناك مجال للاختيار ما يفتأ «العسكر» يكررون ضاربين جبهاتهم ـ لا سيما وأن لعنة المتاهة ما زالت تطاردهم في الغرف البشعة، حيث يحاولون التقاط لحظة متعة في الضجيج المهول للمترو الجوي، وهو يمر فوق رؤوسهم متجهاً من «باريس» «روشتوارت» إلى «بورت دو كلينينيكور»، فيضعون أيديهم المكدودة بالآلات، في كثات شعر رطب ملتف حول بعضه البعض بينما الغولة تضبط ببرودة عينها العوراء على منبه صباحي صدىء ذي دقات مفرطة الجهر، كما لو كانت ترمي إلى أن تقطع لهم كل

رغبة في الانزلاق داخل الفرج المظلم، القيام بالذهاب والإياب بصرود، إرهاق أنفسهم، الدحض في جميع الجهات والغرق نهائياً في السعادة التي تفور ساخنة من أعماقهم، وإن كانت تتركهم، مع ذلك، في ظمأ مؤلم دون ذكر المهرات ـ ما يفتأ «العسكر» يكررون ـ الباهظات الثمن اللواتي يتصرفن بوقاحة ويرفضن كل اتصال بهم، فتطردنهم، دون لباقة، إلى بيوتهم القصديرية أو زنازنهم أو غرفهم الفندقية كي يموتوا هناك من الاحتقار الصعب الهضم الذي يبقى يسد الرئات التي كانت هشة رقيقة لديهم، وكذلك، دون ذكر السادة الشيوخ ذوي الصوت الحلو الذين كانوا ينصبون لهم كمائن حقيقية تحت جسر «كليشي»، ابتداء من الثامنة ليلاً، بينما هم يعودون من العمل مرهقين يحنون إلى أغنية من البلد، ما فتئت تنط في رؤوسهم المنفوخة كقربة عصير نخيل في الخريف...

ـ... في الخريف، حيث تترك تتدلى في طرف الغصن بالقرى المحيطة بالجبل، من خلال غابة نخيل تتلوى حسب الخط العبيط للواد وهو يحمل، في الشتاء، صخوراً ثلجية من البلور، ويبقى مملوءاً، في الصيف، بينما في الأعلى، بسفح الجبل، تتشبث قرى دكناء من آلاف السنين، في انبهار معماري يتكوّن من أشكال وأحجام تتزاوج تماماً مع الصخور المحيطة، وهي كامنة في جب طبيعي فوق مرتفعات منيعة، يمكنها من مشاهدة مجيء الدخيل أو الغازي الذي تتحداه دوماً بفضل التحكم في الفضاء وبفضل

الدكنة المحولة إلى بياض باهر حين يبلغ الالتهاب الشمسي ذروته كما لو كان ذلك حيلة تكتيكية طبيعية تماماً، كان الأجداد المحاربون، المتوجسون دوماً، يستعملونها، قديماً، للتخلص من الغازي بقذفه في الموت فيسقط في الفخ لأنه كان يتعنت في القضاء على الجنس حيث كان يرشه بالنابالم والقنابل مهدماً أجزاء جدران، سطوحاً، غلالاً غير أنه نادراً ما كان يهدم الأسس ذاتها للقرى المنقوشة في الصخر الذي يقص ذاكرة الغزاة ويعكرها بفضل الرائحة النفاذة لأشجار العرعر التي تكبد بالخسائر مساعيهم وسلوكهم، وهم يتعنتون، رغم الدكنة والزرقة الحصينة، في مواصلة المجزرة في غمرة رائحة المشمش الذي يجف فوق سطوح منحدرة قليلاً تمد المدافعين باللانهاية، وهم يتلذذون بالثمار السكرية المغذية ويترقبون في نفس الوقت، العدو المتجنن بالتكاثر الحاسم والتراكم غير الرحيم للمعادن التي تفتح ثغرات في بصيرة كل أجنبي، وهو المهتز في المغارة الجهنمية الغارقة في الهذيان، ما يزال يحن إلى تلك التزاوجات للألوان المتحصل عليها انطلاقاً من الدكنة، حيث تحقق أشكالاً جنونية قسوتها تنبجس عبر الفضاء ماوراء الجبال وحتى في الصحراء حيث يضم الرمل قرى تتشابه في جميع النقاط وقد أخلاها سكانها وإن كانت تحافظ على سلامة أشكالها وتناسقها وألوانها، بحيث تكتسب بعض الزنجار المتولد عن رياح الرمال وعن السرابات المنملة في دبيبها حتى

السبخات التي كان يحسن عبورها قبل أن يأتي ليسجن نفسه في المتاهة بكامل حريته في التحرك رغم دبيب الحشرات المختلفة الأنواع الأبعاد المقولبة حسب ثلاثة قوالب، قالب السماء، الغطاء الأزرق الحليبي الذي يطبع الأفق، قالب الجو، ملايير الانعكاسات اللامعة لمعان بياض الفولاذ وقالب الرمال، التكوم المتراكز الداكن والأحمر تسده التعاسة التي يحن إليها، بينما هو في نعاسه ونصف انبهاره، ما زال لا يفهم لماذا ينضم الفضاء، هو الآخر، إلى الكل لتضليله، وقد عانى الأمرين للوصول إلى نتيجة رديئة جداً.

ـ منذ ذلك الصباح الذي نزل فيه بمحطة أوسترليتز سعيداً بالتغلب على البحر، متهيئاً لأن يرسل إلى رفقائه المسرحيين القدامى، برقية منتصرة (وصلت. نقطة. سليماً. نقطة. معافى. نقطة) أولئك أنفسهم الذين حكموا عليه نهائياً بالغرق، وقد ابتهج حين اكتشف ابتسامات المرأة الشابة وطفلها، الموجهة إليه والموضوعة هناك، خصيصاً لاستقباله بالترحيب، وهو يحنق لكون الآخرين لم يعلموه بهذه اللطافة الخارقة، حاملاً حقيبته التي لا تجذب إليه الأنظار تماماً، رغم رزاتها، زوائدها التي لا تنسى، بيده اليمنى، من بعض الغرابة والشذوذ إنه ما يفتأ يتعثر باللغز الهزاز الذي يتلوى في رأسه على شكل قطعة سفن تحفر أفقياً وبعمق وريقه يجف لشدة دورانه داخل الدائرة الملتفة حول نفسها وحول وساوسه البكماء، إذ أنه يعلم في عمقه

الفلاحي، إن بقاءه يجب أن يكون بلا عيب، الشيء الذي يجبره، دوماً على أن يكبت توبيخاته ويتحمل ـ في صمت ـ صداعاته النصفية التذبذبية التي تقطع جمجمته في عدة أماكن. وهو يتذكر كل صغيرة وكبيرة فلا يغفل شيئاً وإن كان يخلط بين الكل تحت صدمة الاعتداء الذي يتعرض له في هذا البلد ماوراء البحر، فإنه يحافظ على ترك جزء من ذاكرته منصباً على «العسكر» نحسه وحسن حظه في نفس الوقت، منذ أن أبحر داخل سفينة قادته مباشرة إلى قلب المدينة الأجنبية المكتظة بالجنازير والعوامات والعمارات المتلاصقة والشوارع المنحدرة بشدة حيث دهش حقاً وهو يصطدم ـ شارع طانكراد ـ وجهاً لوجه بكوكبة من العرافين يفترشون الأرض في ارتياح أمام أطباق رمل ويقرؤون المستقبل لأولئك الذين ينزلون مثله في هذه القصبة الأوروبية، غير المتأقلمة مع ذاتها، الخرقاء، المنغرزة بين رائحة خمر «الباستيس» وبين محاربة نبرة مؤلمة. ثم ليلة في القطار وهذا الوصول المقحم مع الابتسامات الصورية، دعوات بائعات الزهور والشمس اللامعة عن كثب من الأرض فتطبع على حدقته ألواناً حمراء ـ خضراء تعلن عن نعاس على شفا السلام واللطافة والعطاء الجزيل، سيما وأن إرث «العسكر»، النابض لصق صدره حسب إيقاع قلبه المنبعث من خدره وخوفه، يمنحه بعض الأمان إلى لحظة توقفه أمام قاطعات التذاكر الآلية السبع، الآلات الحربية الحقيقية التي لا تؤكسد أبداً الضخمة، المصففة بطريقة

عدائية، المنتفشة المقابض وإلى الفروع الثلاثة، ناتئة مستعدة لبقر بطنه عند أية محاولة للاحتيال، الحاملة لعدة اتجاهات ممنوعة واتجاهات إجبارية، الزاخرة بأضواء أخضر وأحمر لمعانها، المشقوقة بثقب مختلفة مخفية ومدسوسة في كل جزء من أجزائها، وهو مضطر لاكتشافها لكنه لا يفقه في الأمر شيئاً، فيتنازل عند ذاك ويقرر إشهار تذكرته الصفراء وكأنها علم الاستسلام الأبيض، وتخطى الملوي الآلي بخفة ويسرة، متجاهلاً العين الإلكترونية القادرة على تصوير حركته وعلى إرسالها، من خلال شبكة كهربائية مغلقة متشابكة معقدة متحابكة بعدد لا يحصى من الخيوط والترابطات، في اتجاه ناقوس متيقظ هو عبارة عن جهاز مراقبة وتجسس ووشاية؛ وفجأة يأخذ الناقوس في السقسقة على وتيرة رنات صاخبة وصغيبة ومتفجرة من خلال أذنيه فيمزقهما بكيفية مقيتة وخداعة فيعمه الولع والهلع؛ وبعد ذاك يخرج العسس والمراقبون والمفتشون المتحرضون من كل صوب فيطوقونه بسرعة البرق فيتجمعون من حوله وينتزعون منه التذكرة الصفراء المخربشة بكتابة مقلوبة الحروف، ثم يأمرونه بالرجوع إلى الوراء ويخرزون التذكرة محله مستعملين في ذلك الثقاب الآلي الذي يبتلع الورقة الصغيرة ثم يلفظها من خلال فرجة صغيرة توجد على سطحية الآلة الوحشية المنظر، ثم يتركونه ينصرف وفي أعينهم نوع من الازدراء الممزوج بشيء من المظنة؛ وأحدهم يقول: «مسكين هذا الشخص، إنه لفي بداية المطاف وسوف يعاني من وضعه حتى تعرق أسنانه!..».

المحتويات

السكة 5 ______ 5

السكة 1 ______ 53

السكة 12 ______ 97

السكة 13 ______ 149

أحد عشر قتيلاً منذ 29 أوت ______ 153

السكة 13 مكرر ______ 195

كتب أخرى للمؤلف

من أجل إغلاق نوافذ الحلم، 1981، (شعر).
ألف وعام من الحنين، 1981، (رواية).
الإنكار، 1984، (رواية).
الرَّعن، 1984، (رواية).
يوميات فلسطينية، (يوميات).
طبوغرافية مثالية لاعتداء موصوف، 1983، (رواية).
الحلزون العنيد، 1984، (رواية).
ضربة جزاء، 1985، (رواية).
التفكك، (رواية).
المرث، 1984، (رواية).
لقاح، 1983، (شعر).
يوميات امرأة آرق، 1985، (رواية).
معركة الزقاق، 1986، (رواية).
فوضى الأشياء، 1990، (رواية).
حقد الـ FIS، (مراسلات).
تيميمون، 1994، (رواية).
رسائل من الجزائر (بيان).
الشرق في الفن التشكيلي، (دراسة).
واقعة اغتيال ياماها بعد فوز الـ CRB، (رواية).
الانبهار، (رواية).

■ صدرت هذه الكتب جميعها في طبعة جديدة عن المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار (ANEP) عام 2003.

كتب أخرى للمؤلف

من أجل إغلاق نوافذ الحلم، 1981، (شعر).
ألف وعام من الحنين، 1981، (رواية).
الإنكار، 1984، (رواية).
الرّعن، 1984، (رواية).
يوميات فلسطينية، (يوميات).
طبوغرافية مثالية لاعتداء موصوف، 1983، (رواية).
الحلزون العنيد، 1984، (رواية).
ضربة جزاء، 1985، (رواية).
التفكك، (رواية).
المرث، 1984، (رواية).
لقاح، 1983، (شعر).
يوميات امرأة آرق، 1985، (رواية).
معركة الزقاق، 1986، (رواية).
فوضى الأشياء، 1990، (رواية).
حقد الـ FIS، (مراسلات).
تيميمون، 1994، (رواية).
رسائل من الجزائر (بيان).
الشرق في الفن التشكيلي، (دراسة).
واقعة اغتيال ياماها بعد فوز الـ CRB، (رواية).
الانبهار، (رواية).

■ صدرت هذه الكتب جميعها في طبعة جديدة عن المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار **(ANEP)** عام 2003.